مدام بوفاري . العالم سنة ٢٠٠٠ لرسل .
الشقيقات الثلاث لتشيكوف
كازانوفا

كتابي

١٠ قروش

حلمي مراد

رأيت وسمعت لك في آسيا

(في الصين الشعبية.. واليابان.. والهند.. وهونج كونج)

كتابي

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية
يصدر اول كل شهر
صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

شعار الكتاب :

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب الحادى والسبعون (السنة السادسة) فبراير ١٩٥٨

الاشتراكات ومجموعة الأعداد السابقة : اقرأ التفصيلات بالداخل
الادارة : عمارة الجندول – ١٤ شارع ٢٦ يوليو – بالقاهرة
تليفون : ٥٩٥٥٦

محتويات العدد

الموضوع	رقم الصفحة
رأيت وسمعت لك فى الصين	٧
مدام بترفلاى .. الأوبرا الخالدة المستوحاة من الحياة فى اليابان	٣٥
فتاة من دمشق .. قصة عربية بقلم الكاتب السورى : **محمد حاج حسين**	٤٥
فيراتا .. قصة كبرى للروائى النمسوى الأشهر : **ستيفان زفايج**	٥٧
العالم سنة ٢٠٠٠ ، للفيلسوف الانجليزى الشهير : **برتراند رسل**	٩٥
الشقيقات الثلاث .. أولى المسرحيات الاجتماعية للكاتب الروسى الشهير : **أنطون تشيكوف** ...	١١٣
سيكلوجية الضمير .. الكتاب الذى يشرح لك أسرار النفس وقواها للاستاذ : **محمد كامل النحاس**	١٤٣
السلوك الجنسى لدى المرأة .. أكبر بحث جنسى وضع فى تاريخ البشرية ، للباحث الأمريكى الكبير : **ألفريد كينزى وآخرين**	١٦٣
مذكرات كازانوفا .. الكتاب الخالد فى أدب العشق والمغامرة	١٨٣

نسخ أنيقة ((مقصـــوصة الاطراف))

تعد خصيصا للمشتركين فى ((كتابى)) و ((المطبوعات))

• اذا اردت الحصول على نسختك من « كتابى » او « مطبوعات كتابى » انيقة نظيفة ، مقصوصة ، من جميع اطرافها ، فاشترك فى السلسلتين ، او احداهما ، تضمن وصول الاعداد المذكورة اليك فى عقر دارك ، اينما كنت ، بالبريد « المسجل » وفى مظروف مغلق .

ارسل فورا الى الادارة (١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة) اذن بريد بقيمة الاشتراك الموضحة ادناه ، لأية مدة ترغب فيها !.. واذا كنت بعيدا عن مكتب البريد فى هذه الساعة او كان المكتب مغلقا ، وخشيت ان تنسى الموضوع او تهمله لو ارجأته ، فتناول قلما من فورك واكتب الينا « برغبتك » فقط فى الاشتراك ، وسوف نتولى نحن تذكيرك بالأمر بخطاب خاص فى فترات متفاوتة ، لنساعدك على تنفيذ رغبتك ، حتى تحققها .. فلا ترجىء الكتابة الآن ، واذكر ان الارجاء والتسويف هما الد اعداء الانسان ، فهما يحرمانه من كل فرص السعادة او النجاح .

اسعار الاشتراك ، بما فى ذلك نفقات البريد المسجل

فى القطر المصرى والسودان : ١٠ قروش عن كل عدد (باذن بريد او حضوريا بالادارة) . فى سوريا ولبنان والعراق والأردن والحجاز : شيك او تحويل على احد بنوك القاهرة بما يوازى ١٢ قرشا مصريا عن كل عدد ، او كوبونات دولية بـ ١٣٠ مليما مصريا عن كل عدد . فى بقية بلاد العالم : شيك او تحويل على احد بنوك القاهرة بما يوازى ١٣ قرشا مصريا عن كل عدد . والرجا عدم ارسال نقود داخل الخطابات سواء العادية او المسجلة .

نافذة كتابي تطل على العالم

رأيت وسمعت لك.. في آسيا

للمحرر

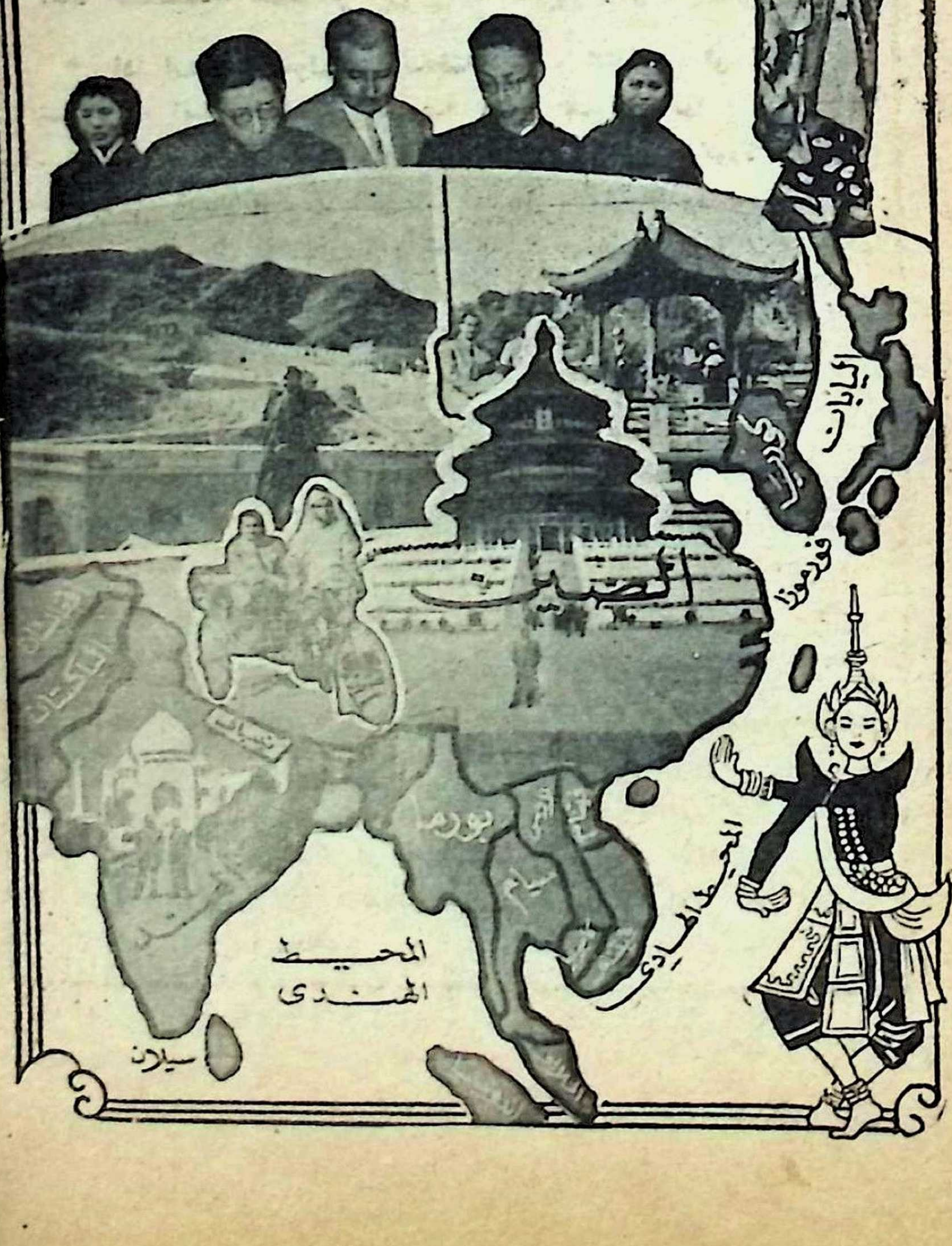

تعال معى نواصـل جولتنا

عزيزى القارىء ..

فى العدد الماضى بدأت حديثى اليك عن رحلتى الى آسيا ، فانتقلت بك انتقالا خاطفا من القاهرة الى بومباى ، فدلهى ، وكلكتا ، وبانجكوك ، وهونج كونج ، ثم ساقنى الاستطراد من هذه الاخيرة الى طوكيو عاصمة اليابان ، فى زيارة « مؤقتة » لها جميعا ، ريثما اوفيها حقها من التفصيل فى حينها ـ حسب الترتيب الزمنى لزيارتى لكل منها ـ ثم عدنا معا من طوكيو الى حيث ركبنا من هونج كونج قطار الحدود ، فى طريقنا الى (كانتون) ، اولى مدن الصين الشعبية

وقبل ان ندق معا ابواب الصين ، آثرت أن أكتب لك فصلا تمهيديا عن تاريخها العريق ، وقصة حضارتها منـــذ فجر التاريخ الى اليوم ـ (وسوف اتبع نفس الطريقة قبيل زيارتنا التفصيلية لكل من اليابان والهند .. الخ)

وقد رويت لك فى ختام العدد الماضى كيف نشأ شعب الصين على ضفاف النهرين الكبيرين ـ (النهر الاصفر) ونهر (يانجتسى) ـ وكيف تطورت احواله وحضارته منذ عام ٢٣٥٦ حتى اشرقت عليه حكمة حكيمه الاشهر «كونفوشيوس»، الذى عاش بين عامى ٥٥١ و ٤٧٥ قبل الميلاد .. ووقفت بك عند المرحلة التى اخذ فيها هذا الفيلسوف الملهم يبشر بدستوره الاخلاقى الذى ما زالت الانسانية ـ فى العالم بأسره ـ تدين له بالكثير . والآن تستطيع ان تتابع القراءة :

كان من مبادىء كونفوشيوس التى ينادى بها ان كل حكم ينبغى ان يكون فاضلا ، ينطوى على الخير .. **وانه اذا كان الحاكم صالحا فلا بد ان يصبح المحكومون كذلك .. فلقد كان يؤمن بنظرية القدوة الحسنة او السيئة ، ويشير اليها فى كل مناسبة .**

لوحة محفورة نادرة من نوع « الجرافير » ، تمثل حلاقا متجولا ، فى الصين القديمة . والى اليمين جلس أحدهم يدخن الافيون ، بينما وقف خلفه آخر يأكل الارز بالعصا

ومبدأ آخر نادى به ، هو ان كل هدف يمكن بلوغه بالتعليم ، او على حد تعبيره : « لو اتخذنى اى حاكم مرشدا له ، لمدة اثنى عشر شهرا ، لحققت شيئا كبيرا .. ولبلغت آمالى فى خلال ثلاثة اعوام ! »

فلما نصحه ناسكو زمانه باعتزال الشئون الدنيوية ، وترك الشعب لمصيره ، اجاب بقوله : « **من المستحيل اعتزال الدنيا ، والاخلاد الى العزلة مع الطيور والاسماك ، التى لا تربطنا بها اية مشاركة ، أو مشابهة ، او مصاهرة .. فمع من ينبغى ان أكون على صلة ، ان لم أكن مع المتألمين من بنى الانسان ! ؟** ان الفوضى السائدة هى المحتاجة الى جهودى ، ولو عمت المبادىء السليمة ارجاء الدولة لما بقيت ثمة حاجة للاصلاح ! »

وهكذا ابى كونفوشيوس ان يتخلى عن قضية الشعب ، ومضى فى طريقه الى النهاية ، رغم نبذ امراء الصين لتعاليمه ! .. ويمكن القول ان حياته كانت مترعة بخيبة الامل ، رغم النجاح الذى احرزه فى (شنج تو) — وهو نجاح غالى تلاميذه فى وصفه ، بعد موته ، وفاء منهم لذكرى معلمهم !

ومات كونفوشيوس رجلا طاعنا فى السن ، يمضه الشعور بالأسى لأن حياته لم تحقق رسالتها — **فان الصينيين لم « يكتشفوا » حكمته الا بعد ان غادر الحياة ! وعندئذ ، سطع نجم الحكيم الذى لاقى الاهمال وعدم التقدير اثناء حياته ، فاضحى فجأة موضع الاعجاب القريب من « التقديس » ! .. وكما يتعاقب المد والجزر ، انحسرت موجة « الجزر » — او الاهمال — لتخلفها امواج « المد » الشبيه بالطوفان .. المد الذى استمر يغمر ذكراه طيلة ثلاثة وعشرين قرنا !**

وكرم جثمان « كونفوشيوس » فدفن فى قبر مهيب — فى جهة (كيو — فو) — تتصدره بوابة فخمة ، ويؤدى اليه طريق عريض تحف به اشجار السرو . وحول القبر ، من كل ناحية ، حرصت كل اسرة من أسرات الاباطرة الحاكمين على أن تضع

حانوت احد تجار المصابيح التقليدية فى الصين القديمه ، بمدينه (بيبن)

باسمها لوحا نقشت عليه عبارات التحية والتكريم للحكيم الذى تفخر الصين بتخليده ! .. ويشرف على القبر ، كالحارس ، تمثال من المرمر كتبت عليه هذه العبارة : « احكم معلم قديم .. رجل المعرفة والفطنة والفهم « كونج » (وقد ذكرت لك من قبل ان اسم كونفوشيوس محرف عن عبـــارة « كونج فوتزى » ، ومعناها : « السيد كونج »)

تلك هى الامجاد التى يستطيع الزمن والتقاليد ان يرفع الكائن الحى الى ذروتها ، بمعاونة البشر الذين لا يفطن خيالهم الى آيات العبقرية فى الانسان الا بعد فوات الأوان — بعدموته!— اما أثناء حياته فلا يجود خيالهم عليه — اذا جاد — باكثر من التقدير « المتوسط » ! .. **وقياسا على هذه القـاعدة ، لن يدهشنا ان الثلاثة آلاف من تلاميذ كونفوشيوس الذين التفوا حوله فى حياته ، قد تضاعف عددهم اضعافا بعد وفاته.. بعد أن أذكت اعجابهم سيرة حياته كما ارخها أنبه تلاميذه ، المدعو ((تسانج سين)) ، ثم حفيده الذى امدنا بأكبر قدر من المعلومات عن جده العظيم ، وسجل الكثير من اقواله وحكمه المأثورة .** ذلك ان كونفوشيوس نفســـه لم يخلف مخطوطات تتضمن مبادىء « دستوره » الاخلاقى والاجتماعى ، وهو امر يؤسف له فى الواقع ، نظرا لما ينزلق اليه تلاميـذ العظماء عادة من تغاض عن اخطاء العظيم ونقائصه ، وابراز لفضائله وحدها !

لم يكن رجل دين ، بل رجل دنيا !

• **وكونفوشيوس** لم يكن رجل دين — حتى لقد مات غير مؤمن بحياة اخرى — وانما كانت رسالته ، على حد قوله ، تستهدف تقويم اخلاق البشر على الأرض ، ابان حياتهم ، بغية جعل الارض مكانا جديرا بأن نعيش فيه ..

والمبادىء التى وضعها كونفوشيوس تدور حول اهميـة تهذيب شخصية الفرد ، ووسائل مسـاهمته فى النهـوض بالاخلاق والنظام الاجتماعى الى مستوى ارفع واسمى . ومن

لوحة قديمة تمثل قصر تاجر صينى ثرى ، فى ضواحى مدينة (كانتون) ، ويطل على بحيرة صناعية ، وعلى باب القصر زورق فاخر يزرى بزوارق الجندول فى (البندقية) !

أهم تلك المبادىء هذا المبدأ الذى اشتهر فى العالم كله باسم « القاعدة الذهبية ! »

.. وقد عبر عنه اكثر من مرة بهذه الكلمات : « لا تفعل بالآخرين مالا تحب ان يفعلوه بك » .. كما كرر هذه الفكرة فى مناسبات اخرى بصيغتها العكسية الايجابية ، صيغة الامر لا النهى ، فأوصى سامعيه بأن « يفعلوا بالآخرين ما يحبون ان يفعله الآخرون بهم . » .. وقد اراد بهذا المبدأ من مبادىء السلوك ان يكون أساسا للمجتمع الجديد الذى يسوده السلام، والرخاء ، والسعادة ..

وقد كان كونفوشيوس مصلحا اجتماعيا شديد الغيرة على رسالته . كانت تعاليمه مزيجا من النصائح الدنيوية ومبادىء الفلسفة الاخلاقية . وكان يؤمن بالبشر ، وبأن كل فرد يملك فى اعماق نفسه القدرة على المساهمة فى خلق مجتمع مثالى . وكان مهتما بمسلك الناس على الارض ، وتأثير هذا المسلك على رفاهية الشعب .. اما مصير البشر بعد الموت فلم يكن يعنيه. كان يؤمن بأن السماء يمكن ان تهبط الى الارض لينعم بها الاخيار ، كما يلاقى الاشرار جحيمهم وهم على قيد الحياة !.. ان جزاء الخير فى نظره ، خير .. وجزاء الشر ، شر .. ذلك قانون السبب والنتيجة ، اذا لم يؤت ثماره فى حياة الفرد ، جنى حصاده الابناء والاحفاد ! .. وفوق كل شىء آمن كونفوشيوس بوجود كائن اعلى ، يصدر الاوامر ويقرر المصائر ..

ذلك كان مؤسس الفلسفة الدنيوية الذى دان له بالتبجيل ثلث البشر قاطبة ، طيلة هذه القرون ، وان نبذوا نصائحه باصرار ! ذلك ان الانحناء احتراما للحكمة امر سهل ، لكن ممارستها وتطبيقها امر آخر ، من الصعوبة بمكان ! .. ومع ذلك ، فان الحقيقة التى لا مرية فيها ان تعاليم كونفوشيوس كانت عونا كبيرا وعزاء بالغا للصينيين فى العصر الحاضر ،خلال

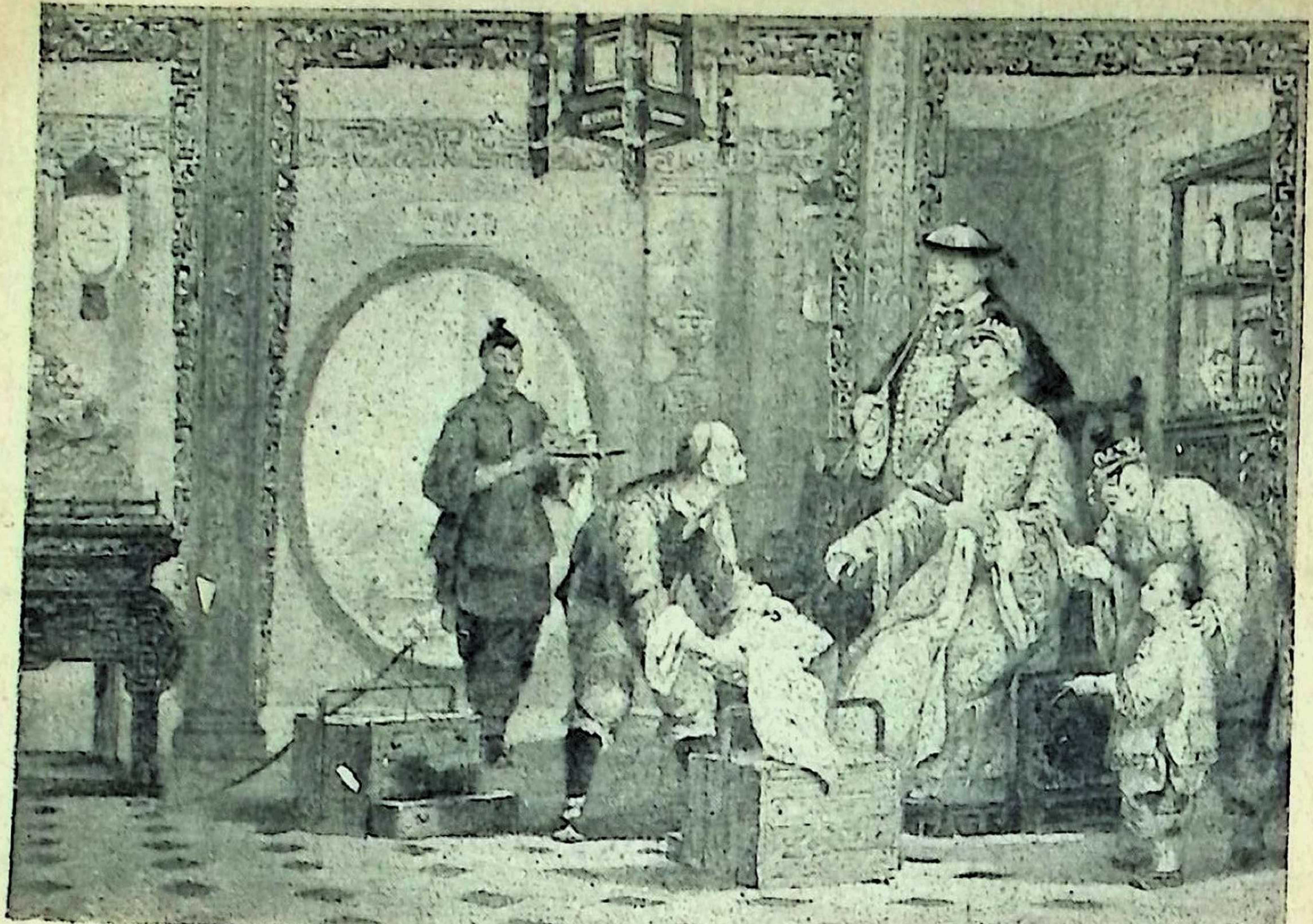

لوحة قديمة تمثل البهو الداخلى فى مسكن أحد أثرياء الصين القديمة بالقرب من مدينـــة (نانكنج) ، وترى أزياء الرجال والنساء فى الصين فى العصور القديمة

المحنة الرهيبة التى تعرضوا لها فيما بين عامى ١٩٣٧و١٩٤٥، حين اجتاح اليابانيون بلادهم وجلبوا الموت والتعاسة على آلاف البيوت ! فخلال تلك المحنة استدار الصينيون الى تعاليم حكيمهم الخالد ، المنقوشة فى كل ركن من بلادهم ، ينشدون فيها الغذاء العقلى الذى يمنحهم القوة على مواصلة الكفاح عبر سنوات الأسى والأحزان !

وهنا تلوح لنا صورة صادقة ومثل حى يرينا كيف يمكن ان يدرب العقل حتى يسمو على الظروف المحيطة به .. لكن الحقيقة التى تبقى ثابتة بعد ذلك هى ان الحكام والناصحين الحكماء كانوا دائما يغلبون على أمرهم وينحون جانبا . وهكذا ظلت قصة الجنس البشرى ، منذ ايام كونفوشيوس الى يومنا الحاضر ، قصة تغلب عليها التعاسة والشقاء اللذان جلبتهما الأنانية والغباء المتوارثان فى الانسانية منذ نشأتها .. وكما يعجز الجهل عن تقدير الحكمة حق قدرها ، فكذلك مات كونفوشيوس ـ شأن كثيرين من الحكماء الذين جاءوا بعده ـ منبوذا خائب الامل !

ولم يكن كونفوشيوس هو وحده الذى نبذ الصينيون تعاليمه وضربوا بها عرض الحائط ، بل لقد شاركه نفس المصير ، الحكيم « لاو تزى » ، الذى كان يكبره بعدة أعوام ، ثم الحكيم « منسيوس » الذى خلفه خلال القرن التالى .. **وهكذا دأب الجنس البشرى على أن يقتل عظماءه الحقيقيين، او فى القليل يتجاهلهم ، ثم اذا به ـ بعد موتهم ـ يعود فيتعبد لهم ، ويركع خاشعا امام قبورهم !ـ**

والحكيم « لاو تزى » هو مؤسس مذهب « التاوية » TAOISM الذى يحتل مكانة تقرب من مكانة البوذية ، ولو ان تعاليمه لاقت نفس التشويه الذى لاقته تعاليم بوذا ، على يد اتباعهما !

وقد كان « لاو تزى » يشغل منصب الأمين لمكتبة القصر

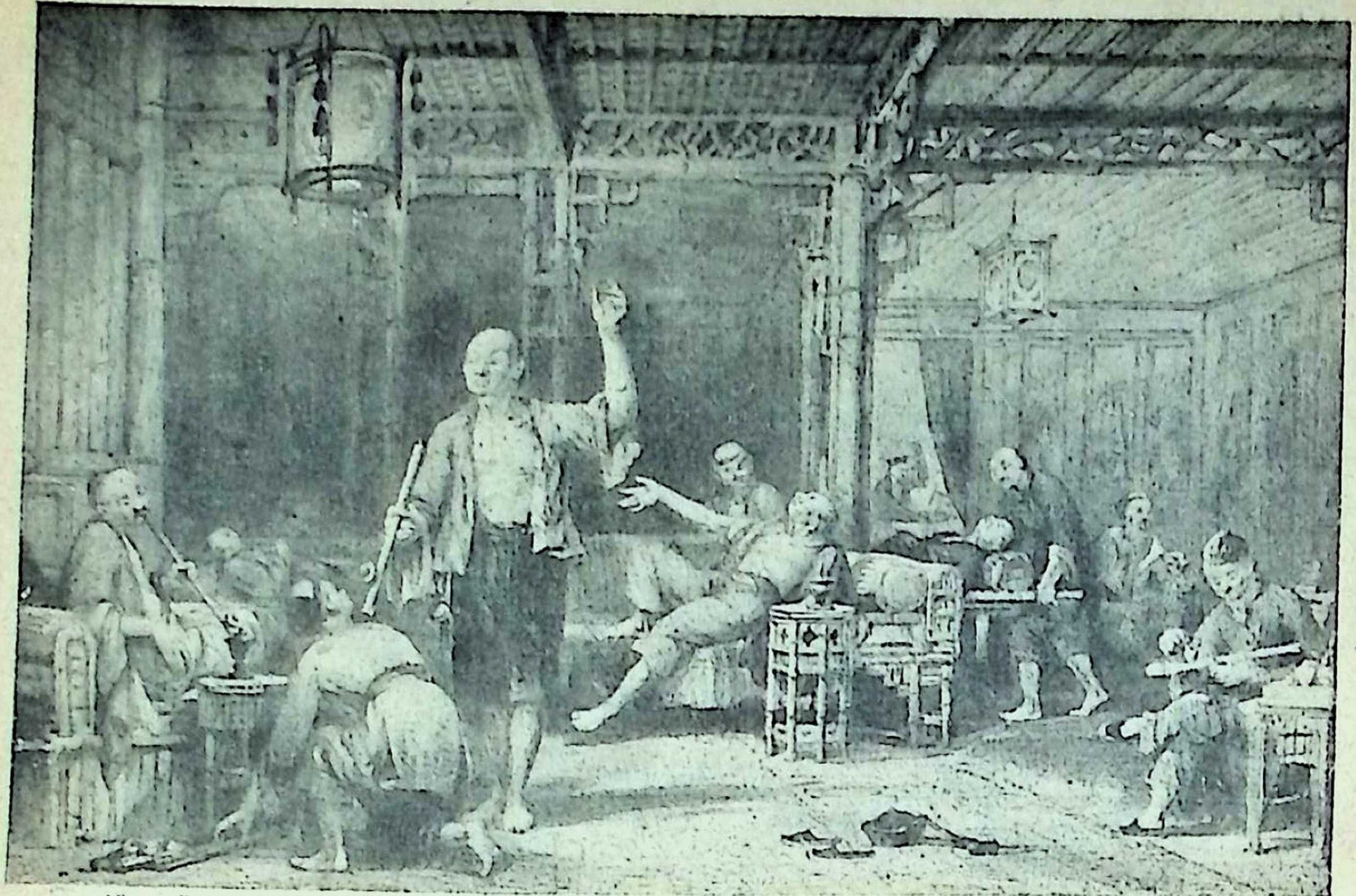

لوحة قديمة رائعة لاحدى بؤر تدخين الافيون فى الصين القديمة . وترى احدهم وقد وقف يهرف فى مظهر خطابى ، بينما ارتمى الاخرون على الارائك كالجثث الحية !

الامبراطورى . وكان معاصرا لكونفوشيوس ، لكنه يختلف عنه اختلافا كبيرا فى آرائه ونظرته للأمور : فبينما كان كونفوشيوس فيلسوفا ، ذا نظرة «واقعية»، **كان هو صوفيا ، يبشر بتجاهل متع الدنيا ومغريات الحياة ، وينادى بالبساطة، والتواضع ، ونبذ الانانية ، ومقابلة الشر بالخير ، وقمع كل الشهوات** . ومثل اكثر الصوفيين ، يغلب على تعبيراته الغموض . وبسبب هذا الابهام نرى تعاليمه مطعمة بالاساطير والخرافات !

الاتحاد بين الشمال والجنوب فى الصين ، منذ ٢٥ قرنا !

● **وفيما** بين القرنين الثامن والرابع ، قبل الميلاد ، بلغ تعداد اهل الصين الذين كانوا يعيشون على ضفاف النهر الأصفر ونهر (يانجتسى) بين العشرة والخمسة عشر مليونا ، وكانت المنطقة التى يعيشون فيها مقسمة الى عدة ولايات صغيرة ، تخضع لسيطرة نحو اثنتى عشرة ولاية كبيرة . وفى القرن السادس قبل الميلاد اشتبكت ولايات النهر الاصفر فى الشمال ، فى حرب مع ولايات نهر يانجتسى فى الجنوب ، ثم انتهت الحرب بينهما بالاتحاد بين ولايات الشمال والجنوب .. وتلا الاتحاد نزع السلاح فى المنطقة ، واعقبت ذلك فترة من الزمن سادها السلام والرخاء .. **لكنها لسوء الحظ كانت فترة مؤقتة ، فان القوم سرعان مانسوا الآلام وضروب التعاسة التى جلبتها عليهم الحروب !**

وفى عام ٢٥٥ ق.م . انهار حكم اسرة « شو » ، وفى عام ٢٤٦ تولى « شى هوانج تى » العرش ، فأطلق على نفسه لقب « اول امبراطور عالمى » ، وقضى على نظام الاقطاع القديم . وهو يعتبر من اعظم الحكام الذين عرفتهم الصين ، وفى عهده اتحدت البلاد كما لم تتحد من قبل . اتحدت دويلاتها السبع ، وتوحدت لغاتها فى لغة واحدة . وفى عام ٢١٤ شرع فى اقامة سور الصين العظيم الذى يمتد مسافة الف وخمسمائة ميل

نساء أسرة أحد أثرياء الصين القديمة ، يلعبن الورق فى بهو قصرهن . وترى المربية تحمل طفل الأسرة (فى يســـار اللوحـــة)

ويعتبر من عجائب الدنيا وأعظم مشروعاتها ! وقد كان الفرض من انشائه ، حماية البلاد من غزو قبائل (الهون) الذين كانوا خطرا يهدذ الصين على الدوام ..

وعلى ذكر سور الصين ، تعال نقطع سردنا لتاريخ الصين ، كى نزور هذا السور العجيب :

بعد وصولنا الى العاصمة (بكين) بيوم واحد ، اعدت لنا العدة لزيارة السور ، فخرجنا من الفندق فى الساعة التاسعة والنصف صباحا . وكانت هناك اصلاحات فى الطريق أثارت الأتربة فى وجوهنا فى بعض المناطق . وبعد ساعة ونصف ساعة - كانت السيارة خلالها تصعد طريقا جبلية بالتدريج - وصلنا الى بوابة ضخمة (ترى صورتها مع هذا الكلام) ، تعتبر بمثابة المدخل للسور العظيم - (ولو ان وصولنا الى بداية السور استغرق منا نحو ٤٥ دقيقة اخرى بالسيارة بعد مغادرتنا لتلك البوابة !)

ولم نكد نهبط من السيارة عند البوابة ، حتى وجدنا انفسنا فى مهب رياح قوية قارسة البرودة كادت تقتلعنا من وقفتنا على الارض ، اذ يبدو ان تلك البقعة من الجبل تقع فى ملتقى تيارات هوائية عنيفة . ولذلك لم نستطع ان نطيل وقفتنا اكثر من دقائق ، استأنفنا بعدها رحلتنا الى السور .

وعند بداية السور ، أدخلنا الى مبنى صغير يستخدم « كاستراحة » ، ويشرف على منطقة السور الصحراوية - كما تشرف استراحة وزارة التربية والتعليم على منطقة اهرام الجيزة فى القاهرة - وفى داخل الاستراحة وجدنا فى انتظارنا اقداح الشاى الصينى الأخضر المألوف ، غير المحلى بالسكر .. وعند خروجنا ، بعد فترة قصيرة ، كان يمر بجوار المكان جماعة من الصينيين يرتدون المعاطف الثقيلة ويضعون فوق رؤوسهم الأغطية التقليدية المصنوعة من الفراء ، المأثورة عن المغول والتتار ، فطلبت ان تلتقط لنا صورة تذكارية معهم ،

الوفد العراقى مع بعض مستقبليه من الصينيين ، امام البوابة الضخمة المؤدية الى سور الصين العظيم

اذ بعث منظرهم فى نفسى دوامة من أحـداث التاريخ التى تتابعت فى تلك المنطقة السحيقة من العالم .. بل وأثار مرآهم ذكريات دروس (الجغرافيا) القديمة التى طالما رددت على

مع بعض الصينيين ذوى الزى المغولى ، أمام « استراحة » سور الصين

مسمعى فى فصول المدارس الابتدائية والثانوية .. فانتابتنى على الفور أحاسيس عجيبة مختلطة : شعرت اننى أطأ بقدمى اجيالا وقرونا من تاريخ البشرية ، وبقاعا تلفها غلالة سحرية من الذكريات والصور الذهنية .. بقاعا وطأتها طوال ثلاثين قرنا أقدام الملايين من البشر : أقدام غـــزاة برابرة يقطر من سيوفهم الدم .. ومدافعين بواسل تزأر حناجرهم بصيحات الحرب وهم ينطلقون خفـــافا الى ساحة الموت ! .. أقدام زاحفة ، واقدام مرتدة ! .. قواد يعقد النصر على هاماتهم اكاليل الغار ، وقواد يجرجرون سيقانهم تحت وطأة الهزيمة والاعياء ! .. ثم تعاقبت العصـــور ، والحقب ، والحروب ، والانتصارات والهزائم .. وتجاوبت الجبال بأصداء طلقات

المدافع ، وانات المحتضرين والجرحى ! .. وحين انشىء السور العظيم ليحمى البلاد من غارات الاعداء والبرابرة ، وسخرت فى تشييده سواعد مئات الآلاف من البشر ، اختلطت قطرات عرقهم ، ودموعهم ودمائهم ، برمال هذه البقاع ، كما اختلطت قطرات اخوانهم فى البشرية ، برمال صحراء مصر أثناء تشييد اهرام الجيزة ! .. وكما شربت أرض روما من عرق ودموع أبنائها الذين سخروا فى تشييد ساحة (الكوليزيوم) ، كى يتلهى أباطرة الرومان بالتفرج على الوحوش والسباع وهى تفترس اعداءهم ، فى تلك العصور المظلمة من تاريخ « الانسانية » !

بل كم من برابرة « غربيين » دنسوا هـــذه البقاع حين اعتدت جيوشهم الباغية على استقلال الصين ، لينشروا فيها تجارتهم عنوة واقتدارا ، وينهبوا ما حوت قصور اباطرة تلك البلاد العريقة من تحف وكنوز ، لا تقدر بمال ! ؟

وكم من أفراد مسالمين ، من أبناء البلاد ، جاءوا الى السور العظيم ، فى عهود الخضوع لنير المستعمر الدخيل ، ليتزودوا منه بنظرة تحيى فى نفوسهم الأمل فى أن يستعيد وطنهم مجده الغابر ، ويسمو الى مستوى ماضيه القديم ، فى ظل الحرية من الغاصب ، واعـــوانه واذنابه .. والحرية من الخوف ، والجهل والمرض ؟ !

ثم كم من زائرين اجانب ، مثلى ، قطعوا آلاف الأميال — فى مختلف العصور — ليروا هذه العجيبة من عجائب العـــالم القديم ، ويعيشوا لحظات فى هذا الجو المهيب ، الذى يحكى تاريخ واحداث آلاف الاعوام !

كل هذه الخواطر ، وعشرات غيرها ، تتابعت واختلطت فى ذهنى فى مثل لمح البصر ، وأنا أسير متجهـــا نحو بداية السور .. وأنا أرقب آثار من سبقونى فوق رمال المكان .. ولو اتيح لمحلل نفسانى ان يلتقط هذه الخواطر فى حينها ، كما هى ، بغير ترتيب ولا نظام ، لربما وجدنى أفكر على هذا

النحو : مغول .. تتار .. صحراء جوبى .. خط ماجينو .. دلادييه .. هتلر .. جنكيزخان .. برج بيزا .. ابن السماء .. خوفو .. منشوريا .. الحرب الصينية اليابانية .. تشيانج كاى شيك .. قبائل الهون .. صحراء التبت .. جبال الهملايا .. نابليون .. هانيبال .. الى عشرات الخواطر المتلاحقة المتداعية التى لا صلة لها بهذا المكان - او بالصين على الاطلاق ! - خاطر يقود الى آخر ، اسم يذكر باسم .. وهكذا !

صوره تظهر سور الصين على حقيقته ، اشبه بشارع ذى جدارين ، يتسلق الجبال مسافة ٢٥٠٠ كيلو متر !

على جدار سور الصين ، جلسنا نستريح من عناء التسلق، بعد المرحلة الاولى

وخطونا الى أول السور.. فاذا هو يطمس الفكرة الساذجة التى كانت فى خيالى عنه. قبل أن اراه . لقد حسبته مجرد جدار مرتفع يتحصن خلفه المدافعون ليحتموا به ويرقبوا العدو المهاجم من خلال ثغرات صغيرة فيه .. فاذا انا اجده اضخم من ذلك واروع ، بكثير ! انه « شارع » عريض صاعد يتسلق الجبل ، ويتلوى مع انحناءاته ، يحده من الجانبين جداران سميكان متوسطا الارتفاع ، يستطيع الجنود الجلوس

عليهما التماسا للراحة كلما انهكهم الصعود . وكل نحو ٥٠
مترا يتخلل السور - أو الشارع ! - برج يشبه ((الغرفة
المحاطة بأربعة جدران عالية ، به فتحات أو ((كوى)) صغيرة
يطل منها المراقبون على السهل المترامى تحت الجبل ، كي
يرقبوا قدوم العدو وتحركاته !

فاذا جاوزت ذلك البرج ، مضيت فى « الشارع » الممهد
المشيد من الاحجار الصلبة البيضاء ، المتراصة فى دقة وعناية
بحيث تبدو ، فى نعومتها وعدم بروز أى نتوء أو شقوق فيها ،
كانها مرصوفة بالأسفلت ! بل انك من فرط نعومتها تجد

باب البرج المغلق الذى يتخلل سور الصين كل نحو نصف كيلو متر

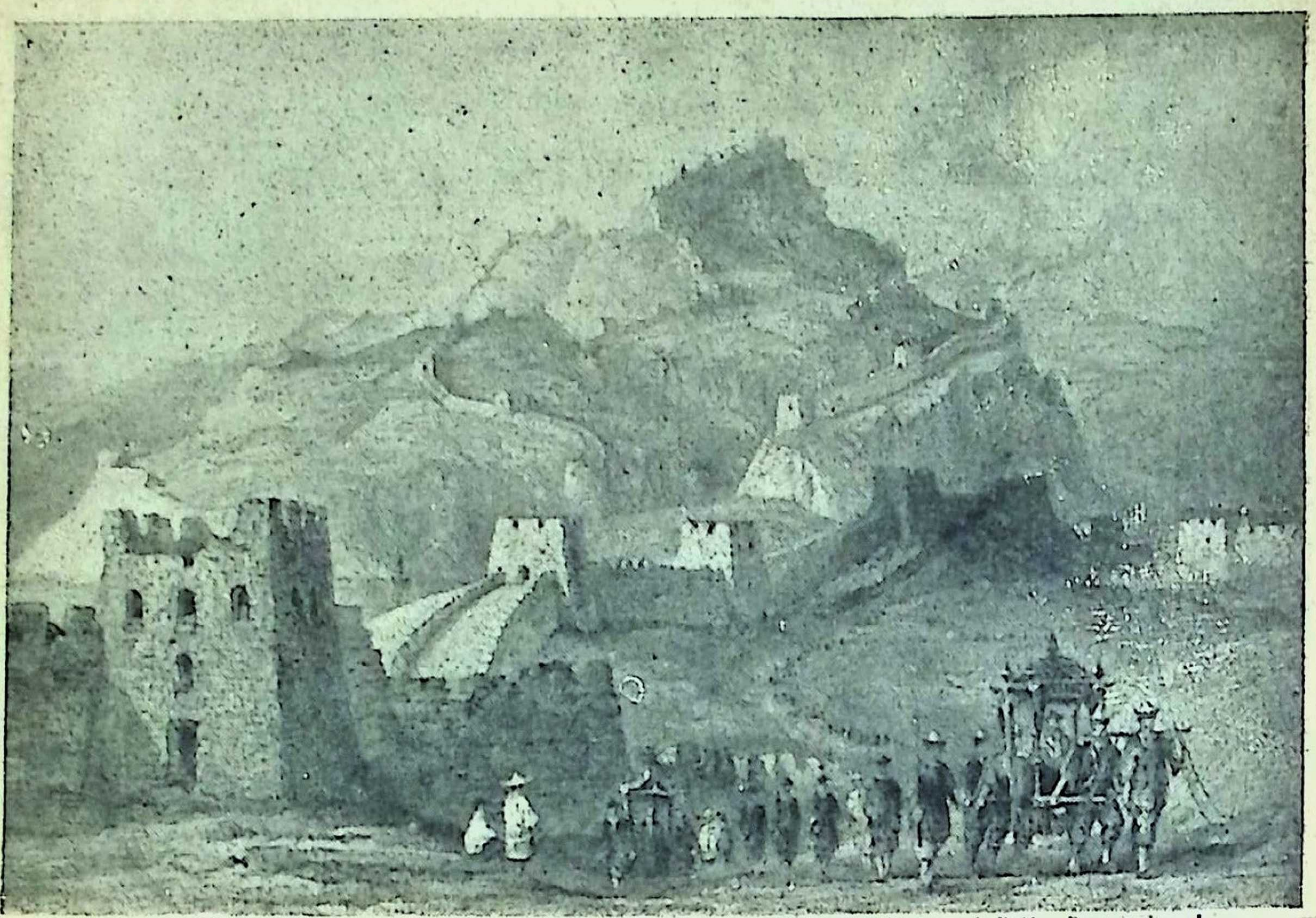

لوحة قديمة رائعة لسور الصين العظيم ، وقد ظهر بجواره موكب اثنين من الامراء القدامى ،

صعوبة فى تسلق الطريق أو الهبوط منه دون ان تنزلق قدماك فتهوى متدحرجا الى أول برج يعوقك ! .. وأذكر انني وانا اهبط منه ، لم يجدنى نفعا استنادى الى الجدار فحسب ، كى آمن من الانزلاق، بل اضطررت الى ان اسير على « مشط » قدمى ، كى أزيد من تماسك حذائى على الطريق !

ويستمر السور على هذا المنوال ، صاعدا هابطا تبعـا لارتفاعات الجبال وانخفاضاتها ، تتخلله الابراج كل نحو نصف كيلومتر ، مسافة تقرب من الألفين والخمسمائة كيلومتر ! .. وقد كان السور فى بداية الأمر سبعة أجزاء منفصلة ، انشأتها الولايات السبع المنفصلة التى كانت تنقسم اليها تلك المنطقة من الصين يومئذ ــ فقد انشأت كل ولاية سورا يحمى رقعتها من غارات الاعداء ــ فلما وحدت تلك الولايات فى اقليم واحد ، اكمل السور بحيث ارتبطت تلك الاجزاء السبعة ، مكونة هذا السور الواحد العظيم ، فى عهد الامبراطور « شى هوانج تى » الذى ينتمى الى أسرة « تشين » ــ (ومن اسم هذه الاسرة اشتق اسم « الصـين » فى اللغتين الانجليزية والفرنسية :
CHINA-CHINE)

وعلى ذكر السور وما اقترن بانشائه من قصص ، وعرق ، ودموع ، **تعال نعش فى جو ذلك العصر ، فنقضى السهرة فى مسرح (شونج ــ هو) الذى يقع فى شارع عتيق من شوارع (بكين) يدعى شارع « ابانج شى تيين » .. انهم يمثلون الليلة مسرحية مشهورة يطلقون عليها : « نحيب بجوار السور العظيم » ، أو كما تدعى بالصينية : « كو شانج شينج » :**

ها هى الستـار ترفع ، فنـرى الامبراطور العظيم « شى هوانج تى » مرتديا ثيابه الحريرية الفاخرة المرصعة بالجواهر الكريمة ، وحذاءيه العاليين الابيضين ، وقد « لطخ » وجهه بالاصباغ الحمراء والصفراء والسـوداء ــ على طريقة

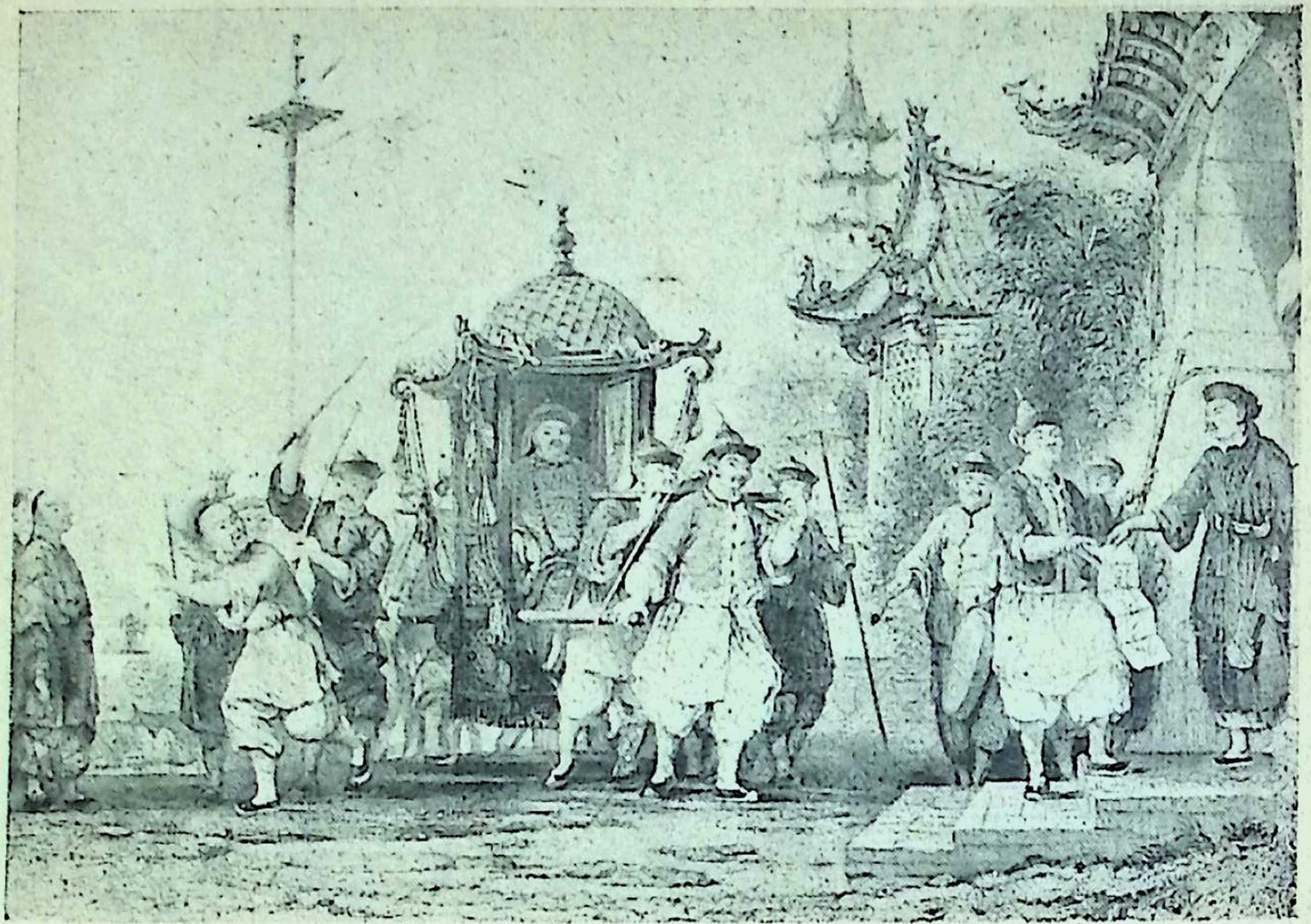

موكب أحد أثرياء الصين القديمة وهو متجه فى محفته الخاصة للقيام باحدى زياراته

نبلاء ذلك العصر ـ وراح يمشط لحيته بأصابعه وهو يخطر على المسرح فى حيرة وعصبية . انه فى حالة نفسية سيئة ، فان العمل فى السور العظيم لا يتقدم تقدما محسوسا !

ويدخل وزير الاشغال ، المدعو « شاو كاو » ، فيتقدم لمولاه باقتراح : لو قدم ابن زميله وزير الحرب كضحية تذبح على السور ، استرضاء للآلهة ، لسار العمل فى بناء السور على خير ما يرام !

ويوافق الامبراطور على الاقتراح ! .. فليبحث رجال البلاط عن ذلك الابن المدعو « فان شى ليانج » ، ويساق الى السور العظيم ، ثم يذبح هناك !

وتبدو الغبطة على وزير الاشغال « شاو كاو » ، فانه يكره زميله وزير الحرب

لكن « الضحية المنشودة » ـ الابن ـ يعلم بنبأ الخطة التى اعدت لقتله ، فيعمد الى الفرار ، ويلوذ ببيت رجل يدعى « شيانج نو » ، ويقع فى حب ابنته « منج » ، ثم يعترف لها بقصته .. ويتزوج منها !

وعلى اثر الزواج ، يهتدى رسل الامبراطور الى مكان الشاب الهارب ، فيلقون القبض عليه .. ينتزعونه من احضان عروسه ليحملوه الى الحدود ، حيث يذبحونه ويلقون بجثته فى مؤن بناء السور ، ثم يبنون عليه !

.. بينما تجهل عروسه مصيره ، فتذرع ارجاء البلاد بحثا عن زوجها الحبيب ! .. ويصادفها خدم الامبراطور وهى ماضية فى تجوالها العقيم ، فيصفون لمولاهم جمالها وفتنتها .. فيأمر بالقبض عليها ، كى تصير محظية له !

وحين تساق الى حضرة الامبراطور ، تقف منه على مصير زوجها المفجع ، فتناشد مولاها الجديد متوسلة ان يدعها

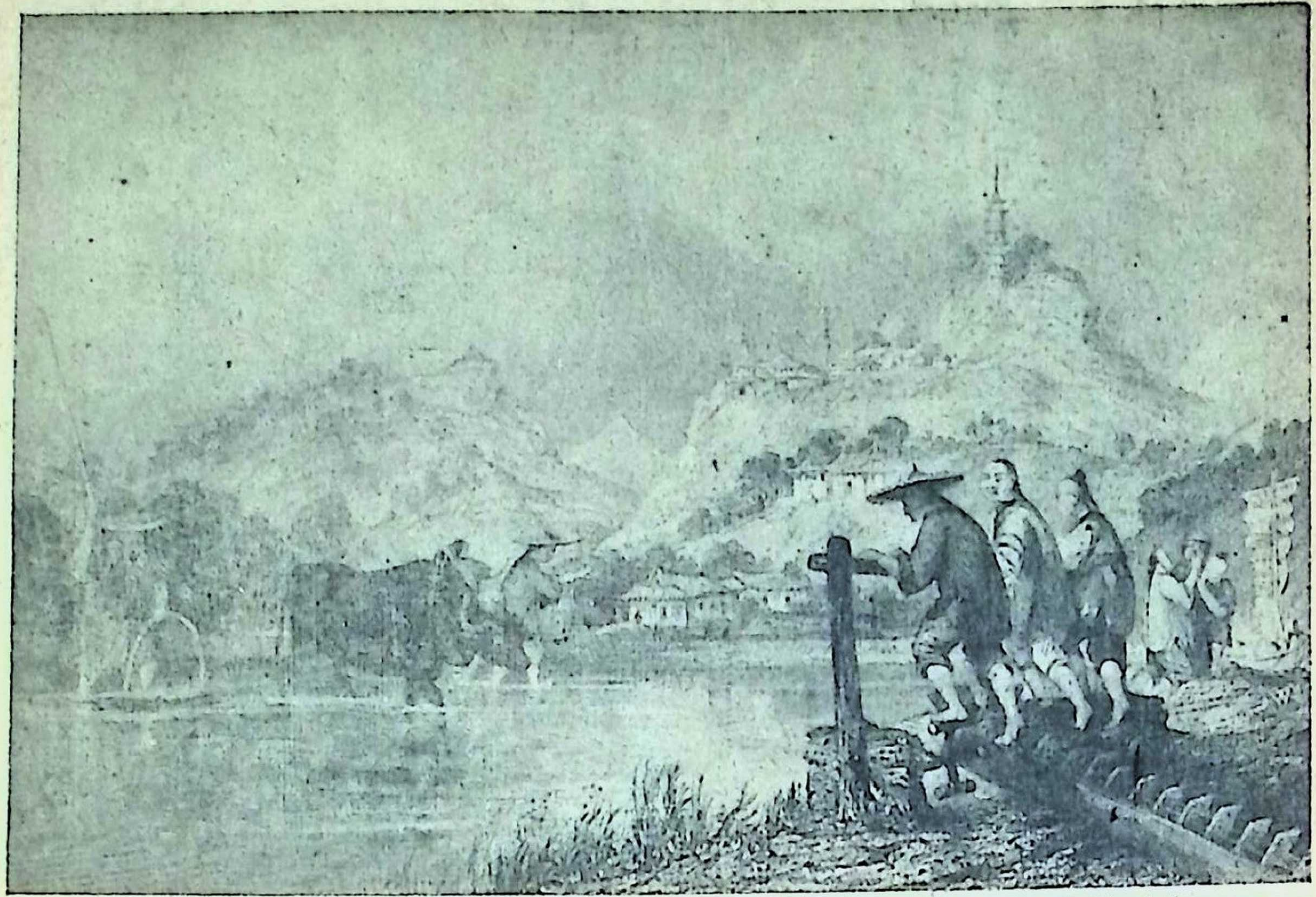

... يبذرون الأرز – محصولهم الرئيسي – في الصين القديمة – وقد رسمت اللوحة في ...

تمضى الى السور العظيم كى تودع زوجها الأول الوداع الأخير !

ويتعطف عليها الامبراطور بقبول هذه المنة ، فتهرع الى السور .. وهناك ، بمصاحبة كمان ، وناى ، وقيثار ، ترقص رقصة جنائزية لحبيبها الراقد تحت أحجار السور العظيم!.. ان وجهها يكاد يبدو جامدا ، خلوا من أى تعبير ، لكن يديها تخفقان فى الهواء فى رقصة « باليه » عفيفة ، عنيفة ، رائعة !

وحين تتم آخر شعائر صلاتها الجنائزية الراقصة ، تندفع البطلة المفجوعة مسرعة نحو حافة السور .. وتلقى بنفسها منه .. الى الهاوية !

وتسدل الستار !

* * *

وليست هذه المسرحية هى الأثر الفنى الوحيد الذى استوحاه أهل الصين من قصة بناء سورهم العظيم .. فان أطفال الصين يتغنون بأغنية قديمة لا تقل جمالا فنيا عن المسرحية التى لخصتها لك فى السطور السابقة .. وتقول الأغنية :

مضت ((منج شيانج نو)) تبكى وتنتحب ، فى رحلتها الطويلة
قطعت فراسـخ وأميالا على قدميها ، بحثا عن زوجها

وعند سفح السور العظيم صرخت : ((يا للسماء !))
ردى الى كنـزى الحبيب ((فان شى))

وبكت بدموع غـزيرة ، مـريرة ..
حتى تداعت وانهارت أحجار السور العظيم !

* * *

وفى العدد القادم نواصل باذن الله جولتنا معا فى ربوع الصين

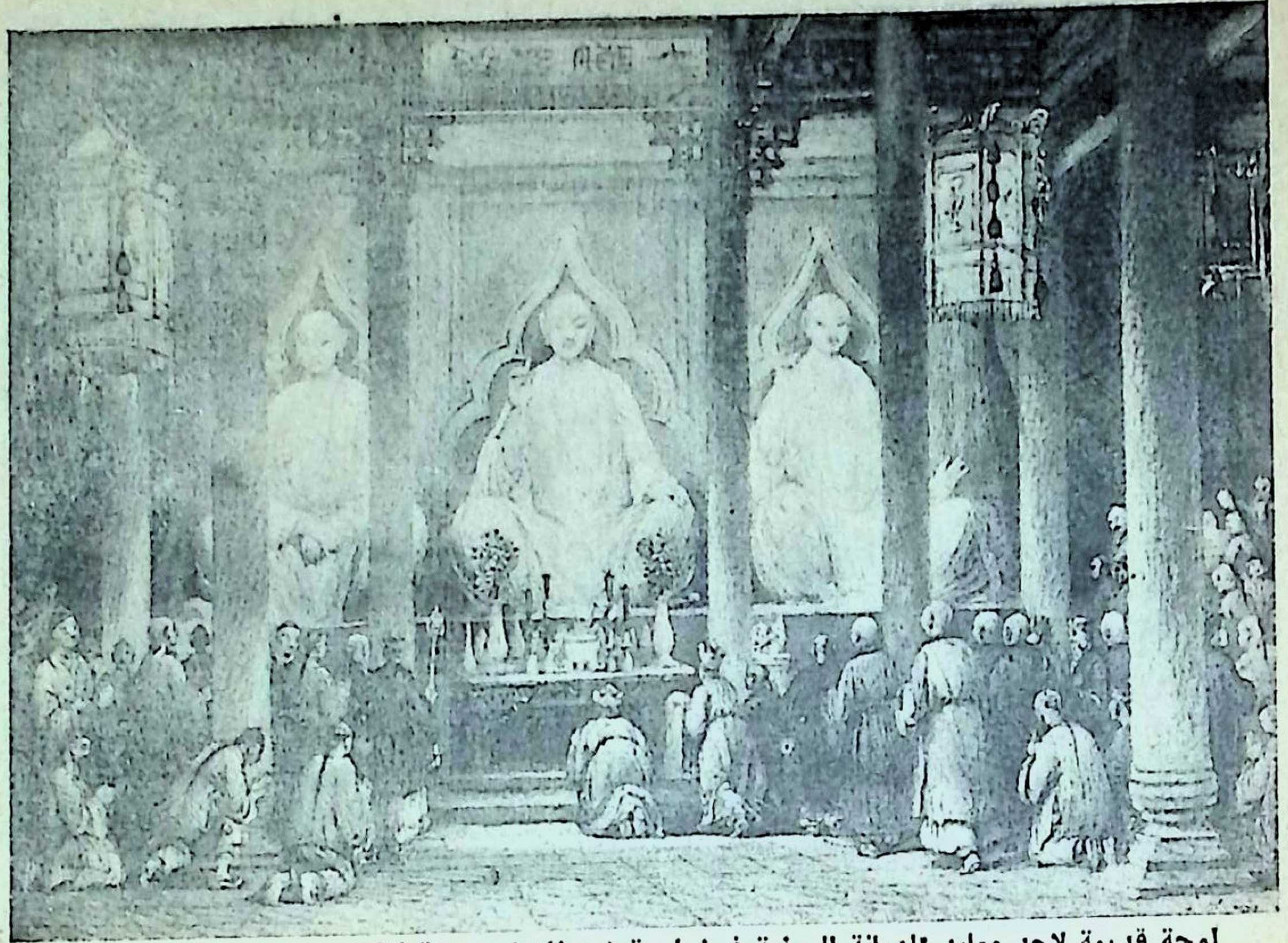

لوحة قديمة لاحد معابد الديانة البوذية فى ضاحية (هونان) بمدينة كانتون ، وترى فوق المنصة

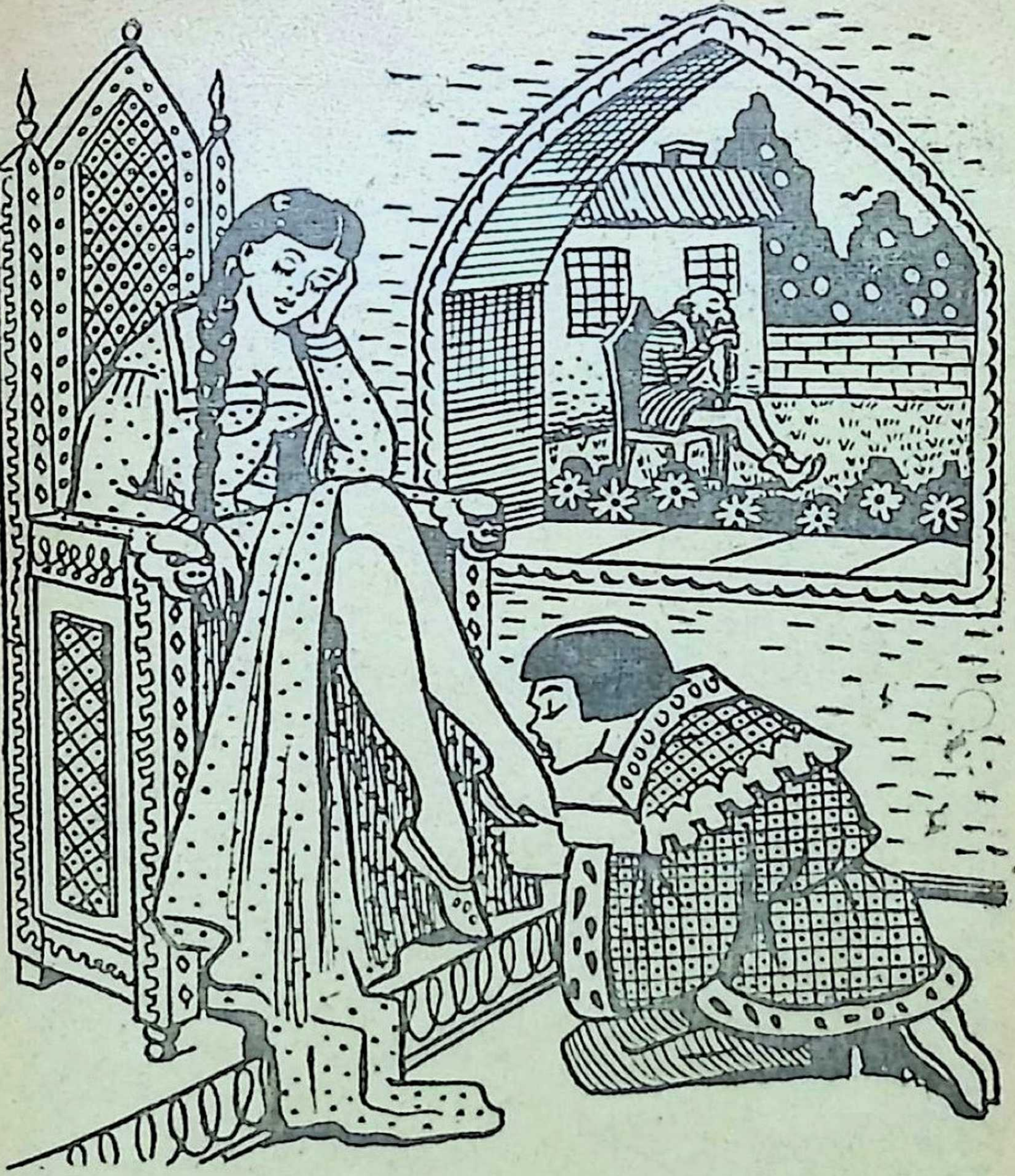

عزيزى القارىء :

هل تعلم انه الى جانب ((ألف ليلة وليلة)) العربية و ((ألف ليلة وليلة)) الايطالية ـ وأعنى بها كتاب ((بوكاشيو)) الخالد ((ديكاميرون)) ـ توجد ((ألف ليلة وليلة)) فرنسية ، كتبها أديب فرنسا الكبير ((أونوريه دى بلزاك)) ، فجاءت تحفة رائعة تضم مجموعة من أبدع القصص التى تجمع بين خفة الروح ، والصراحة التامة فى معالجة النفاق الاجتماعى .

ويسر سلسلتك المحبوبة مطبوعات ((كتابى)) أن يكون لها فخر ترجمة هذا الكتاب وتقديمه الى قارىء العربية ـ لاول مرة ـ فى عددها القادم الذى يصدر بعد أسبوع .

الشرق شرق .. والغرب غرب !

مدام بترفلاى

قصة الأوبرا الخالدة المستوحاة من الحياة فى اليابان

الأوبرا التى تصفق لها عواصم العالم منذ ٥٤ عاما !

• هل شاهدت المسرحية الغنائية « مدام بترفلاى » التى قدمتها فرقة الاوبرا الايطالية فى القاهرة منذ أيام ، ولا تزال ؟.. سواء كنت قد استمتعت برؤية هذه الاوبرا العالمية ، او لم تتح لك هذه الفرصة ، ففى وسعك أن تعيش فى جوها الرائع على هذه الصفحات.. وتنعم فى الوقت نفسه بزيارة قصيرة لليابان : بلاد (الجيشا) ، والتقاليد العجيبة فى العلاقة بين الجنسين .. والانتحار بطريقة (الهيراكيرى) التى تنفرد بها تلك البلاد .. الى آخر الصور اليابانية الخاطفة التى تقدمها لك هذه الاوبرا الخالدة التى تنقلك على أجنحة موسيقى « بوتشينى » .. الى بلاد الشمس المشرقة !

الزمان : العصر الحاضر
المكان : ميناء « ناجازاكى » باليابان .

- ١ -

• ترفع الستار فاذا نحن أمام الشاب المرح الملازم « بنكرتون » الضابط بالبحرية الامريكية ، الذى لم يكد يعلم باتجاه النية الى اطالة مدة بقاء سفينته فى مياه « ناجازاكى » باليابان حتى قر رأيه على عقد زواج مؤقت ـ على الطريقة المتبعة فى اليابان ـ بحسناء رائعة من فتيات « الجيشا » تدعى شوشوسان أو « بترفلاى » ـ ومعناها «الفراشة» ـ كما كان عارفوها يطلقون عليها .. وكانت قد أسرت لبه واستهوته بخفة روحها وعذوبة خلقها .. وقد استعان على تحقيق غرضه بسمسار من سماسرة الزواج يدعى جورو ، رحب بأداء

هذه الخدمة لعميل امريكى سخى ، لا تبدو للدولارات قيمة فى نظره !

ونرى جورو هذا يصحب عميله بنكرتون فى صبيحة يوم الزواج الى العش الجميل الذى انتقاه له ، فوق قمة احد التلال المطلة على الميناء ، كى يحتفل فيه بزواجه المؤقت ويقضى فيه أيام متعته .. فيبدى الضابط الشاب اعجابه بكل ما اعده له الشيخ المجرب .. وفيما يثرثر له هذا بمزايا البيت ، ومزايا العروس ، يصل أول المدعوين الى حفل الزواج ، وهو القنصل الامريكى «شاربلس» صديق العريس ، الذى جاء مبكرا كى يحاول اقناع بنكرتون بالعدول عن هذا « الزواج » الذى لا ينتظر له التوفيق أو الدوام ، رفقا بقلب العروس الساذجة ، التى تنظر للامر نظرة « جدية » وتجهل ما يبيته لها عريسها من نية الغدر ، والهجر ، وقتما يحلو له ! .. ثم يناشد القنصل الشيخ صديقه الشاب ان يعدل عن تلك النزوة الحمقاء التى يزمع ان يرتكبها على حساب قلب « الفراشة » المخلصة ! .. لكن الشاب — وهو على عتبة جنته المرموقة — يأبى أن يصغى الى نصيحة صديقه، بل يطمئنه ضاحكا الى أن الفتاة لن تلبث — حين يهجرها — أن تجد لها أكثر من معجب واحد ... **ولا يكاد يلقى بجوابه هذا حتى يهرع فى شوق لاستقبال فراشته الجميلة ، التى تظهر فى تلك اللحظة تحيط بها هالة من فتيات الشرف الضاحكات ... وقد بدت العروس أشبه بالوردة التى تفتحت حديثا ، مشرقة الوجه والقلب ، يغلب عليها مظهر الطفولة والأنوثة معا .. فتحيى عريسها بابتسامة مضيئة وتقدمه فخورة الى صديقاتها ، ثم تقص عليه وصديقه القنصل — فى بساطة ومرح — تاريخ اسرتها الفقيرة ، وكيف اضطرت هى الى الانخراط فى سلك فتيات الجيشا كى تكسب ما يقيم أودها ..** وكيف اضطر أبوها الى الانتحار بطريقة «الهاراكيرى»

كأى رجل شريف ، عندما أرسل له الميكادو سيفا لهذا الغرض .. ثم تعرض على فتاها سيف أبيها ، مستأذنة اياه فى الاحتفاظ به ضمن بعض التذكارات العزيزة عليها . وتهمس له معتزة ـ كبرهان جديد على تفانيها فى حبه ـ بنبأ هام : لقد نبذت دينها واعتنقت ديانته سرا ، الأمر الذى لو بلغ أهلها لاعتبروها مارقة واعلنوا براءتهم منها !

وهنا يصل أهل العروس فيستقبلهم « بنكرتون » مرحبا ، ثم تبدأ اجراءات الزواج فيقرأ المسجل صيغة العقد «المطاط» ويوقعه العروسان .. وبعد ذلك ينصرف ضيوف العريس ولا يبقى غير ضيوف « بترفلاى » الحريصين على استغلال كرم ضيافة الامريكى الثرى والاستمتاع بأطايب الحفلة الى اقصى حد ..

وحين تبلغ البهجة والانشراح قمتهما ، يحدث أمر يعكر صفو الجميع : يدخل رجل فظ شرس الهيئة مقتحما المكان وهو يلوح بذراعيه ويطلق صيحات غضب . فنعلم أنه عم العروس الأكبر ، وانه كاهن يابانى ، لم يكد يبلغه نبأ مروق ابنة أخيه من دينها حتى جاء يلعنها ويفضحها !

ويضحك « بنكرتون » فى البداية من حركات العم الغاضب وصيحاته لكنه حين يجد بقية أقارب الفتاة قد انحازوا ضدها يثور ويأمر الخدم بطرد المدعوين ! .. وحين يموت صدى أقدامهم فى الممر الخارجى يستدير الى فراشته الباكية فيطيب خاطرها بكلماته الرقيقة ومداعباته حتى يعيدها الى مرحها .. ثم يخرج العروسان وقد تقدم الليل الى الشرفة المقمرة ، حيث يطوق الشاب فاتنته بذراعيه فى عناق حار !

- ٢ -

• **فاذا** كان الفصل الثانى فقد انقضت ثلاث سنوات حافلة بالاحداث، عاش الزوجان خلالها شهورا يرفرف عليهما هناء مقيم،

لكنه هناء لم يطل : فان حب بنكرتون لزوجته بترفلاى لم يلبث ان انطفأ ـ كما توقع القنصل ! ـ فلما تلقت سفينته امرا بالعودة الى امريكا ، رحل عليها البحار الشاب غير آسف ، مقدرا ـ باستهتاره المعهود ـ ان الفتاة لن تلبث ان تنساه ، وتتخذ لها زوجا من مواطنيها ! .. ورغم ذلك فانه ـ لكى يهون عليها ألم الفراق ، وهى متشبثة بكتفه تبكى ـ وعدها بأنه سوف يعود يوما ما ، عندما يخلد طائر ((الهزار)) الى أعشاشه ، فى الربيع ! .. فصدقته الساذجة وصارت تمنى نفسها كل يوم بعودته المرتقبة ، مؤكدة لخادمتها العجوز المخلصة ((سوزوكى)) انه لن يخلف الوعد ! .. وحين ولد لها طفل جميل ، أزرق العينين ، ضاعف من فرحتها به تصورها لفرحة ابيه به يوم يراه !

لكن أعواما ثلاثة قد انصرمت والحلم لم يتحقق ، والغائب لم يعد .. أو حتى يكتب لزوجته خطابا يخفف من لوعتها ويسهل عليها الانتظار .. ورغم ذلك ، فهى لا تيأس !

وحين يرفع الستار عن الفصل التالى نراها وخادمتها تتحدثان فى ان المال الذى تركه بنكرتون لفراشته قد قارب النفاد .. وفيما هما تقلبان الامر على وجوهه ، يدخل زائر غريب ، تتبين فيه بترفلاى شخص القنصل الامريكى فتلقاه مرحبة فرحة .. وحين تعلم منه انه تلقى خطابا من زوجها تصفق بيديها فى لهفة وانفعال . وتزيد لهفتها وفرحتها من حيرة القنصل الرقيق القلب ، الذى جاء لمهمة تدمى فؤاده .. جاء ليبلغها أن «زوجها» سيصل الى الميناء فى مساء اليوم نفسه ، ولكن مع زوجته « الامريكية » الجديدة ! .. أما هى فلن تراه ، ولن يراها !

لكن القنصل يفشل فى تهيئة الجو المناسب لابلاغ بترفلاى رسالة زوجها المفجعة .. وفيما هو حائر يتلمس سبيلا لاتمام مهمته ، يدخل السمسار « جورو » على غير انتظار ، وفى

مدام بترفلاى

مغنية الأوبرا العالمية « فارار »
كما بدت فى دور « مدام بترفلاى »

صحبته الأمير اليابانى الثرى « يامادورى » الذى يطمع فى الزواج من بترفلاى .. لكن المرأة تأبى الاستماع اليه فى اصرار، محتجة بأن زوجها سوف يعود قريبا !

ويتبين جورو وعميله عقم منافشة المراة وهى فى طورها ذاك ، فينسحبان .. آملين ان يحظيا بقدر أكبر من النجاح فى زيارتهما التالية . **وحين يذهبان يحاول القنصل مرة اخرى أن يصل الى غايته عن طريق ملتو ، بمناشدة المرأة ان تقبل الزواج من الثرى اليابانى .. لكن مجرد طرقه هذا الموضوع يجرحها ويضطره الى الاعتذار .. بينما تهرع المسكينة الى الغرفة الأخرى وتعود حاملة طفلها الجميل ، صائحة فى وجه القنصل بانفعال : « أتصدق أن زوجى يمكن أن ينسى هذا « البرهان » على حبنا ؟ »**

ويغلبه التأثر الشديد ، فقد كان يجهل تماما وجود هذا الطفل ، الذى لم يكن أبوه ذاته قد سمع بولادته .. فيعجز عن مغالبة شعوره بالشفقة على الزوجة التعسة ، ويخرج آخر الأمر دون أن يفضى اليها بنبأ زواج بنكرتون ، ساخطا على صديقه الذى كلفه بهذه المهمة البغيضة !

ولا يكاد يذهب حتى يسمع دوى مدافع الميناء تطلق ترحيبا بوصول سفينة جديدة اليه ، فتهرع بترفلاى الى الشرفة ومنظارها المكبر على عينيها .. ويا لدهشتها وفرحتها اذ تقرأ على جانب السفينة اسم «ابراهام لنكولن» ـ سفينة بنكرتون! ـ فتستخفها نشوة طاغية ، وتنادى خادمتها لتوصيها ان تقطف أجمل أزهار الحديقة وتزين بها العش الجميل ، ترحيبا بالقادم ! .. وبعد ان ترشق المرأتان بالزهر كل مكان فى البيت، وتنثران البراعم العطرة على الأرض بلا حساب .. تلبس بترفلاى طفلها افخر ثيابه وترتدى هى رداء العرس .. ثم يجلس الثلاثة يعدون الدقائق فى انتظار الحبيب الغائب !

لكن الساعات تمر ، دون ان يظهر للقادم أثر !.. حتى يهبط

الظلام ، فيغلب النعاس اجفان الخادم والطفل ، من فرط التعب. اما الزوجة فتأبى أن تستسلم للنوم ،وانما تظل ساهرة ترقب الطريق فى لهفـــة .. حتى مطلع الفجر .. واذ ذاك تصحو سوزوكى فتقبل على سيدتها راجية أن تنهض لتريح جسمها ونفسها على فراشها بعض الوقت .. فتقبل فى هذه المرة ، تحت وطأة الارهاق الشديد ، والرغبة فى أن تبدو متوردة الوجه حين يصل زوجها !

ولا تكاد بترفلاى تصعد الى مخدعها ، حتى ترسل سوزوكى الطفل الى الحديقة ليلعب ثم تجثو على ركبتيها أمام صورة الاله « بوذا » مبتهلة اليه من أجل سيدتها التعسة .. وفى هذه الأثناء يدخل القنصل وفى صحبته بنكرتون ، وقدجاءا مبكرين ينشدان نصيحة الخادمة فيما يتصل بخير وسيلة لاطلاع سيدتها على الحقيقة المرة .

لكن سوزوكى تحسب أن سيدها قد جاء لاسترداد زوجته، فتحدثه جذلة عما اعدته سيدتها لاستقباله من زينات ، وعن شوقها الجارف للقائه .. وتطعن كل كلمة من كلمات الخادمة قلب بنكرتون كنصل حاد ، فيثوب الى نفسه ، ويوبخه ضميره لأول مرة من أجل الصدمة القاتلة التى يوشك أن يصدم بها قلب « فراشته » التى تكن له أعمق الحب وأصدقه !

وتحين من سوزوكى نظرة الى الحديقة ، فتلمح فيها امرأة جميلة طويلة القامة ــ الزوجة الأمريكية ! ــ وللفور تدرك كل شىء ! واذ ذاك يعترف القنصل بأن «مدام بنكرتون» قد جاءت تعرض استعدادها لكفالة الطفل والعناية بأمره ، ضمانا لمستقبله .. ثم يرجوها أن تعينهم فى مهمتهم .

ويتأمل بنكرتون أرجاء الغرفة ، وما اعـدته بترفلاى لاستقباله ، فيزداد تأثره ويعلن عجزه عن تحمل انفعاله حين لقائه اياها .. ثم يهرع الى الخارج تاركا زوجته والقنصل

يواجهان الموقف الأليم .. وحين يرحل مبتئسا ، تدخل زوجته من الحديقة !

ونرى « كيت بنكرتون » فاذا هى امراة جميلة ، رقيقة القلب ، تؤثر فيها مأساة بترفلاى فترجو خادمتها ان تعينهم على خدمة سيدتها .. وفيما هم يبحثون الأمر ، تسمع بترفلاى ضجيجهم من غرفتها فتقبل ملهوفة وهى لا تكاد تلمح «كيت» حتى تقف تحدق فيها لحظة وقد ادركت بوحى من غريزتها انها .. غريمتها !

ويتوقع القنصل ان تنفجر المرأة ثائرة مؤنبة .. لكنها - لدهشة الجميع - تظل محتفظة بهدوئها ، وتحتمل صابرة هذا « الانهيار » الفجائى لجميع آمالها التى طالما هدهدتها فى قلبها ! ..

وحين تطلب كيت منها الصفح ، من اجل الألم الذى سببته لها دون أن تعرف ، تجيبها فى تلطف بانها لا ترجو لها ولا لزوجها - واطفالهما فى المستقبل - غير السعادة الدائمة!.. اما فيما يتصل بتنازلها عن حضانة طفلها ، فهى لا تمانع فيه، بشرط أن يحضر الأب لتسلم طفله ، فى خلال نصف ساعة !

وترحل كيت والقنصل ، بعد ان نجحا فى مهمتهما .. ولا يكادان يذهبان حتى تطلب بترفلاى الى خادمتها ان تتركها منفردة ، ثم تتناول سيف أبيها - الذى طالما اعتزت به - فتلثم سلاحه . انها ماعادت تشتهى الحياة أو تحرص عليها بعد أن هجرها حبيبها - الى الأبد ! - وبعد أن صارت مصلحة الطفل تقتضيها ان تتخلى عنه هو بدوره !

وترفع السيف الى عينيها ، لتقرأ بقلب ممزق ما كتب عليه : « مت شريفا اذا عجزت عن ان تحيا شريفا ! » .. وفى **تلك اللحظة يفتح الباب وتدفع الخادمة الطفل خلاله الى**

الداخل ، فتهرع اليه أمه وتحتضنه بعنف وانفعال ، فى عناق اخير حار .. ثم تضعه فى فراشه ، وتتناول السيف فتغمده حتى مقبضه .. فى صدرها !

***

وحين يقبل بنكرتون بعد دقائق ليطالبها بالطفل .. يراها ممددة على الأرض ، بلا حراك ! .. ان القلب المخلص الذى أحبه بكل عنف ، وصدق ، وتفان ، قد استراح .. الى الأبد!

بنك مصر

أسس شركاته الكبرى التى وظف بها خصائص البلاد
واستغل مرافقها فأدا بها الدعائم التى قام عليها
التصنيع القومى فى البلاد وكانت السياج المنيع للتحرر
الاقتصادى منذ ٣٣ عاما فدل على الكفاية المصرية
وتفوق العقل المصرى فى مضمار الحياة العملية

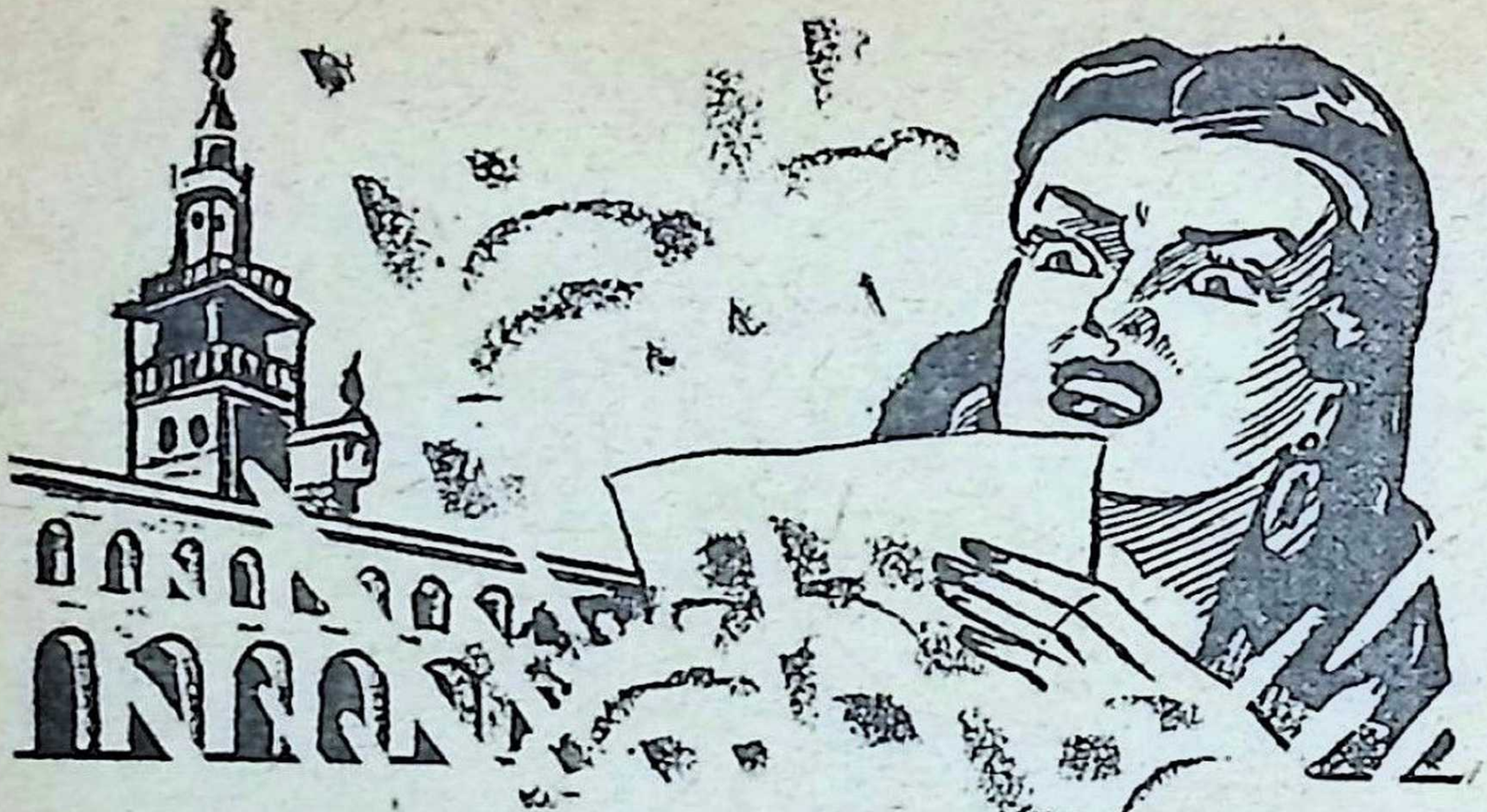

فتاة من دمشق

قصة عربية بقلم الكاتب السوري: محمد حاج حسين

. . . .

هرعت « سهام » الى ام خطيبها الضابط فتحى ، تستقبلها باشة هاشة ، وترحب بها وتلثم يدها ، فقد كانت تحبها أشد الحب ، فهى والدة ذلك الشـــاب الذى آمنت به ، واحتل جوانحها ، وفاض هواه بها ، حتى أصبحت قطعة منه ، فهى خطيبته اليوم ، وزوجته فى المستقبل القريب ، حيث يشيدان عشا يمرح فيه الهناء ، وتصفق له السعادة . ولقد تمت خطبتهما بعد غرام عنيف عفيف ، فلقد التقيا فى احد مقاهى (دمر) ، وجلسا على مائدتين متجاورتين ، هى مع اسرتها ، وهو مع لفيف من زملائه الضباط ، **وكان الربيع يجلل دمشق بروعته الباسمة ، فتهب عليها انسامه معطره بشذى الأزهار ، فتترنح لها الأفئدة هياما ، وتتفتح العواطف لنداء الحياة .. وراعها انه يتأكلها بنظراته ، التى تشرق فيها ألوان من الهيام الشديد ، فقد كانت فتانة فى جمالها الغلاب ، الذى لا يقهر ! برأها الله تمثالا أنيقا جسد الجمال الشامى ، الذى تزدهيـــه الألوان الخلابة . وتكسرت نظراتها وهى ترنو اليـــه ، باسترخاء وفتور ، وشعرت بالدم يتصاعد الى وجنتيها ، وهو يخالسها النظر ، وأعجبت بشبابه الأملود ، وفتوته العارمة ، وسترته العسكرية التى تزيده فتنة ورواء ..**

وفى الصباح التالى ذهب « فتحى » الى والدها ، وقدم له نفسه ، وطلب يد ابنته .. فحاول الأب التملص ، قائلا له : « أتخطبها دون أن تعرفها ؟ »

ــ لقد رأيتها معك أمس بدمر ..

ــ ان الرؤية العابرة لا تكفى يابنى .

ــ قلبى لا يخطىء ، فابنتك هى الوحيدة التى ملت اليها !

ــ اشكرك على صراحتك .. عـد الى بعـد ثلاثة ايام ، لاستشير سهام فى الأمر .

ومانعت سهام لأول وهلة ، فان الخطيب « المجهول » لم يرق لها ، وهى التى علق فؤادها بذلك الضابط الوسيم ، الذى يلتمع فتوة .. فهى مستغرقة فى التفكير فيـــه ، تراودها صورته اللماحة فى كل لحظة !.. فقد كان ذلك غرامها الأول ، هاجمها وهى فى الثامنة عشرة من عمرها الغض ، فأبت نفسها أن ترتبط بخطيب مجهول ، لا تشتاقه جوارحها الظمئة الى تلك الملامح الوضيئة التى رأتها منذ أيام .. فى مقهى (دمر) !

كانت تتعذب ، وتقضى الليل ساهرة ، وكثيراً ما ارتادت مغانى (دمر) ، التى تسيل رضابا ، عساها تتلمس ذلك الحبيب الذى دخل قلبها ، ذات مساء رفاف بالأنداء ، ثم طار ، لا تدرى الى أين ! ؟

واستبد القلق بفتحى ، وماج به الجزع ، عندما اعتذر والد الحبيبة عن تلبية طلبته ، فقد كان حنينه اليها لاهبا ، لا يقر له قرار ، وصورتها الناعمة ، بقامتها التياهة ، وبشرتهـــا النقية ، وعينيها العسليتين الصافيتين ، تناجيانه من بعيد ! وعكف على الخمرة ، عساه يجد تسرية عمـــا يضطرم فى أحشائه من لهيب ، لا قبل له به ، ولـكن الخمرة ، ومباهج ليالى دمشق ، وربيعها المراع ، لم تستطع أن تقضى على هذه الجذوة ، التى تحرق شغاف قلبه !

وطاف حول بيتها مرارا ، يترصدها ، عساه يستطيع ان يطفىء شوقه ، بنظرة واقعة ، فقد كان حبه عنيفا ، لا يعرف الهوادة ، ولكن الظروف ابت عليه هذا اللقاء المنشـــود ! .. وبتأثير يأسه ، قرع باب دارها ، عند الأصيل . واستقبله صالون فخم ، يتحدث بالنعمة والثراء ، فقد كان أبوها من كبار تجار دمشق ! .. وهدرت بالزائر نقمة على الأغنياء ، فقد خيل اليه انها رفضته لفقره ، وثرائها !

ومرت لحظات ، مثقلة بالبرم ، حتى جاء والدهـــا الى الصالون ، فأهل به بلهجة مؤدبة ناعمة ، وسأله عن احواله ، ولكن

فتحى انفجر صائحا

« يا سيدى .. الآن عرفت سبب عدم رضاك عن زواجى بابنتك » !

وتجهم الوالد ودمدم : ماهو السبب ؟

— لأنى فقير ..

— لا تقل هذا يابنى .. انما الأمر كله يعود الى النصيب .

— الآن جئت أكرر طلبى الأول ..

— ياحبذا .. ولكن سهاما لم تنه دراستها بعد .

— هل أفهم من هذا انه لا أمل لى ؟

وهتف الوالد بلهجة جافة : « نعم .. »

واعتزم فتحى الخروج ، وقد تراءت له « الهوة » التى تفصل بينه وبين الحبيبة الفاتنة ، فلفته دمسة راعبة ، وناح به شجن بليغ ، وضربت أجفانه بشدة وقال : « فليوفقها الله .. »

واشفق الأب عليه وقال : « ان الله سيوفقك الى أحسن منها . » .. ومد له يده مصافحا ، كأنه يود ان ينهى هذه المقابلة الباردة ، التى لم تصادف هوى فى نفسه .. وفى هذه اللحظة دخلت سهام ، وهرعت الى أبيها فاتحة ذراعيها ، لتضمه وتدلله .. وأخذت عيناها الضابط فتحى ، فخفق قلبها ، وكادت تختنق أنفاسها ، وتورد وجهها ، وتقدمت اليه بريث وأناة ، ومدت يدها .. فرعد ، وابتعد عنها قليلا ..

ورشقته بنظرة دافئة من عينيها العميقتين ، اللتين تنطقان بالبراءة ، والتمع على وجهها شحوب رائع ، زادها حسـ

واناقة ، وتمتمت بصوت خفيض : « أترفض أن تصافحنى ؟ »
ـ نعم .. أيتها الارستوقراطية المتعجرفة !
وكاد رأسها ينفجر ، وهدرت فى أعماقها لوعة خرساء ، وعلقت نظراتها فى الفراغ التائه .. فتنمر الأب وصرخ : « ما هذه القحة ؟ »
ولم يدر فتحى كيف استطاع ان يضبط أعصابه المستوفزة ، ويمنع تلك الجمجمة التى استولت عليه ، فاستوى جالسا على المقعد الوثير ، ونفرت دمعة من عينه ، وأطرق ساهما واجما ، وقال : « سامحنى يا عمى . فاننى فقدت عقلى .. واعذرينى يا آنسة .. »
ونهض يستقبل الباب ، مستديرا على عقبيه ..
وصاحت سهام : « لا تذهب .. قل لى ما هى القصة ؟ »
ـ لا شىء يا آنسة .. انى أطلب من الله أن يوفقك ..
وتعالى صوت الأب : « انه يريد أن يخطبك .. »
ومادت بسهام نشوة قريرة ، فحدقت فيه ، وصعدت نظراتها فى أبيها ، ثم أطرقت خجلا .. فها هو منية النفس ، والحبيب الذى أوقد فى قلبها الحب من النظرة الأولى ، وفارس الأحلام الذى سيطير بهاالى عالم يحفل بالمنى المعسولة ، والغامض الساحر اللذيذ !
وأومأ فتحى بيده مودعا ، عندما صافح سمعه صوت سهام ، الفاتن النبرات ، يتردد على فؤاده الكليم ، سلاما ونورا : « وماذا قلت له يا بابا ؟ »
ـ قلت له انك لا تزالين صغيرة ..
ـ ألم تعدنى يا بابا انك لن تزوجنى الا من الانسان الذى اختاره ؟
ـ نعم ..
ـ لقد اخترت هذا الشاب زوجا لى !
وصعق فتحى ، وخال انه فى غيبوبة حالمة ! .. ان عصر

المعجزات قد انتهى ، فكيف تمت هذه المعجزة الغريبة ؟

وحدر الأب نظراته ، وقد تألقت بها الدهشة وصاح : « عجيب .. الم ترفضيه منذ اسبوعين ؟ »

ـ اصارحك يا أبتاه .. لم اعرف انه هو الذى يريدنى خطيبة له !

وهتف الأب : « ليبارككما الله .. »

وهرع اليه فتحى يقبل يده ، وهو يجهش ببكاء خافت متقطع ، وقال : « سيدى .. ان النعمة السابغة التى طوقتنى بها ، لن انساها الى الأبد ! »

وضحك الوالد وهتف : « وما علاقتى بهذا ؟ اشكر سهاما ! »

ودنا من الحبيبة الطاهرة ، يتاملها بنظرات حارقة .. ولما لمس يدها ، تسعرت به نيران ، وانحنى يلثمها بشغف وهو يتمتم : « سأكون لك خير زوج فى هذه الدنيا ! »

وشهدت دمشق غراما طاهرا ، أندى من ماء الغمام ، تحدث به الأقارب والأصدقاء ، والجميع يتمنون لهذين الشابين حياة تنبض بالرفاهة والهناء ..

* * *

وكانت سهام تحب أم خطيبها ، لما وجدت فيها من الطيبة والوداعة والعذوبة والتفانى فى خدمتها ، لا سيما بعد ذهاب فتحى مع فرقته الى فلسطين ، عندما وقع الاعتداء الآثم على أهلها الآمنين ودخلت الجيوش العربية لانقاذها .. فكانت سهام تأتنس بأم خطيبها البطل ، الذى كانت رسائله تنقل انباء بطولته ، مع لداته من أبناء الجيش السورى الباسل .

وذات يوم قالت سهام : « أراك حزينة يا أماه .. هل حدث مكروه لفتحى ؟ »

وتماسكت الأم ، وتجلدت حتى لا تذرف عبراتها ، وقالت :

« فتحى بخير وقد قتل كثيرين من اليهود الفجرة .. »
ـ أعاده الله الينا مكللا بالنصر ..
ـ فتحى بطل ، فليحرسه الله .
ـ ان جميع افراد الجيوش العربية أبطال .. ولولا تدخل الخيانة والاستعمار لسحقوا الصهيونية ، تلك الأفعى اللعينة !
وغامت على الأم رؤى مكفهرة ، وتساقطت الدموع من عينيها القريحتين ، رغم تجلدها ، والقناع البارد الذى حاولت ان ترسمه على وجهها الطافح بالغضون .. فتطلعت اليها سهام ، مذعورة ، ممرورة ، وقد انطلقت الوساوس تمرح فى صدرها ، وصاحت : « اصدقينى يا اماه الخبر ! »
وتمتمت أم فتحى : « لاشىء يا ابنتى .. »
وهزتها سهام بعنف وصرخت : « هل أصاب فتحى مكروه ؟ »
وتكلفت الأم الابتسام واجابت : « ان البطل الشجاع ، يحرسه الله .. »
ـ انك تداورين وتراوغين ، لا تقتلينى !
ـ أقسم لك بالله انه حى يرزق ..
ـ شكرا لك يارب ..
ـ ولكن ..
وعربد الذعر بسهام ، وتهدج صوتها ، وهى تقول بلهجة غلب فيها الأسى : « أخبرينى الحقيقة ! »
ـ هنالك رسالة من فتحى ، كلفنى باعطائها لك ..
ـ هاتها ..
ومزقت الغلاف بلهفة ، وما قرات السطور الأولى ، حتى فر لونها ، وانطفأ النور فى عينيها ، وارتمت على الأرض ، فاقدة الوعى !
وترنحت أم فتحي ، لهول الصدمة ، وانكبت عليها ، تبكى

بمرارة وحرقة . وما زالت بها ، حتى استعادت وعيها ، وان ظل وجهها مريضا أصفر ، يحاكى الموتى !

وصاحت سهام من قلب ممزق : « أكاد لا اصدق .. »

ـ وماذا فى الأمر يا ابنتى ؟

ـ أقرأت الرسالة ؟

ـ اجل .

ونشجت سهام ، وانطلقت تبكى .. ومن خلال جهشاتها المتتالية ، كانت ترسل القول المتقطع : « فتحى .. غير معقول .. لا يريدنى .. يتزوج من غيرى ! ؟ »

وقالت الأم وهى تهم بالانصراف : « استودعك الله يا سهام .. »

لكن الفتاة امسكت بتلابيبها ، ودفعتها بعنف وقالت : « امشى أمامى .. »

ـ الى اين ؟

ـ لأرى فتحى ..

ـ وماذا تريدين منه ؟

ـ لأبارك زواجه !

ـ سهام .. رفقا بنفسك !

ـ سأقتله هو والخائنة التى فتنته !

ـ سهام !

ـ يستحق الموت .. لقد ذهب لانقاذ فلسطين ، لا ليتزوج!

والقت على الرسالة نظرة محمومة .. وقرأتها بصوت مرتفع ، بلهجة ساخرة :

عزيزتى سهام ..

« استودعك الله .. الى الابد .. ان حبى لك كان كاذبا ، فليس من المعقول أن يتاتى الحب من النظرة الأولى .. فعندما سافرت الى الجبهة طفقت أستعرض حبى لك ، فوجدته

زائفا ، قد أقمنـاه على اساس متداع ، اندفعنـا اليه بغلواء شبابنا ، وقـد انهار عند أول صدمة .. فقد تعرفت على أسرة فلسطينية ، أحببت فتاتها ، بعدتفكيرعميق ، وتزوجت منها ، لأننى لم اجد مناصا لى من هذه الزيجة ، بعـد أن احتلت بحسنها عقلى وعاطفتى .. فسامحينى ، وخير لنا ان نفترق فى بداية الطريق .. والله يسعدك ويوفقك .. »

ومزقت الرسالة بعصبية هوجاء ، وداستها بقدمها ، وقد عصفت بها ثورة مدمرة ، فأصبحت كالأعصار الهائج ،يجتاح أمامه كل شىء .. ان فتحى خائن .. هذا غير معقول ، ولكن هذه رسالته .. ناطقة بجريمته البشـعة .. أين عهـوده ووعوده ؟ .. أكان يضـحك عليها ؟ كلا ، لن تغفر له .. بل ستنتقم !

ولطمت خـدها ، ودقت صدرها ، ونبشت شـعرها ، وهجمت على أم الخائن ، تهزها بقسوة وهى تصرخ : « يجب ان تموتى .. لأنك حبلت بهذا الغادر ! »

ثم انكفأت الى مقعد ، وقـد نفر عرق ازرق فى جبهتهـا ، وصاحت بصـوت كالرعد : « أغربى عن وجهى ، يا عجوز النحس ! »

ولاصقتها أم فتحى ، وحنت عليها ، تربت خدها المخملى ، النقى البشرة ، وقد بهت لونه ، وغاض التألق الذى كان يتيه عليه !

ـ ارفقى بنفسك يا سهام

وبكت سهام ، بدموع غزار ، فهدأت بلابلها بعض الشىء ، ثم تراءى لها من خلال الظلمات التى تسبح فيها ، فتحى يرنو اليها ، بفتوته العارمة وشبابه الفرد ، واخلاصه العميق ، وحبه المتجدد ، فاستنارت بصيرتها ، ومسحت دموعها وقالت : « كلا .. لا أصدق ، ففتحى لم يفتر حبـه لى ، وهو سيظل دوما يعبدنى ، حتى آخر نفس يتردد فيه .. قد تكون هذه

مداعبة ! » .. وتعلقت بهذه الخاطرة ، واستنامت لها ، كما يتعلق الغريق بأى شىء يصادفه ، وصاحت : « انها مداعبة منه ليبلو حبى .. ولكنها ثقيلة ممجوجة .. أليس كذلك يا أماه ؟ »

ـ كلا يا حبيبتى .. ليست دعابة !

ـ انما ماذا ؟

ـ لا أدرى ..

ـ اذن .. قد عرفت ..

وضربت جبهتها بيدها ، وهجمت على الأم الوالهة، ودفعتها بعنف : « اذن أصابه مكروه وأنت لا تخبرينني ! »

ومسحت دموع الأم وقالت : « صدق حدسك ياسهام ، ففتحى يعبدك ، واخلاصه لك هو الذى دفعه الى تسطير هذه الرسالة الكاذبة ، حتى ينقذك ! »

وقاطعتها بعنف : « أفصحى ! »

ـ ان فتحى ، واحسرتاه ، قد أصيب فى الميدان بشظية قنبلة ، فى ساقه ، مما دفع الأطباء لاجراء عملية جراحية له ، وقد بترت ساقه ! »

وانطلقت من سهام صرخة مروعة : « لماذا أخفيت عنى هذا الخبر ؟ »

ـ هو الذى منعنى ، وحملنى اليك هذه الرسالة ، لأنه لا يريد أن يربط عجلة حياته الكئيبة ، بحياتك .. انه يضحى بحبه ، فى سبيل سعادة محبوبه !

ـ وأين هو الآن ؟

ـ فى المستشفى العسكرى ..

وهرولت سهام ، وهى تدفع الأم أمامها ، وامتطت سيارتها ، وانطلقت بها كالريح ، حتى وصلت الى المستشفى العسكرى ، وذهبت توا الى غرفة البطل الجريح ، فألفته فى غيبوبة ، يهذى ، من فرط الألم .. فدنت من سريره بخشوع وتبتل ، كأنها

تطوف بمحراب أسنى، وسمعته يقول: « ليسعدك الله ياسهام .. أنا الحي الميت .. ما قيمة حياتى ؟ »

وهبت أنفاسها العطرة تلامس وجهه الذى ينضح بالألم وهمهمت بصوت حنون : « فتحى .. فتحى ! »

وتطلع اليها بلهفة ، وصرخ : « سهام ! »

ـ اجل يا حبيبى ..

ـ من اخبرك اننى هنا ؟

والتفت الى أمه ، وقد برق غضب كظيم فى عيونه .. وصاح : « ألم تنهى اليها رسالتى ؟ »

ـ ولدى الغالى ..

وقاطعها بعنف : « اخبرينى .. ألم تعطها الرسالة ؟ »

وبسمت سهام : « نعم .. قراتها ، ومزقتها ! »

ـ والآن ، ماذا تريدين ؟

ـ ما هذه اللهجة الجافة ، التى تستقبلنى بها ؟

ـ ان كل رابطة بيننا يجب ان تنفصم ..

ـ ان الله زرع الحب فى قلبنا ، ونما وترعرع ، وسيؤتى ثمرته ناضجة شهية .

ـ سهام .. يجب ، ان تنسينى .. الحب تضحية ، وانى أضحى بكل شىء فى سبيلك .. ماذا تبغين من عاجز ، وأمامك الدنيا تضحك لك .. والشبان كثيرون ؟ !

ـ فتحى ، انت النور ، الذى أبصر به ، والأمل الذى يشدنى الى هذه الحياة .. انى الآن قد أحببتك حبا لااستطيع

أن أصفه ! .. ان بتر ساقك هو وسام المجد والبطولة ، الذي أفخر به !

ودخل الطبيب فى هذه الآونة ، فاستقبلته سهام بابتسام مشرقــة وهتفت : « متى يســتطيع فتحى الخروج من المستشفى ؟ »

ـ بعد اشهر قليلة ..

ـ ســيدى .. سأظل فى المســتشفى أعمل ممرضة لخطيبى ..

ـ موافق ..

ـ وادعوك الى عرسى ، فى اليــوم الأول الذى يخرج فيه فتحى من المستشفى !

ـ حاضر .. انك أكرم زوجــة لبطل ، هو رمز فخرنا وكرامتنا وعزتنا

وقال فتحى : « ما أنبلك يا سهام .. »

ـ بل انت النبل ، والبطولة والمجد !

عرض وتلخيص : المحرر

٣٧

فيراتا

قصة كبرى للروائي النمسوي الأشهر:

"ستيفان زفايج"

- ١ -

• قبل ان يهبط « بوذا » على الارض وينشر بين اتباع نور المعرفة ، عاش فى اقليم (بيرواجا) وفى حمى ملك البلاد رجل نبيل يدعى « فيراتا » ، كان صيادا بارعا لا يخطىء هدفه قط ، ومحاربا شجاعا لا يفوقه محارب .. اذا قذف بالسهم لم يرتد سهمه خائبا ، واذا امتشق السيف انقض على خصمه كالصاعقة ! .. جبهته وضيئة مشرقة ، وعيناه لاتخطئان فهم نظرات الناس . لم يره أحد يوما يطوى قبضته مهددا ، ولم يسمعه انسان يطلق صيحة غضب !.. اخلص فى خدمة مليكه ، واخلص عبيده فى خدمته .. ولم يعرف أحد رجلا يفوقه عدلا فى أحكامه ، وحكمة فى تصرفاته ، حتى لقد كان رجال الدين يحنون رؤوسهم له اذا مروا أمام بيته !

ثم حدث ان ساءت حال الملك الذى يدين له « فيراتا » بالحب والولاء ، اذ تآمر عليه شقيق زوجته ـ وكان الملك قد ولاه حاكما اداريا على نصف مملكته ـ فطمع فى السيطرة على المملكة باكملها ، وافلح فى ان يغرى سرا ـ بهداياه ـ اشجع قواد المملكة ، كى ينضموا اليه ويعاونوه .. كما استمال كهنة الدين ، فحملوا اليه تحت ستار الليل « بجعات البحيرة المقدسة » التى كانت حيازتها منذ آلاف السنين رمزا للسيادة والسلطان فى أقليم «بيرواجا» ..ثم جمع الثائر حشدا من الفيلة ،وجند جيشا من أهل الجبال المتذمرين .. وزحف على العاصمة !

فوجىء الملك باقتراب الجيش الزاحف ، فأمر بدق نواقيس الخطر النحاسية والنفخ فى النفير والابواق العاجية من الصباح الى المساء . وحين هبط الظلام أشعلت النار فوق قمم الابرا والقي فيها مسحوق أصداف السمك كي يبرق لهيبها الاص

فى عتمة الليل فينذر بالمحنة الرهيبة المتوقعة . لكن ذلك لم يجلب للملك غير نفر قليل من المحاربين ، فان نبأ اختطاف البجعات المقدسة قد ثبط من همة الزعماء وأضعف روحهم المعنوية ، ومن ثم انضم الى صفوف الاعداء قائد الجيش ومروضو الفيلة .. وانتظر الملك المنبوذ أن يهرع اليه عدد من الموالين له ، فلم ير امام قصره أحدا من قواده الكبار ومحاربيه البواسل .. لم ير غير شرذمة من العبيد والخدم يبدو على أفرادها التردد والحيرة !

* * *

• وفى غمرة أساه البالغ ، فكر الملك فى « فيراتا » ، الذى كان قد ارسل الى مولاه ــ عند أول انذار بالخطر ــ رسالة ولاء وخضوع ، فأمر الملك باعداد مركبته الأنيقة المصنوعة من خشب الأبنوس واستقلها الى منزل فيراتا . وحين هبط منها امام الباب استقبله هذا فى خضوع واحترام ، لكن الملك اقبل عليه متوسلا ، وسأله فورا أن يتولى قيادة جيشه فى حربه ضد عدوه .. فانحنى فيراتا مرة أخرى ، وقال :

ــ سأقود الجيش يا مولاى ، ولن اعود الى بيتى قبل اخماد هذه الثورة !

ثم جمع الرجل أولاده وأقرباءه وعبيده وضمهم الى طابور الموالين ، واعد الجميع لخوض غمار الحرب . وسار الجيش طيلة النهار متخطيا المتاريس حتى ضفة النهر التى كان العدو يحتشد على الضفة المقابلة لها معتزا بكثرته العددية ، ويقطع الاشجار ليقيم منها قناطر يعبر عليها النهر فى اليوم التالى ، فينتشر فى الاقليم ويغرقه فى فيض من الدماء

وكان فيراتا يعرف ــ من ممارسته لصيد النمور ــ أن هناك سردابا يصل بين الضفتين ، فلما هبط الظلام قاد جنوده واحدا واحدا عبر ذلك السرداب ، ثم انقض واياهم بغتة على

جنود العدو الغارقين فى النعاس .. وراح المهاجمون يلوحون لخصومهم بمشاعل نارية من أغصان الكافور أزعجت الافيال والجاموس، فانطلقت هاربة باقصى سرعتها ،وسحقت بحوافرها الثقيلة أجسام النائمين من جنود العدو ! .. وفى اثناء ذلك كانت المشاعل قد أوقدت فى الغابة حريقا أضاء نوره خيام الاعداء ، فهرع فيراتا من فوره صوب خيمة ملكهم المزعوم ، فقابله اثنان من الحرس أطاح برقبتيهما ، ثم أجهز على الثالث .. أما الرابع والخامس فقتلهما بعد نضال حام فى الظلام الدامس، ثم انسل فى هدوء الى باب الخيمة حتى يحول دون قيام أحد باختطاف «البجعات المقدسة» ، فلم يجسر أحد على الاقتراب من الخيمة ، وفروا جميعا مذعورين وفى أعقابهم جنود الملك المنتصرون يطلقون صيحات الظفر والحماس .. بينما جلس فيراتا مطمئنا امام باب الخيمة ، وقد عقد ساقيه تحته وفى يده سيفه المخضب بالدم ، ولبث ينتظر عودة رفاقه من مطاردتهم العنيفة لفلول العدو

* * *

• **وبعد** برهة تثاءب الفجر الجديد من وراء الغابة ، والتمعت اشجار النخيل كأنها مشاعل تسبح فى الماء ، ثم نهضت الشمس الدامية من الشرق .. فنهض فيراتا بدوره وخلع ثيابه ،واتجه صوب النهر ويداه مرفوعتان فوق رأسه . وهناك انحنى يصلى أمام قرص الشمس ـ « عين » الطبيعة الآلهية ـ ولما فرغ من صلاته غاص فى الماء ليؤدى الفريضة المقدسة ، فغسل النهر يديه المخضبتين بالدماء ، ولم تكد أشعة النور المشرق تقع على رأسه حتى عاد الى الضفة فارتدى ثيابه واتجه الى الخيمة كى يتأمل فى ضوء النهار ما تخلف عن مذابح الليل المنصرم

كان الموتى ممددين داخل الخيمة ، وعلى وجوههم المتقلصة سمات الذعر القاتل .. وكان زعيمهم المطالب بالملك ممزق

الجبهة ، وزميله الخائن قائد جيش «بيرواجا» ممزق الصدر . فأغمض فيراتا أعينهما ، وتابع جولته التفتيشية بقصد رؤية بقية صرعاه الذين استل الحياة من أبدانهم والنوم ما زال ينكسر فى عيونهم . كان اثنان منهم غريبين لم يرهما من قبل، بشرتهما سوداء وشعرهما متجعد ، أتى بهما الزعيم الثائر من أقاليم الجنوب ليكونا من عبيده . أما القتيل الاخير ، فلم يكد فيراتا يدير وجهه نحوه حتى شاب نظرته ظل كئيب . لقد عرف فيه أخاه الاكبر « بيلانجور » أمير الجبال ، وكان الملك المزعوم قد التمس عونه ، فقتله أخوه بيده خطأ فى عتمة الليل!

انحنى فيراتا ، وهو يرتجف ، على قلب المحارب يتسمع نبضاته .. لكن القلب كان قد سكن . أما عينا الميت الواسعتان المفتوحتان فكانت فى انسانيهما الأسودين نظرة وخزت روحه .. فأحس فيراتا انه موشك على الاغمـاء ! **كان جالسا بين الموتى اشبه بجثة حية ، يشيح بوجهه بعيدا كيلا تلتقى عيناه بنظرة الاتهام فى عينى أخيه !**

ولم تمض برهة حتى سمع صيحات بعيـدة . كان جنود الملك عائدين كالنسور الجارحة من مطاردة الأعـداء ، يحملون الغنائم الثمينة ، ويطلقون زئير النشوة والظفر وهم يقتربون من الخيمة .. فلما رأوا زعيم الثورة جثة هامدة وسط قواده، ولمحوا « البجعات المقدسـة » قـد استردت من يد الأعداء ، اندفعوا يرقصون ويقفزون ويقبلون فيراتا ، الذى كان جالسا بينهم يبدو عليه عدم المبالاة . وحين هدأت نشوتهم اخـذوا يحملون العربات بالغنائم ، لكنها كانت ثقيلة فغاصت العجلات فى الأرض ، واقتضى الأمر وخز الجاموس الذى يجرها بالاغصان الحادة كى يقتلعها من مكانها ويمضى بها !

ذهب رسول خاص يعبر النهر وينهب الارض حاملا للملك انبـاء النصر ، بينما بقى الآخرون الى جوار غنـائمهم يهللون فرحين .. أما فيراتا فظل صامتا كالمستغرق فى حلم ، لم يرتفع

صوته الا مرة واحدة حين اراد اتباعه تجريد القتلى من ثيابهم عندئذ نهض وامر بعضهم بجلب الاخشاب وتكديس الجثث استعدادا لحرقها ، كى تصعد أرواح أصحابها الى دار الخلود طاهرة .

دهش الاتباع من تصرفه على هذا النحو ازاء الاعداء المتآمرين الذين يستحقون فى عرفهم ان تترك جثثهم لذئاب الغابة تمزقها شر ممزق ، ثم تلقى بقاياها فى العراء .. لكنهم لم يجرؤا أن يخالفوا تعليماته فنفذوها مجبرين . **وأشعل فيراتا النار بنفسه ، وألقى على الجثث عطرا ونخالة من خشب الصندل ، ثم اشاح بوجهه ، ووقف صامتا حتى احترقت الكومة بما فيها ، ثم تداعت وتراكم رمادها على الارض**

فى أثناء ذلك ، كان بعض العبيد قد بلغوا القناطر التى اعدها الثوار فى اليوم السابق متحمسين متوثبين ، فعبرها فى المقدمة كبار المحاربين البواسل ، تتوج هاماتهم أكاليل الزهر ، ثم تبعهم الجنود وخدام الملك ، فالأمراء على ظهور جيادهم . وكان فيراتا قد تركهم جميعا يمرون قبله لان اناشيدهم وصيحاتهم كانت تدوى فى سمعه كالمطارق الثقيلة فتؤلمه . فلما بدأ الركب سيره ، حرص على ان يدع بينه وبين الجموع التى تقدمته مسافة غير قصيرة . وعندما بلغ منتصف القنطرة ، وقف وتأمل طويلا المياه التى عن يمينه وعن يساره .. فاضطر الجمع الذى يتقدمه والذى يتبعه الى التوقف أيضا ، كى تبقى المسافة التى تفصل بينهم كما هى .. ولفرط دهشة الجميع رأوه يرفع ذراعه التى تحمل السيف الى أعلى ، كمن يريد أن يقذف به الى كبد السماء ، ثم يخفضها تاركا قبضة السيف تنزلق من يده فيسقط السلاح فى النهر . وفى مثل لمح البصر القى عشرات من الصبية العراة بأنفسهم وراءه من الضفتين كى يستردوه ، حاسبين انه انما سقط منه عفوا عن غير قصد ، **لكن فيراتا ناداهم بصوت صارم كى يصعدوا الى البر ، ثم تابع سيره**

بوجه جامد مكتئب وجبهة مكفهرة ، بين دهشة اتباعه وحيرتهم . ولم يفتح شفتيه المطبقتين او ينفوه بكلمة وهم يطوون الطريق مرحلة بعد اخرى !

- ٢ -

• **كانت** ابواب « بيرواجا » الحجرية وقبابها المزركشة ما تزال بعيدة عن الانظار ، حين بدت فى الجو عند الأفق سحابة بيضاء ، اخذت تقترب ، وتقترب .. حتى تبين انها كوكبة من الفرسان كانت تثير الغبار حولها وهى تتقدم . فلما لمح افرادها مقدمة الجيش ، توقف ركبهم فجأة وفرشوا الأبسطة فى طريق الجيش الظافر ، ايذانا بقدوم الملك لاستقبال جنوده البواسل ، اذ تفرض التقاليد الا يلمس نعل الملك تراب الارض منذ ساعة مولده حتى ساعة وفاته

واقبل الفيل الذى يحمل الملك داخل هودج فاخر على ظهره ، يحيط به حراسه ، ولم يلبث الحيوان أن استجاب لوخز قائده فثنى ركبتيه ، وهبط الملك منه على البساط المفروش تحت قدميه . وأراد فيراتا أن ينحنى لمولاه ، لكن هذا تقدم منه واخذه بين ذراعيه . وأمر فيراتا باحضار «البجعات المقدسة» ، فلم يكد الملك يرى رمز النصر حتى قبل فيراتا مرة أخرى ، فتعالى التهليل والهتاف بشدة جعلت الجياد تهتز انفعالا والفيلة تتحفز للانطلاق فى الغابة ، لولا أن بذل الخدم جهودا جبارة لتهدئتها والسيطرة عليها . ثم اشار الملك الى احد افراد حاشيته ، فتقدم حاملا سيف البطولة التقليدى الذى توارثه ملوك الاقليم منذ آلاف السنين ، والذى كان مقبضه مرصعا بالجواهر الكريمة وسلاحه نقشت عليه تميمة النصر الغامضة بأحرف من ذهب ، فى لغة القدماء التى لايستطيع أبرع العلماء بل كهنة المعبد الاكبر انفسهم أن يحلوا رموزها

مد الملك يده بالسيف الى فيراتا ، برهانا على تقديره وعربونا

للسلطة المطلقة التى سيمنحه اياها بوصفه قائدا أعلى لقواته المسلحة ، لكن فيراتا قال ، وبصره الى الارض : « هل يسمح لى مولاى - أعظم ملك فى الارض - بأن أطلب من جلالته منة ؟ »

فنظر اليه الملك مليا ، ثم قال : « كل ما تطلب منى مجاب، ولو طلبت نصف مملكتى ! »

فقال فيراتا : « **اذن فاسمح ، يا مليكى ، ببقاء السيف ضمن كنوز جلالتكم ، لانى قد اقسمت الا امس سلاحا مدى حياتى، بعد ان قتلت الليلة شقيقى الحبيب الذى كبر وترعرع معى بين ذراعى أمى !** »

نظر اليه الملك فى دهشة ، ثم قال :

- اذن فلتكن قائد جيشى بغير أن تلمس سلاحا ، حتى أطمئن الى أن مملكتى فى أمان من كل عدو .. لانه لم يحدث قط ان فاقك رجل فى قيادة الجيش . فخذ حزامى هذا رمزا لسلطانك ، وخذ جوادى ذاك برهانا على ذلك

لكن فيراتا خفض عينيه مرة أخرى ، وقال :

- لقد أرسلت الى قوى الخفاء انذارا وعاه قلبى ، مؤداه ان من ينتزع حياة انسان انما يقتل فى الحقيقة أخا له .. لهذا لن أستطيع أن أكون قائدا حربيا . ان الحياة مرحلة قصيرة من مراحل الأبد .. فاسمح لى يامولاى أن أقضى هذه المرحلة رجلا عادلا .. »

اكفهر وجه الملك لحظة ، وساد حوله صمت رهيب .. فانه لم يحدث قط فى تاريخ الآباء والاجداد ان رفض رجل أبى شرف القتال فى الحرب ، ورفض هدية من مليكه . لكن الملك نظر الى « البجمات المقدسة » ، رمز النصر الذى جلبه فيراتا ، فاستعاد محياه صفاءه ، وقال :

- لقد عرفتك شجاعا فى محاربة اعدائى ، وعادلا تفوق كل خدام عرشى .. فاذا اقتضى الأمر أن لا تكون بين المحاربين ، فلست أريد الاستغناء عن خدماتك فى الميادين الاخرى ، وما

دمت تريد التمسك بمبادىء العدالة فسوف تكون قاضى قضاة مملكتى ، حتى تبقى راية الحق مرفوعة والقانون محترما فى بلادى

انحنى فيراتا أمام الملك، وقبل ركبتيه علامة الشكر ، فأجلسه الملك على الفيل الى جواره ، ودخلا المدينة ذات الستين برجا بين هتاف الجماهير وتهليلها وضجيجها الذى كانت تموجاته تملأ الجو وتهدر فى الأسماع هدير البحر الهائج

* * *

• ومن اعلى سلالم القصر ذات اللون الوردى ، أقام فيراتا صرح العدالة باسم الملك ، من مشرق الشمس الى مغربها . وكانت كلمته أشبه بميزان يتأرجح طويلا قبل أن ترجح احدى كفتيه .. ونظراته الثاقبة الحادة تتغلغل الى نفس المجرم كى تفحص باطنه جيدا .. وأسئلته المحرجة اللحوحة تتعمق دوافع الجريمة كما يتعمق الفأس فى باطن الأرض .. وكانت احكامه عادة صارمة قاسية ، لكنه لم يكن أبدا يصدرها فى نفس اليوم ، بل يترك بين استجواب المتهم واصدار الحكم فى قضيته فترة الليل التى تهدأ فيها الأعصاب وتخمد ثائرة الانفعالات التى تجنح بالانسان الى التطرف والتهور . **فكان ذووه يسمعون خطاه تذرع شرفة بيته طيلة الليل حتى مطلع الفجر ، وهو يفكر ويتأمل ويوازن بين العدل والظلم . وقبل ان يصدر حكمه يغمس فى الماء يديه وجبهته كى يتطهر من شوائب الميل والهوى ! وبعد ان ينطق بالحكم يسأل المحكوم عليه رأيه فيه .. ولكن كان يندر أن يجد المتهم ما يقوله فى الحكم ، بل كان يخفى رأسه فى صمت وخضوع ويلثم عتبة السلم فى استسلام ، كأنما الحكم صادر من السماء !**

ولم يحدث يوما أن نطق فيراتا حكما بالاعدام ، حتى على اخطر المجرمين ، وذلك منعا لسفك الدماء .. كما امتنع عن ارسال المحكوم عليهم الى الجبال لكسر الأحجار التى تشيد

منها أسوار الحدائق فى قصور الأغنياء ، أو تسخيرهم فى ادارة طواحين الأرز المقامة على ضفاف النهر أسوة بالفيلة والحيوان ذلك لأنه كان يحترم الحياة الانسانية . وكان الناس يحترمونه ، لأن أحدا لم يأخذ عليه خطأ فى أحكامه أو اهمالا فى استجواباته أو غضبا فى مناقشاته ، فكان القرويون يأتون اليه من أطراف الاقاليم النائية كى يحتكموا اليه ، والكهان يصغون لارشاداته ، والملك نفسه يخضع لنصائحه

وبمضى الزمن ، نسى مواطنوه لقبه القديم « رب السيف » ، وأطلقوا عليه لقب « حامى العدالة » !

- ٣ -

• **وانقضت** على تولى « فيراتا » منصب قاضى القضاة ست سنوات .. وذات يوم جاءه المتقاضون بشاب من قبيلة « كازار » ، التى يقطن أفرادها المتوحشون فى أعالى الجبال ويعبدون آلهة آخرين .. وكانت قدما الشاب متورمتين ، مما دل على انه قضى أياما سائرا على قدميه قبل ان يصل ، كما كانت ذراعاه القويتان مقيدتين بالسلاسل الغليظة ، كى يأمن الناس أذاه الذى كان ينضح من عينيه وهو يديرهما فى غضب تحت أجفانه السمراء

وضع المتهم على الدرجة السفلى من السلم ، واجبر على أن يجثو راكعا للقاضى . وانحنى متهموه بدورهم لحامى العدالة ، ثم رفعوا أصابعهم بالاتهام . فنظر فيراتا الى الغرباء فى دهشة ، وقال :

— من تكونون أيها الاخوان ، حتى تأتوا من أقاصى البلاد ، ومن يكون هذا الرجل الذى تحضرونه مقيدا امامى ؟

فانحنى اكبرهم وقال : « أيها السيد .. نحن رعاة مسالمون من المنطقة الشرقية ، وهذا ابغض رجل فى ابغض قبيلة ! انه وحش قتل من الرجال اكثر من عدد اصابع يديه .. وقد رفض

أحدنا ان يزوجه من ابنته لانحداره من قوم ذوى خلق شنيع، يأكلون الكلاب ويقتلون الماشية ، وآثر أن يزوجها من تاجر فى احدى بلاد الوادى ، فاندفع هذا الأثيم فى نوبة غضبه الى قريتنا وقتل تحت ستار الظلام والد الفتاة واخوتها الثلاثة ، وكل من جرؤ على التعرض له أثناء حملته الاجرامية ، حتى بلغ عدد ضحاياه من قريتنا وحدها أحد عشر قتيلا .. فاجتمعنا وطاردناه مطاردة حامية كما يطارد الوحش الضارى وقبضنا عليه .. وها نحن أولاء نقدمه لأعدل القضاة قاطبة كى تنجو من شروره البلاد »

رفع فيراتا عينيه الى الرجل المقيد بالاغلال ، وسأله :

ـ اصحيح ما يقولونه ؟

ـ ومن أنت ؟ هل أنت الملك ؟

ـ أنا فيراتا ، خادمه وخادم القانون، المكلف بمعاقبة المذنبين وفصل الخبيث عن الطيب

لاذ الرجل برهة بالصمت ، ثم قال وقد ارتسمت فى عينيه نظرة صارمة :

ـ وكيف تستطيع تمييز الخبيث من الطيب وانت لا تسمع غير أقوال طرف واحد ؟

ـ الآن جاء دورك لتقول ما عندك حتى أعرف الحقيقة ..

ـ لست أشكو هؤلاء القوم .. فكيف تعرف ما فعلته مع انى أنا نفسى أجهل ما فعلت يداى حين تملكتنى سورة الغضب؟ لقد تصرفت التصرف الذى يستحقه ذلك الرجل الذى باع ابنته بالمال ، وتحريت العدالة فيما يختص بأطفاله وأعوانه . أما هؤلاء الذين يتهموننى فاننى احتقرهم ، كما أحتقر الحكم الذى سوف تصدره على !

لم يكد التعس يهين قاضى القضاة على هذا النحو حتى علت أصوات الحاضرين من أسفل السلم بعاصفة من الاحتجاجات ، ورفع حاجب المحكمة عصاه الأبنوسية كى

يضرب .. لكن فيراتا استطاع تهدئة الجماهير واستأنف استجوابه للمدعين ثم للمتهم ، فأصر الأخير على الاستخفاف بقاضيه مكتفيا بضم أسنانه على ابتسامة ساخرة ، مكررا القول بين حين وآخر :

ــ كيف تعرف الحقيقة اعتمادا على أقوال أناس لا يمكنك الجزم بصدقهم ؟

واذ انتهى فيراتا من استجواباته كانت شمس الظهيرة تنصب على المكان مباشرة ، فنهض لينصرف على أن يؤجل النطق بالحكم الى اليوم التالى كعادته ، لكن المدعين رفعوا أيديهم صائحين :

ــ مولانا ، لقد قضينا سبعة أيام فى الطريق كى نرى طلعتك البهية ، وتلزمنا سبعة أيام أخرى كى نعود الى بلدنا ، فلن نستطيع الانتظار الى غد ، والا ماتت ماشيتنا عطشا وهلكت مزروعاتنا من اهمال حرثها .. مولانا ، رجاؤنا اليك أن تنطق بالحكم فورا

* * *

١٠ **جلس** فيراتا من جديد ولبث يفكر ، كمن يحمل على كتفيه حملا ثقيلا .. انه لم يصدر البتة حكما على انسان لم يفتح فمه بكلمة دفاع عن نفسه ولم يلتمس الصفح عنه !..

وهكذا ظل يفكر حتى مالت الشمس الى الغروب ، وعندئذ مضى الى البئر فغسل وجهه ويديه كى يتطهر من شوائب العاطفة والغرض ، ثم نطق بالحكم التالى :

ــ فليكن الحكم الذى أصدره عادلا : **ان المتهم مسئول عن جريمة رئيسية ، هى أنه نقل أحد عشر انسانا حيا من عالم الاجساد الدافئة الى دنيا العدم ، وحياة كل انسان حى تستغرق سنة كى تنضج فى أعماق رحم أمه ، ومن ثم يقتضى العدل ان يسجن المتهم فى ظلمة الارض سنة مقابل كل قتيل من ضحاياه ..ولانه سفك الدم احدى عشرة مرة يجلد بالسوط**

كل سنة احدى عشرة جلدة ، حتى يتذكر عدد صرعاه . لكنه لن يسلب الحياة ، لأن الحياة تخص الآلهة ، ألا فليكن عادلا حكمى الذى أصدرته بغير اعتبار الا للعدالة المطلقة

لثم المدعون عتبة السلم علامة الاحترام والتبجيل .. اما الرجل المغلل فركز بصره القاتم على عينى فيراتا ، الذى اتجه بدوره نحوه وقال له :

ـ لقد دعوتك كى تفند التهم التى أسندها اليك خصومك وتلتمس منى الصفح والتسامح، فلم تنفرج شفتاك عن كلمة .. فلئن كنت قد اخطأت فى حكمى فالذنب ليس ذنبى وانما ذنب صمتك المطبق .

فصاح الرجل مقاطعا :

ـ لست أبغى صفحك ولا غفرانك .. فما قيمة التسامح الذى تمنحنى اياه بالقياس الى الحياة التى تسلبنيها بكلمة من فمك ؟

ـ لم اسلبك الحياة .. بل لقد أبقيتها لك !

ـ لقد سلبتنيها .. وبطريقـة أقسى من تلك التى يفعلها زعماء قبيلتنا الذين تصفونهم بالوحشية ! .. لماذا لم تحكم على بالموت ؟ لقد قتلت ، كما يقتل الرجل ، أما أنت فتسجننى كالجثة الميتة فى ظلمة الأرض ، كى يتحلل فيها جسدى بمضى السنين ، وما ذاك الا لأن قلبك يجبن امام الدم ، وضميرك أعزل من كل قوة . قانونك هو الطاغية ، وحكمك هو الشهيد .. فاقتلنى ، عقابا لى ، لأنى قتلت !

ـ لقد وزنت عقوبتك وفقا للعدالة .

ـ واين ميزانك ؟ .. هل ذقت عقوبة الجلد حتى تعرف طعم السوط ؟ هل جربت مرارة السجن فى باطن الارض وكيف تنقضى فيهـا السنون ؟ هل أمضيت عمرك فى زنزانة حتى تقدر كم ربيعا تنتزعه الآن من حياتى بحكمك الجائر ؟ **انك جاهل ولست بعادل ، لانه لا يعرف طعم العذاب سوى من**

تعذب .. انك تعطى نفسك حق معاقبة المذنبين ، بينما أنت المذنب الأول ، لأنى قتلت من قتلت فى سورة غضب ، وتحت تأثير الانفعال الشديد ، اما أنت فتسلبنى الآن حياتى عن سبق اصرار وتعمد ، وتفرض على عقوبة لم تجرب يوما ثقلها .. والويل للذى يزن الاحكام بميزان جائر .. الويل للجاهل الذى يحسب أنه ادرى بالقانون . فاترك منصتك أيها القاضى الجاهل ولا تأخذ الأحياء بقوانين جامدة !

وكان الرجل يتكلم ، والبغض الشديد مرتسم على فمه ، والشحوب يكسو وجهه ، ومرة اخرى اراد الحاضرون ان يتدافعوا نحوه غاضبين ، لولا ان أوقفهم القاضى باشارة حازمة واقترب من المتهم قائلا بلهجة ناعمة :

– ليس فى استطاعتى أن الغى الحكم الذى نطقت به من فوق هذه المنصة !

ثم مضى عنه ، بينما قبض الجند على المحكوم عليه الذى – برغم تقييده بالسلاسل – حاول المقاومة . فعاد اليه القاضى مرة أخيرة ، ورأى فى عينيه نظرة اتهام حادة ، ذكرته بالنظرة التى حدجته بها عينا أخيه الجامدتان على أثر قتله اياه فى خيمة زعيم الثوار .. فسرت فى جسده قشعريرة قوية !

وفى تلك الليلة لم يفتح فيراتا فمه بكلمة .. كانت نظرة المجرم قد نفذت الى قلبه كالنصل المحمى ، فسمع ذووه خطواته تذرع غرفته طوال الليل ساعة بعد ساعة بغير أن ينام ، حتى أطلت حمرة الشفق على بيته من بين أشجار النخيل .

وفى الصباح استحم كعادته فى بحيرة المعبد المقدسة ، وصلى ووجهه ناحية الشرق ، ثم عاد الى بيته فارتدى سترته الصفراء التى يلبسها فى ايام الأعياد واخذ يحيى ذويه تحية مؤثرة ادهشتهم .. لكنهم لم يجرؤوا على سؤاله عن جلية الأمر . ثم توجه الى قصر الملك ، الذى كان مفتوحا له فى كل ساعة

من ساعات النهار او الليل ، فانحنى أمام مولاه حتى لمس الطرف الأدنى لثيابه ، علامة الاستئذان فى طلب .. فرمقه الملك بنظرة محبة وتقدير ، وقال له :

– ان رغبتك قد لمست ثوبى يا فيراتا ، وهى مجابة لك قبل أن تطلبها

فقال هذا وهو ما يزال منحنيا :

– لقد جعلتنى قاضى قضاتك يا مولاى . ومنذ سبعة أعوام وانا اصدر الاحكام باسمك ، بغير أن اعرف ما اذا كانت أحكامى صائبة أم جائرة .. فامنحنى عطلة مداها شهر واحد ، أسلك فيه الطريق الذى يوصلنى الى معرفة الحقيقة ، فانى أريد أن انزه نفسى عن المظالم ، وأعيش طاهرا من كل شائبة !

فأجابه الملك فى دهشة :

– سوف تفتقر مملكتى الى العدالة خلال الشهر الذى تتغيبه ، لكنى لن أسألك عن الطريق الذى اخترته لبلوغ هدفك ، فليكن محققا لغايتك السامية

قبل فيراتا الأرض علامة الشكر ، ثم أحنى راسه مرة اخرى وانسحب .. وحين دخل بيته ، نادى زوجته واطفاله وقال لهم :

– سوف لا تروننى طيلة شهر كامل .. ولا تسألونى الى أين أنا ذاهب !

نظرت اليه الزوجة فى اشفاق ، والأطفال فى حنان ، فانحنى فيراتا على كل منهم وطبع على جبينه قبلة ، ثم قال لهم :

ــ والآن انصرفوا الى حجراتكم واغلقوها عليكم حتى يبقى الطريق الذى سأسلكه مجهولا عندكم ، ولا تسألوا عن اخبارى قبل حلول الشهر القادم !

فاستدار كل منهم ، ومضى دون ما كلمة ، واذ ذاك خلع فيراتا سترة الأعياد وارتدى سترة قاتمة ، وادى صلاته ، ثم كتب كلاما ملأ به بعض اوراق الشجر ، ولفها جيدا

وحين أقبل الظلام خرج من البيت فى اتجاه سجن البلدة ، فلما بلغه طرق باب غرفة الحارس القائم على حراسة « الزنزانات » الكائنة تحت الأرض ، حتى استيقظ من نعاسه وسأله من يكون ، فأجابه :

ــ أنا فيراتا ، قاضى القضاة ، جئت أرى السجين الذى جاءوكم به أمس

ــ انه يا سيدى محبوس فى الزنزانة التى فى أعمق قاع السجن ، فهل أقودك اليه ؟

ــ كلا ، اننى أعرف الطريق ، فاعطنى المفتاح وعد الى نومك .. وستجد المفتاح غدا امام بابك ، ولا تقل لانسان أنك رأيتنى اليوم !

انحنى الحارس طائعا ، ثم أحضر المفتاح ومصباحا صغيرا وانسحب طوعا لاشارة القاضى ، بينما مضى هذا فى طريقه الى زنزانة السجن ! .. **وقبل ان يعبر الباب المؤدى اليها ، ألقى نظرة أخيرة على أديم السماء المنبسط فوق رأسه حيث تلمع النجوم المتناثرة .. ثم هبط فى طريقه الى الزنزانة ، ومضى على هدى المصباح الصغير الذى فى يده ، وسط ظلمة تزداد تكاثفا فى كل خطوة . وكان صفير الريح بين أغصان الأشجار ، وصيحات القردة الحادة ، ما تزال تبلغه من الخارج ضعيفة واهنة ، حتى لم يعد يسمع غير همهمة بعيدة .. ثم ساد صمت جامد بارد كالذى يحسه الغواص وهو فى قاع البحر .. وكانت تتصاعد من أحجار البناء رائحة رطوبة شديدة ..**

وكلما أوغل فى الصخر ، كان صدى خطواته يرن وسط السكون الرهيب .. حتى بلغ أخيرا زنزانة السجين ، الواقعة فى الطبقة الخامسة تحت الأرض ـ على انخفاض يفوق قامة اطول اشجار النخيل ! ـ فدخل فيراتا ، ورفع مصباحه فوق « كتلة » قاتمة ، غمغمت فى خفوت حين سقط عليها الضوء الباهت ، وسمعت قرقعة سلاسل تتحرك .. فانحنى القاضى على السجين يسأله :

ـ هل تعرفنى ؟

ـ نعم ، أنت الذى جعلوك مقرر مصيرى وسيدى

ـ لست سيد أحد ، وانما أنا خادم الملك والعدالة ، ومن اجل ذلك جئت الى هنا

رفع الرجل عينيه ، وحدج القاضى بنظرة شريرة ، ثم قال:

ـ وماذا تريد منى ؟

لاذ فيراتا بالصمت برهة ، ثم أجابه :

ـ لقد سببت لك اذى بالحكم الذى أصدرته عليك ، لكنك أنت بدورك آلمتنى بأقوالك . وانى لأجهل هل كان حكمى عادلا أم لا ، وعلى أية حال ، ففى ملاحظاتك التى أبديتها حقيقة صادقة : **فمن الظلم ان يحكم المرء بميزان لم يجربه بنفسه ! .. وانا قد ارسلت مئات من الأحياء الى ظلمة هذا السجن ، ورزح كثيرون تحت وطأة احكامى ، بغير ان اعرف ماهية العقوبة التى أوقعتها بهم .. لهذا جئت اليوم اجرب هذا العقاب بنفسى ، كى أصير عادلا فى أحكامى ، وادخل الابدية طاهرا خالصا من كل شائبة .. جئت لأعرف بالضبط ما هو العقاب الذى أنزلته بك ، واجرب لذع السياط على جسدى ، واجرع آلام الاسر فى السجن . سوف آخذ مكانك شهرا كاملا، أطلقك أثناءه حرا ، اذا وعدتنى ان تعود من تلقاء نفسك فى نهاية المدة !**

أنصت السجين كالمشدوه ، بغير أن يتحرك او تسمع قرقعة

أغلاله ، بينما استطرد فيراتا قائلا :

ـ أقسم لى باسم آلهة النقمة ، التى تمتد ذراعها الى اقصى الكون ، أن تلوذ طيلة الشهر بالصمت المطبق فيما يتصل بكل هذا ، وأن تحمل هذه الرسالة المكتوبة الى الملك فى نهاية المدة ، كى يطلق سراحى فأعود الى منصبى واحكم بالعدل المطلق

فغمغم المسكين بشفتين ترتجفان : «أقسم لك» ـ وكأنما خرجت الكلمتان من باطن الأرض ! ـ واذ ذاك حل فيراتا وثاق السجين ، ثم خلع سترته وسلمه اياها ، قائلا :

ـ اليك ثيابى ، فالبسها واخرج منكسا راسك الى اسفل، كى لا يتعرف الحارس عليك ، ثم ضع المفتاح امام بابه وامض فى سبيلك . والآن اليك هذا المقص فأقصص به شعرى ولحيتى حتى لا يفتضح امرى !

تناول السجين المقص ، لكن يده ارتجفت فسقط منه ، ثم عاد فتشجع أمام نظرة القاضى الآمرة ونفذ ما طلبه منه ،وحين فرغ من مهمته ارتمى أمامه على الأرض وصاح فى تأثر بالغ :

ـ سيدى ، لن احتمل أن تتعذب بسببى ، فأنا الذى قتلت، ويداى المحمومتان هما اللتان أراقتا الدم .. فحكمك صائب وعادل !

ـ اهدأ يا بنى ، فلا أنت ولا انا نستطيع وزن صواب الحكم ، لكنى سوف أستنير قريبا فى هذا الشأن ، فاذهب الآن وافعل ما اقسمت لى عليه .. اذهب !

انحنى السجين وقبل الأرض ، ثم فتح الباب ببطء ، ولآخر مرة خفق لهب الشمعة على الحائط ، ثم .. جثم الظلام على الوجود !

ـ ٤ ـ

• فى اليوم التالى ، سيق فيراتا ـ الذى لم يعرف احد

شخصيته ــ الى ميدان التعذيب فى وسط البلدة ، وحين سمع صفير الجلدة الأولى على كتفيه العاريتين ، أطلق صرخة الم بالرغم منه ، ثم تجلد فى المرات التالية ، فكظم المه بين اسنانه .. وعلى أثر الجلدة التاسعة والستين فقد صوابه ، فحملوه الى السجن أشبه بالجثة الهامدة ..

وحين افاق كان ممددا فى زنزانته ، يحس كأن ظهره راقد على جمر مشتعل .. لكنه شعر الى جانب ذلك بنداوة على جبهته ، واستنشق عبير اعشاب برية ، وعلى شعره كانت تنزلق يد ناعمة تقطر حنانا .. ورأى من خلال أجفانه المنفرجة قليلا زوجة حارس السجن الى جانبه ، تمسح على جبينه فى رفق . وحين فتح عينيه تماما لمح فى نظرتها بريق التأثر والاشفاق . ومن خلال النار التى كانت تلهب ظهره ، أحس بالريح الطيبة الخالصة تهب عليه من أنفاسها ، فابتسم للمرأة ابتسامة واهنة .. وكف ظهره عن ايلامه !

وفى اليوم الذى يليه استطاع أن ينهض ويتخبط بيديه فى عتمة زنزانته الباردة . وفى اليوم الثالث بدأت جراحه تلتئم ، وقواه وحواسه تعاوده ، فأمكنه ان يجلس فى هدوء وتبلد ، لا يحس بشىء حوله سوى قطرات الماء التى كانت تقطر من الحائط فتبدد السكون الرهيب ، وتقسم الصمت المطبق الى عدد لا نهاية له من الوحدات الزمنية الضئيلة ، التى تتحول تدريجيا وفى بطء قاتل الى أيام وليال !

* * *

• ولم يكن أحد يكلمه قط .. ولكن من اعماق نفسه الجائشة كانت تطفو صور شتى من ذكريات الماضى ، تحولت بمضى الأيام الى بحيرة ساكنة من التأملات ، تنعكس على صفحتها حياته بأسرها ، والكون وما فيه . وتحررت روحه من رق الجسد والشهوات ، ومتاعب الدنيا ، وقلق الذهن

والقلب . واستغرقته هذه التأملات ثمانية عشر يوما وليلة.. **لكنه فى الليلة التاسعة عشرة هب من نومه مذعورا وقد تملكته فكرة دنيوية ، وخزت رأسه كالابرة المحماة ، وأرسلت فى جسده قشعريرة عنيفة ارتجفت لها اطرافه كالأغصان فى مهب الريح : ان احتمالا رهيبا قد عبر بخاطره بغتة ولأول مرة ، كسهم نارى يمرق من الظلمات** : ماذا لو حنث المذنب فى وعده وقسمه فلم يحمل رسالته المخطوطة الى الملك فى نهاية الشهر ، وترك منقذه فى غياهب السجن يجنى ثمرة تفانيه الساذج فى خدمة العدالة ؟

وأرعبته الفكرة .. تصور أنه سيظل ممددا فى زنزانته آلافا وآلافا من الأيام ، حتى يتحلل لحمه من عظمه ويجف لسانه من طول الصمت .. **فعاودته ارادة الحياة بكل عنفوانها ، واسترد احساسه بالزمن ، ووعيه للخوف والأمل ، وتفكيره فى نفسه ، لا فى الأبدية والخلود . تعطشت عيناه للنور ، وساقاه الممدودتان بحذاء الحجر الصلب البارد اشتاقتا للمكان الرحيب ، وللجرى والقفز . وذكر زوجته ، واطفاله ، وبيته وثروته ، ومغريات الدنيا الشهية التى تلهب الحواس ، وتشعل فى الدم حرارة الحياة !** ومنذ تلك اللحظة تناهبته الشكوك والهواجس ، والفزع من أن ينساه بديله فى زنزانته فيبقى سجينها طول حياته .. فكان ذلك آخر عهده بالسكينة والاسترسال فى التأملات . صار يذرع سجنه الضيق ويدور فيه حول نفسه كالنمر الهائج وارهق الصمت والوحدة أعصابه ، فراح يسب الحكام ويلعنهم ، ويجدف على الآلهة .. بل صار حين يستبد به الغيظ يصدم برأسه الباب حتى يقع على الأرض مغشيا عليه ، ثم يفيق فيستأنف دورانه فى الحجرة ، كالفأر الحبيس فى المصيدة !

***

• **ظل** على هذه الحال حتى اليوم الثلاثين ، حين سمع

خارج الباب ضجيجا أعقبه صوت خطوات تقترب ، ثم فتح الباب بغتة وأضاء المكان نور باهر .. ثم ظهر الملك ! وقبل ان يفيق السجين من المفاجأة ، اقترب منه مولاه وعانقه ثم قال له :

ـ لقد علمت بمغامرتك ، التى تفوق كل ما أنبأتنا به كتب القدماء .. فتعال كى تحظى نظرات الشعب بتأمل طلعة قاض عادل ، ولتضىء انوار الآلهة طريقك ..

حجب فيراتا عينيه كى لا يبهرهما النور ، من فرط مااعتادتا الظلمة ، وجرى الدم حارا فى عروقه . وحين أخرجوه سار يترنح كالثمل ، حتى لقد اضطر الى الاستناد الى أذرع الحراس .. وقبل ان يصل الى الباب الخارجى صاح والدموع فى عينيه :

ـ مولاى .. لقد وصفتنى بالقاضى العادل ، لكنى الآن أدرك أن كل قاض لابد أن يخطىء أحيانا فى احكامه . وان فى غرف هذا السجن مظلومين يقاسون مرارة عقوبات نطقت بها شفتاى . الآن فقط قدرت آلامهم .. فأطلق سراحهم يا مولاى ، ومر بازاحة الناس عن طريقى لانى سأذوب خجلا من حرارة استقبالهم لى .

أشار الملك لأتباعه فأبعدوا الجماهير عن الطريق ، ثم قال :

ـ ما دامت تجربتك لآلام السجن قد جعلتك أعدل وأحكم من جميع القضاة والحكماء ، فسوف تجلس عن يمينى على العرش كى تشير لى بما ينبغى أن أفعل ، وتضفى على حكمى من عدلك وحكمتك ..

لكن فيراتا جثا على ركبتيه أمام الملك ، وقال متوسلا :

ـ بل اعفنى يا مولاى من كل مسئولية ، فلست أستطيع منذ الآن أن اصدر حكما بعد ان عرفت ان انسانا ما لا يمكن أن يقضى فى امر انسان .. وانما العقاب من شأن الله وحده دون الناس ، ومن يقرر مصير أخ له فى الانسانية يرتكب

خطيئة كبرى ، وانا ابغى الا تشوب حياتى خطيئة او لوم .

ـ فليكن .. فانك فى مملكتى لن تكون قاضيا بل ناصحا ومشيرا ، توجهنى الى الحرب او السلم وفقا للظروف والأحوال ، وترشدنى الى العدل والصواب فى شؤون الضرائب وتصريف أمور الرعية ، كى تكون قراراتى جميعها سليمة من كل خطأ او انحراف

ومن جديد أحاطت ذراعا فيراتا بركبتى الملك ، وقال فى استعطاف :

ـ مولاى ، لا تعطنى أى سلطان ، لأن السلطان يغرى بالطغيان .. والانسان لا يستطيع أن يعدل الا اذا كف عن التدخل فى اقدار الناس والتأثير فى حياتهم ، أى الا اذا عاش وحيدا . فما كنت يوما أقرب الى نور المعرفة وابعد عن كل خطأ أو خطيئة منى حين كنت وحيدا بمعزل عن الناس . فاسمح لى أن أعيش فى بيتى فى سلام .. أتعبد للآلهة وانأى بنفسى عن كل مصيبة !

ـ حسنا ، سأدعك وشأنك . فافعل ما تستريح اليه ، وانه لشرف لمملكتى أن يكون فى أرضها انسان يعيش بلا لوم ، ويتصرف فلا يخطىء

ثم ترك الملك فيراتا ومضى .. فانصرف هذا وحده ، وئيد الخطى ، ينعم بدفء الشمس المشرقة ، وقد أحس أنه تخفف من احماله واطمأن باله ، واستعاد حريته الكاملة التى لا يحدها قيد !

وحين ابتعد عن السجن ، سمع وراءه صوت قدم حافية تتبعه ، فلما استدار رأى نفسه وجها لوجه امام المذنب الذى أطلقه من السجن ليحل مكانه ! واذا بالرجل يقبل موطىء قدمى فيراتا على التراب وينحنى فى خشوع ، ثم يختفى . واذ ذاك ، ولأول مرة منذ رأى فيراتا نظرة التأنيب فى عينى أخيه الذى

قتله فى خيام العدو ، ابتسم منشرحا .. ومضى بخطى مرحة خفيفة صوب منزله

— ٥ —

• وعاش فيراتا حياة نقية تفيض طهرا ونورا ، يتأمل صفاء السماء ، ويستنشق عبير الأرض المقدسة ، ويصغى لموسيقى الفجر وتسبيح الطير للخالق .. ويقرأ من الصباح الى المساء كتب الحكمة والدين ، ويصلى ، ويحسن الى الفقراء والمعوزين ، ويواسى المرضى والبائسين .. فأحبه أهله وعارفوه أضعاف حبهم له من قبل ، وصار الناس يأتون اليه من اقاصى البلاد ليستفتوه فى أمورهم وما استعصى من مشكلاتهم ، ويسألوه المشورة والنصح ، ويحكموه فى منازعاتهم .. فاذا ابدى رأيا أطاعوه طاعة عمياء بغير تردد ! واحس هو بسعادة خالصة فى أن يشير بدلا من أن يأمر .. فغمر السلام قلبه ، وسكنت نفسه القلقة واستراحت

وانقضت ست سنوات على هذا المنوال ، كيوم واحد جميل ، كان بيته فيها اشبه بجزيرة نائية لا تبلغها عواصف الشهوة ولا تهب عليها ريح الرغبات والأغراض • وذات مساء أوى الى فراشه كالمعتاد ، وبعد لحظات سمع صرخات حادة تثقب السكون ، وضجيجا كالذى يحدثه شخص يضرب ضربات موجعة ، فهب من فراشه ليجد أولاده قد امسكوا بواحد من العبيد وراحوا يجلدونه على ظهره بالسوط حتى سال دمه . ولمح فيراتا فى مقلتى العبد نظرة الألم المبرح .. تلك النظرة الجامدة التى ذكرته بنظرة اخيه القتيل ، فسارع الى العبد يخلصه من قبضتهم ويسألهم عما جرى

علم منهم أن العبد ـ الذى كانت وظيفته أن يصب الماء فى نافورة الحديقة كى تنثره فيما حولها بلا انقطاع ـ اعتاد أن يهمل فى عمله ويتراخى احيانا ، بتأثير شدة الحرارة

والتعب . وانهم عاقبوه على ذلك مرارا ، كان آخرها فى اليوم السابق ، وعلى أثرها لاذ بالفرار ، فطاردوه بجيادهم حتى لحقوا به فى قرية عند اعالى النهر ، فقيدوه الى أحد الجياد وعادوا راكضين به ، تارة على قدميه وتارة مجرورا ، حتى تسلخت قدماه وجسمه وسال دمه ! وبرغم ذلك لم يعفوه من العقاب الأكبر الذى كان ينتظره فى البيت ، فجلدوه امام بنى جلدته من العبيد الآخرين ، ليكون لهم مثلا وعبرة !

نظر فيراتا الى العبد ، فرأى الرمل العالق بقدميه معجونا بالدم ، ورأى فى عينيه المذعورتين كعينى الحيوان المخنوق تلك النظرة الهلعة التى ذكرته بالظلام فى زنزانة السجن ، فهتف بهم من فوره :

- اطلقوه .. فقد استوفى ذنبه !

وعندئذ ارتمى العبد على قدمى سيده يلعق التراب العالق بحذائه ويقبل موطىء نعليه ، بينما انسحب ابناء السيد مكرهين غير قانعين ، وعاد فيراتا الى جناحه فغسل جبهته ويديه بالماء وأوى الى فراشه

***

• **ولكن** ، لأول مرة منذ ست سنوات ، جفاه النعاس .. وفيما هو مستلق على سريره فى الظلام ، تتابعت على مخيلته نظرة العبد المذعور ، فنظرة أخيه القتيل ، ثم نظرات ابنائه التى تفيض غضبا ، فساءل نفسه فى قلق : « ألم يرتكب اولاده اثما فى حق ذلك العبد ؟ او لم يلطخ دم المسكين عتبة داره من أجل ذنب تافه ؟ ثم ألم يهو السوط على جسد حى بغير جريرة تستحق ؟ »

وأحس كأن نار السوط تحرق جسده هو ، أشد مما حرقته حين هوت على ظهره فى ظلام السجن ! صحيح ان العقوبة فى هذه المرة لم تصب شخصا حرا ، بل أصابت عبدا بنص القانون

على أن جسده ملك لسيده منذ ولادته ، يفعل به ما يشاء ، ويبقى عليه أو يهلكه .. ولكن ، ترى هل يطابق نص القانون ما تقضى به الشرائع السماوية ؟

نهض فيراتا من فراشه وأضاء النور كى يبحث فى الكتب عن جواب لهذا السؤال ، لكن عينيه لم تقعا فى اى منها على تفرقة بين الرجال فى هذا الصدد . وفيما هو مكب على كتبه، اختلج لهب المصباح لحظات ثم انطفأ ، وغرقت الغرفة فى ظلام دامس ، فداهمه احساس غريب : **خيل اليه ان الجدران التى تحد المكان ليست جدران غرفته الفسيحة ، بل جدران زنزانته فى السجن ، التى ادرك وهو فيها وسط آلامه المبرحة ان الحرية هى أهم حقوق الانسان الجوهرية ، وانه مامن شخص يملك حق حبس كائن حى لمدى الحياة ، او حتى لسنة واحدة .. ومع ذلك فها هو ذا قد ادرك الآن انه يسجن ذلك العبد منذ امد بعيد فى دائرة ارادته المطلقة ، ويتحكم فيه بحيث لا يدع له حق الاستمتاع بحرية أن يخطو خطوة واحدة وفق هواه ! وكم من عبيد آخرين يسخرهم لخدمته ويسلب حريتهم وفقا لقانون البشر الزائل ، وليس وفقا لشريعة الآلهة السماوية ؟** وحين بلغ من خواطره هذا الحد ، انحنى ليصلى.. ثم فرغ من صلاته فارتدى ثيابه وخرج الى الليل الذى كان يسحب اذياله فى الخارج .. فمضى يتقبل تحية النجوم المومضة ويجرع نسيم الفجر العذب فيملأ به رئتيه .. حتى جاوز الحدائق وبلغ ضفة النهر والشمس تبرز من وراء الأفق ، ، فالقى بنفسه فى المياه المقدسة . ثم عاد بعد حين الى داره حيث كان ذووه مجتمعين للصلاة ، فوقف فى وسطهم وحياهم بابتسامة عذبة ثم أشار للنساء كى يلذن بحجراتهن .. وبعد ان خلا بأولاده قال لهم :

ـ تعلمون اننى منذ أعوام اسعى نحو هدف واحد ، هو التزام العدالة المطلقة ، والعيش على الأرض طاهرا من كل

خطيئة .. وبالأمس سال فوق أرض بيتى دم انسان أريد ان ابرىء نفسى من وزره ، ولا سبيل الى ذلك الا بمنحه حريته الكاملة واعتاقه من العبودية .. فليذهب حيث يشاء كيلا يتهمنا يوم الدينونة الأخيرة ، ولست أريد ان افعل ذلك قبل أن اتيح لكم فرصة الادلاء برأيكم بصراحة تامة

واذ ذاك انبرى له الابن الأكبر قائلا :

- تريد أن تعتق عبدا مذنبا ، مكافأة له على تقصيره ، بدلا من ان تعاقبه ؟ .. ثم ان فى بيتنا عبيدا آخرين ، فكيف تأبى عليهم حريتهم اذا اطلقت سراح واحد منهم ؟

- اذا أرادوا حريتهم فمن واجبى ان امنحهم اياها .. لأن من يتحكم فى مصير غيره يرتكب اثما !

فقال الابن الثانى :

- لكنك بهذا تخرق قانونا يسرى منذ مئات السنين ، فهؤلاء العبيد ملك لنا كالأرض والاشجار وثمارها سواء بسواء .. والعبد ليس سيد نفسه وانما هو خادم سيده !

- ليس ثمة غير قانون واحد هو شريعة الله المثلى ، التى وهبت الحياة لكل انسان مع انفاسه الاولى .. ولقد ذكرتنى فعلتكم بالمساواة التى كنت غافلا عنها حتى الآن ، حاسبا انى أعيش بلا خطيئة . لكننى تنبهت اخيرا الى أن الانسان العادل يجب الا يجعل من انسان مثله حيوانا ، وانا اريد ان أمنح عبيدى حريتهم جميعا حتى اصير بلا شائبة

- ومن يزرع لنا حقولنا ، ويرعى اغنامنا ؟ هل نفعل كل ذلك بأيدينا كى نرضى نزوتك الغريبة ؟ انك انت نفسك لم تؤد يوما عملا بيديك ، ولم تمانع فى ان تعيش على عمل الآخرين .. وان عرق جبينهم لينضح من الحشية التى تنام

عليها ، وها أنت الآن تريد طردهم على حين غرة كى نتعب ونشقى نحن أولادك المنحدرين من صلبك ودمك ! بل لعلك تريدنا أن نعتق الابقار التى تجر المحاريث ونأخذ مكانها ، كى لا يهوى السوط على ظهرها . أليست هى الاخرى من مخلوقات الله التى وهبها الحياة ؟ .. ارح نفسك ولا تحاول تغيير ما هو كائن ، لأن كل ما هو كائن من صنع الله أيضا ، والارض نفسها لا تخرج ثمارا الا اذا حرثتها واهويت عليها بفأسك فى عنف ، فالعنف هو قانون الخليقة وناموس الحياة ، ولسنا نستطيع عنه بديلا . والقوة هى السلاح الماضى بالنسبة للانسان ، والحيوان ، والأرض الطيبة

ـ لكنى اريد اصلاح كل وضع خاطىء .. لهذا آمركم باطلاق العبيد الذين فى البيت وتأدية مطالبكم بأنفسكم

ـ تقول انك لا تريد التحكم فى حرية انسان أو اجبار عبيد على أمر .. وها انت تريد التحكم فينا نحن واجبارنا على تنفيذ امرك .. فاين عدالتك ؟

صمت فيراتا برهة مطرقا ، وحين رفع عينيه لمح فى أعين أبنائه شرر الغضب والتحدى ، فمرت بجسده قشعريرة وقال ملاطفا :

ـ لقد ارشدتمونى الى ما يجب ان اعمل . لن أفرض عليكم امرا ، فلقد صدقتم حين قلتم ان من يأمر يجعل من الآخرين عبيدا ! ومن يريد أن يعيش بلا خطيئة يجب الا يشارك غيره مسكنا ، ويأكل من ثمرة تعب احد ، أو ينتفع من عرق جبين مخلوق ، أو يقيد نفسه بأغلال شهوات النساء .. وانما عليه أن يعيش وحيدا اذا أراد ان يعيش لربه . وانا أريد ان أكون أقرب الى ربى منى الى ارضى التى املكها .. فخذوا ارضى وبيتى وتقاسموها بينكم فى سلام

واستدار فيراتا عنهم ومضى الى غرفته ، بينما وقف أبناؤه جامدين حيارى ، يتجاذبهم الطمع فى الارث الذى تركه لهم ،

والخجل من أنفسهم !

* * *

• **وحبس** الأب نفسه فى حجرته حتى اقبل الليل .. وعندئذ تأهب للرحيل ، فأخذ عصا وفأسا وبعض الفاكهة وكتب الصلوات ثم غادر المنزل فى سكون ، بغير أن يلقى نظرة أخيرة او كلمة وداع على زوجته وأولاده !

وقضى الليل كله سائرا على قدميه حتى بلغ النهر الذى كان قد اسقط فيه سيفه غداة انتصاره على اعداء الملك وقتله لأخيه .. وهناك عبر النهر الى الضفة الاخرى حيث كانت الارض عذراء لم تقلبها فأس ، مهجورة لا يسكنها انسان .. وعند الفجر بلغ مكانا سقطت فيه صاعقة على شجرة «مانجو» عتيقة فأحدثت حريقا كبيرا اضاء المنطقة كلها

ادار فيراتا بصره فى الاشجار التى حوله واسراب الطيور العائمة فوق مياه النهر ، فأعجبه هدوء المكان وعزلته ، وقرر ان يبنى فيه كوخا يعيش فيه مدى حياته بعيدا عن الناس وبمنأى عن الخطيئة

وقضى خمسة ايام فى بناء الكوخ واحاطته بسور شائك يحميه من هجمات الوحوش المفترسة .. ثم مضت أيامه صافية يسودها السلام وسكينة النفس ، بصحبة الطيور التى ألفته فلم تعد تجفل منه ، بل كانت حين يناديها تترك اغصان الشجر وتهبط اليه فيلاعبها ويهدهدها . وذات يوم عثر بقرد جريح فى الغابة ، فأخذه وعالجه وعوده ان يخدمه كالانسان

وانصرمت الشهور وهو قانع بحيـــاته الهادئة ، يرقب التماسيح تتصارع وتتقاتل حتى تفتك ببعضها البعض، والطيور تطارد الديدان وتنهمها ، والثعابين تطارد الطيور وتخنقهـا ، فيزداد يقينه بأن العدوان طبيعه فى الكائنات الحية جميعها ، وناموس لا مفر من حكمه النافذ .. ويزداد رضاه عن حياته الجديده ، التى لا تحمله غير وزر مشاهدة ذلك الصراع دون الاشتراك فيه بنصيب

***

• **ومضى** عام وبعض عام لم ير فيراتا خلالهامخلوقا ، حتى ضل احد صيادى الفيلة يوما طريقه فقادته المصادفة الى بقعة لمح منها رجلا ذا لحية بيضاء جالسا امام كوخ متواضع ، فوق راسه طيور آمنة وعند قدميه قرد وادع يكسر البندق ويطلق صيحات حادة ، ثم رفع الرجل المسن ذراعيه نحو ببغاء كانت فوق شجرة ، فهبطت من مكانها تصفق بأجنحتها واستراحت على كفه !

أخذ الصياد بمنظر ذلك الناسك الغريب ، وخيل اليه انه ذلك القديس الذى تنبأت بمجيئه الكتب المقدسة ، ووصفته بأن « الوحوش تخاطبه بلغـة البشر والازهار تنحنى تحت قدميه . يجمع النجوم فى قبضتـه ويطفىء القمر بنسمة من فمه ! » .. فترك الصياد مهمته وهرع يخبر بما راى . وفى اليوم التالى تجمع الناس على ضفة النهر الاخرى يرقبـون الناسك بفضول ، وفى كل ساعة كانت جموعهم تتكاثر وتتضاعف، حتى تعرف أحدهم على شخصية فيراتا ، الذى هجر بيته وثروته ومنصبه حبا فى العدالة ، والذى كانت انباؤه قدانقطعت عن بلاده منذ زمن .. فأذاع الخبر فى كل مكان ، ولم يلبث ان أبلغ النبـأ للملك الذى كان قد استوحش لفراق ناصحه المخلص الأمين ، فأمر باعداد مركب بسبعة اشرعة كى يستقله

الى أعالى النهر لملاقاة صفيه العزيز .. وحين بلغ مكانه فرشت له الابسطة على البر ، وسار الملك عليها الى كوخ الناسك ، الذى كان قد انقضى عليه عام ونصف عام لم يسمع خلالها صوت انسان ، فعراه الارتباك والتردد امام ضيفه العظيم واكتفى بأن قال :

ـ فليبارك الله مقدمك يا ملكى ، فأخذه الملك بين ذراعيه فى تأثر ، ثم قال :

ـ لقد تابعت باعجاب مسلكك منذ اخترت لنفسك طريق السعى نحو الكمال ، واليوم جئت أرى كيف تعيش بعيدا عن الدنيا والناس

فانحنى فيراتا وقال :

ـ لقد اخترت حياة العزلة عن النـاس كى أنأى بنفسى عن كل خطيئة .. فحكمة العزلة غير حكمة الدنيا ، وقانون التأمل غير قانون الحركة

ـ ولـكن الا تشتهى شـيئا منى أو من مملـكتى ؟ .. أو لا تريدنى أن أحمل رسالة الى ذويك ؟

ـ أشكرك يا مولاى . لقد نسيت أن لى بيتا كبيوت الناس ، واطفالا كسائر البشر .. فالرجل الذى لا وطن له يملك الدنيا بأسرها ، والرجل الذى بلا خطيئة له سكينة النفس .. وانا لا أمنية لى غير ان أظل بلا خطيئة على هذه الارض !

ـ اذن فالوداع ، واذكرنى فى صلواتك

ـ انى افكر فى الله ، ومن ثم فى جميـع مخلوقاته ، أنت وسواك ممن يعيشون على الأرض

وانحنى فيراتا لمولاه ، فعاد الملك الى سفينته التى مرقت به فى مجرى النهر نحو مقر ملكه

***

● **مضت** اشهر كثيرة لم يصافح فيها سمع فيراتا صوت

آدمى .. لكن صيته طار فى الخافقين ، فمجده الجميع وصار القضاة اذا نطقوا بحكم اردفوه بقولهم : « فليكن حكما عادلا كأحكام فيراتا الذى يعيش فى خوف الله ، والذى باحت له الحكمه بسرها ! » .. ثم حذا الكثيرون حذوه فصار الواحد منهم اذا احس بانه ارتكب ظلما فادحا او حاد عن الصراط القويم وزع ممتلكاته وهجر بيته واسرته ، ومضى يضرب فى الغابه كى يبنى فيها كوخا يعيش فيه مبتعدا مثل فيراتا !.. وحين كان يصادف ان يلتقى اثنان منهم فى الغابة وهما يبحثان عن فاكهة ياكلانها ، كانت أعينهما تبتسم فى مودة بغير ان يتبادلا كلمة واحدة ، خشية اقامة علاقات جديده مع بشر تلهيهم عن عبادة ربهم ! .. واطلق الناس على تلك الغابة اسم « دير التعبد » ، وحرموا على الصيادين ان يطأوها بأقدامهم كيلا يدنسوها بدماء ذبائحهم !

وذات صباح ، بينما كان فيراتا يجول فى الغابة عثر بجثة احد المتعبدين الذين نسجوا على منواله ، فأغمض عينى الميت وتلا صلاته عليه ، ثم حاول نقله الى خارج الغابة كى يقيم له مذبحا يحرق جثته عليه طبقا لطقوس دينه .. لكنه عجز عن حمله ، من فرط ما اضعفه غذاء الغابة ، فمضى الى أقرب قرية يلتمس منها المعونة . ولم يكد أهلها يلمحونه ويعرفونه حتى هرعوا لقطع الاشجار واقامة المذبح الذى اراده ، ثم حرق الجثة عليه .. بينما واصل هو تجواله فى القرية . وحينما كان طيفه يمر كانت النسوة ينحنين ، والاطفال يتوقفون ويتابعونه بعيونهم ، والرجال يخرجون من دورهم فيلثمون طرف ثوبه ويتقبلون بركته . اما هو فمضى بين الجماهير صامتا ، يبتسم غبطة واعتزازا بحب الناس وتقديرهم له . لكنه حين اقترب من البيت الاخير فى القرية لمح امرأة تطل منه عليه ، وفى عينيها نظرات الكراهية الشديدة .. فأجفل مذعورا وقد خيل اليه انه يرى عينى أخيه الجامدتين

يوم قتله ، هذا الى ان طول عهده بالوحدة وعدم الاحتكاك بالناس كان قد انساه الغضب والكراهية ، فأدهشه أن يجد نفسه فجأة هدفا لهما بغير مبرر ، حتى لقد حسب فى البداية انه قد أخطأ النظر ، لكنه تثبت من الامر وهو يزداد اقترابا من البيت . وكانت المرأة قد انسحبت الى الردهة الداخلية المعتمة ، حيث أحس فيراتا انها واقفة فى الظلام تحدجه بنظرات نارية كنظرات النمر المختبىء فى غاب كثيف.. فقال لنفسه : « ترى ما علة مقت هذه المرأة الشديد لى وانا لا أعرفها ؟ لا بد ان أجلو حقيقة الامر بنفسى » ويمم شطر الباب وطرقه عدة مرات ، ولبث ينتظر .. واخيرا أقبلت المرأة ، وسألته :

ـ ماذا تريد منى ؟

ـ جئت أقدم لك تحيتى واسألك لماذا تنظرين الى غاضبة، هل أسأت اليك فى شىء ، بغير أن أشعر ؟

فأجابته بابتسامة ساخرة : « هل أسأت الى ؟ كلا .. **كل ما فعلته ان بيتى كان زاخرا فجعلته فارغا ، وسلبتنى اعز ما أملك .. فاذهب ولا تدعنى ارى وجهك مرة اخرى ! »**

وكانت نظرات المرأة غريبة شاردة ، حتى لقد ظن فيراتا انها مخبولة ، فاستدار ليذهب قائلا لها :

ـ لست من تقصدين ، فأنا اعيش بعيدا عن الناس ، ولم أسىء لانسان .. لابد انك حسبتنى شخصا آخر !

لكن ثورة المرأة لاحقته غاضبة :

ـ بل أعرفك جيد المعرفة ، فانت فيراتا ، الذى اطلقوا عليك نعوت الفضيلة كلها ، والذى سيظل لسانى يلعنك حتى يوم الحساب .. تعال اذا اردت وانظر ما فعلت بى

وقادته الى غرفة فى البيت مظلمة ضيقة ، فى ركن منها حشية على الارض ، فوقها جسم بلا حراك .. انحنى عليه فيراتا ليتبينه ، فأجفل مذعورا !.. لقد وجد امامه جثة طفل

ميت ، تحدجه عيناه الجامدتان بمثل نظرة الاتهام التى رآها فى عينى اخيه القتيل ! وقبل ان يفيق من الصدمة صاحت المراة وهى تنتفض الما :

ـ انه ثالث ابنائى الذين قتلتهم ، أنت يا من يعتبرونك قديسا .. !

وقبل ان يقاطعها مستفسرا ومدافعا قادته الى ركن آخر من الغرفة قائلة :

ـ أترى هذا « النول » المهجور ؟ .. هنا كان زوجى « باراتيكا » يعكف طيلة يومه على نسج القماش . لقد كان اشهر من يتقن النسيج فى طول البلاد وعرضها ، وكان الناس يأتونه من شتى انحاء الاقليم ليلبى لهم طلباتهم ، فكان عمله هذا يكفل لنا عيشا رغدا . وكان باراتيكا رجلا نشيطا ذا خلق قويم ، يتجنب معاشرة اخوان السوء ولا يكاد يخرج من البيت ، وقد رزقت منه ثلاثة اطفال حرصنا على تربيتهم كى يشبوا على صورته طيبين امناء ، حتى سمع ذات يوم من صياد عابر ان رجلا قد ترك بيته وثروته وذهب ليتعبد لربه فى الغابة ، ومنذ ذلك اليوم تغيرت نفسية باراتيكا وصار دائم التفكير والعبوس والصمت .. **وذات ليلة صحوت من نومى فوجدته قد هجر البيت الى حيث أراد أن يعيش لربه فى الغابة ، ناسيا أن وجوده كان مصدر رزقنا الوحيد ! وبخروجه دخل الفقر البيت ، فاشتد عوزنا الى لقمة الخبز ، حتى مات اطفالى من الجوع واحدا بعد الآخر ، وكان آخرهم هذا الذى مات اليوم ، بسببك ايها الانانى ! فماذا انت قائل يوم الدينونة .. يوم تحاكم بتهمة تعذيب ثلاثة من الاطفال وتمزيق احشائهم جوعا ، فى الوقت الذى نأيت فيه بنفسك عن كل المتاعب ورحت تتسلى بنثر حبات القمح للعصافير ؟ .. وكيف ستبرر جريمتك ؟**

شحب وجه فيراتا وارتجفت شفتاه ، ثم قال :

ـ لم اكن أعلم ان مسلكى سوف يغرى احدا باتباعه

ــ اين اذن حكمتك يا من جهلت ما يدركه حتى الأطفال ؟ ان هناءك بعزلتك أورثنى مرارة ، وحياتك سلبت اطفالى حياتهم !

فكر فيراتا لحظة ، ثم انحنى للمرأة قائلا :

ــ قولك هو الحق .. وانى لأرى الآن ان الألم يعلم الانسان أكثر من كل حكمة الحكماء ، وان كل ما تعلمته انما علمنى اياه التعساء ، وكل ما رأيته انما ارتنى اياه نظرات الأسى والعذاب .. وانى لأشعر اننى مذنب معك ومع كثيرين من الذين اثرت فى حياتهم بغير أن اعرفهم ، **فان الشخص الذى لا يرتكب الذنب بنفسه يكون قدوة ومثالا لغيره ، بحيث يعد مسئولا عن النتائج التى تحل بالمنتهجين سبيله .. فاغفرى لى ، ولسوف اهجر الغابة واعود سيرتى الأولى كى يعود باراتيكا اليك وينجب لك احياء جددا ، بدل الذين فقدتهم !**

وانحنى للمراة مرة اخرى ، ولثم بشفتيه طرف ثوبها ، ثم مضى

ــ ٦ ــ

• قضى فيراتا ليلته الأخيرة فى كوخه ، يتأمل النجوم وهى تولد فى عتمة الليل ثم تنطفىء فى مطلع النهار ، وينادى الطيور فيطعمها ويربت عليها فى حنان .. ثم أخذ عصاه ومتاعه ، وكما قدم منذ سنوات ، عاد من جديد الى دنيا الناس !

ولم يكد يذاع النبأ بأن القديس قد ترك منفاه واخذ سمته الى المدينة ، حتى تقاطرت الجماهير من كل صوب ، يستخفها الفرح بأن اعينها سوف تكتحل برؤية ذاك الذى كان من العسير ان يرى .. وتقدم هو وئيد الخطى وسط خضم الجموع المتزاحمة ، يرد تحيتهم بوجه اراده ان يكون باسما ، ولكن لاول مرة استعصى عليه ان يسترد ابتسامته العذبة القديمة ، فظل فمه مقفلا برغمه ، وظلت نظرته صارمة !

وبلغ اخيرا فنـاء القصر الملكى .. وكان الملك وحيدا بعـد انفضاص مجلس الدولة ، فنهض لاستقباله وعانقه مرحبا . لكن هذا انحنى الى الأرض ولمس طرف ثوب الملك ، عـلامة الرجاء ، فبادره الملك من فوره :

– رجاؤك مجاب مقدما ، قبل ان تنطق به شفتاك .. فانه لشرف لى ان استطيع خدمة رجل العدالة والحكمة

– لا تسمنى حكيما .. فان الطريق التى سلكتها لم تكن الطريق القويمة . وها أنذا أعود عند قدميك مثلى يوم رجوتك أن تعفينى من منصبى .. لقد أردت أن أصير معصوما من كل خطأ او خطيئة ، لكنى سقطت فى الشرك الذى ينصبه الشيطان لسكان الأرض !

– يصعب على تصديقك .. اذ كيف امكنك ان تخطىء او تزل ، وانت تتعبد لله بعيدا عن الناس ؟

– لقد هربت من الخطيئة ، لكن اقدامنا مشدودة الى الأرض ، وتصرفاتنا خاضعة لناموس ازلى .. بل لقد أثمت سبعة أضعاف لأنى لجأت الى ربى وأبيت خدمة الناس . قنعت بأن احيا ، ولم امد يد المعونة لانسان .. والآن جئت أطلب ان تتاح لى فرصة خدمة بنى جلدتى من جديد

– لست افهمك يافيراتا .. اوضح لى رغبتك كى أجيبك اليها !

– لست أريد التصرف وفق ارادتى وهواى . لأن الرجل المتحرر من كل قيد ليس حرا ، وانما الحر من يخدم غيره ، ويضـحى بارادته من أجل آخر ، ويكرس قواه للعمل .. فاحرمنى من حريتى وارادتى ومرنى بما تريد يا مولاى !

– لست افهمك ايضا .. تقول ان الحر هو من يأتمر بغيره وليس من يأمر ؟

– ليس عند الله سيد ومسود ، وانما من يتضع امامه

يرتفع ، ومن يحسب انه بالحكمة ينجو من الشر ، يقع فى الخطيئة !

ـ تقصد ان ليس امام الله رفيع ووضيع ؟

ـ قد يبدو شخص امام الناس اسمى من شخص ، أما عند الله فالكل سواسية !

نظر الملك الى فيراتا نظرة طويلة صارمة ، وقد ثارت كبرياؤه فى اعماقه .. لكنه حين رأى وجه الناسك المغضن وشعره الأشيب ، دار بخلده ان الشيخوخة قد اضعفت عقله قبل الأوان ، فقال له ساخرا ليمتحنه :

ـ اذن فهل تقبل أن تكون حارسا لحظيرة الكلاب فى قصرى؟

انحنى فيراتا ولثم الارض علامة الرضا والشكران ! .. ومنذ ذلك اليوم صار القديس الذى مجده مواطنوه واطلقوا عليه كل نعوت الفضيلة والحكمة ، حارسا لحظيرة الكلاب فى قصر الملك ، يعيش مع الحيوانات والماشية .. فخجل منه ابناؤه وتبرأوا منه ، وتجنبوا طريق القصر كيلا يقع بصرهم عليه فى عمله الوضيع . واشاح الكهنة بوجوههم تنكرا له .. وصار الناس يتوقفون ذاهلين حين يمر امامهم يجر كلابه ، ذاك الذى كان يوما مستشار الدولة الأول هو الآن خادم ! ولكن لما كان هو يمضى فى طريقه غير ملتفت الى أحد ، فقد انتهى بهم الأمر الى ان صاروا يتفرقون من طريقه غير عابئين

واستمر فيراتا يؤدى عمله الوضيع من الصباح الى المساء ، فيطعم قطيعه ويكنس الحظيرة ويزيل الاقذار ..حتى احبته الكلاب أكثر من أى شخص آخر ، وقنع هو بعمله وصار به سعيدا .. فكان فمه المجعد الذى يضن بأن يفتحه كى يكلم البشر ، يجود للكلاب بابتسامة دائمة !

وانقضت عليه سنوات مفعمة بالهدوء والسلام وراحة البال ، مات خلالها الملك وجاء ملك آخر لا يعرفه ولا يحس

بوجوده ، بل لقد ضربه بعصاه يوما لأن كلبا من كلابه نبح أثناء مرور الملك !

وحين انتهت أيامه على الأرض ومات ، دفن فى المياه القذرة التى كان يلقى فيها الخدم ، وتخلف ابناؤه عن حضور دفنه ، وانف الكهنة جميعا من الصلاة على جثمانه .. فلم تعبأ بموته غير الكلاب ، التى استمرت تنبح نائحة يومين وليلتين بلا انقطاع ، ثم نسيته هى بدورها !

نسى الكل « فيراتا » .. فيراتا الذى لم تسجل الدولة اسمه فى سجل الأمراء ، ولا أشارت اليه فى كتاب الحكماء والمرسلين!

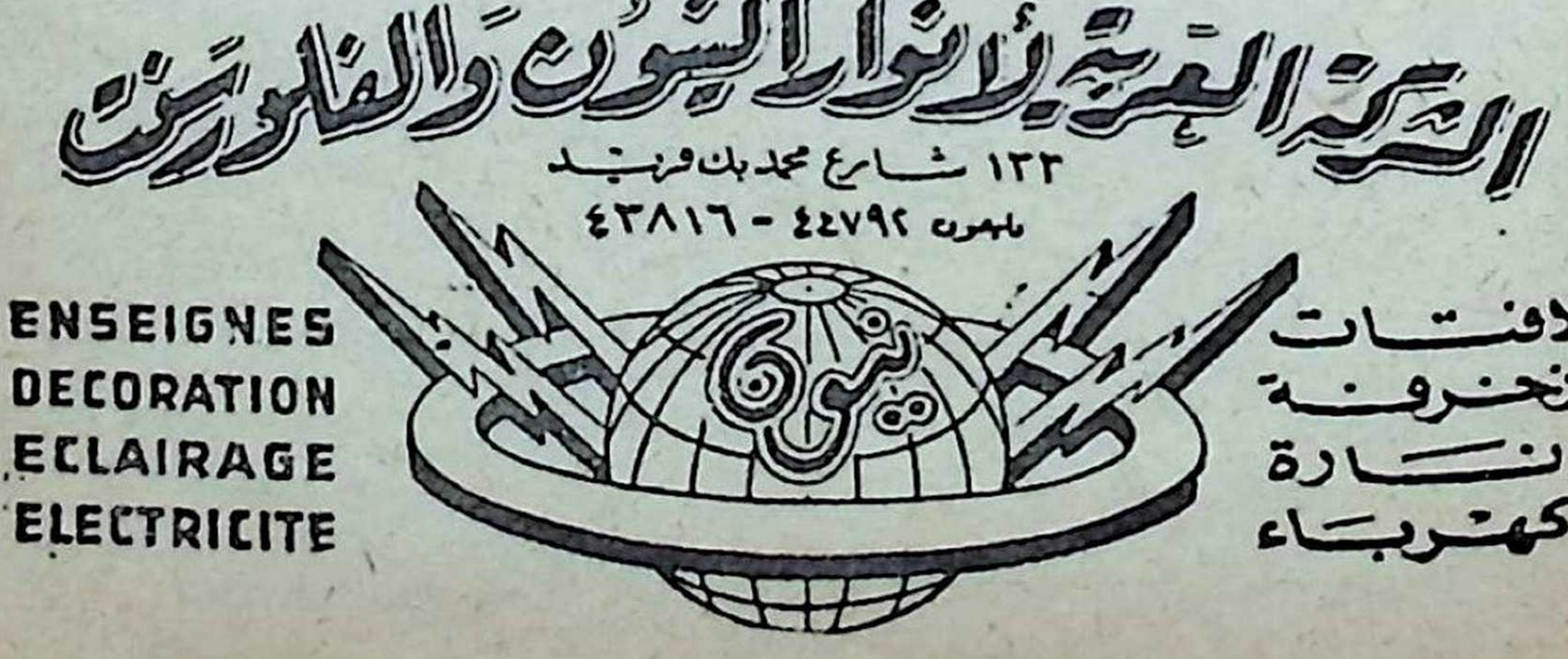

إقرأ معى :

كتاب الشهر

عزيزى القارىء ..

قدمت لك فى هذا الباب من قبل ، الكتب الشائقة التالية : آراء جريئة فى السياسة . كيف نجددوا فى الحياة . الحياة فى موسكو . مراهق . آلهة ومقابر وعلماء . الألمان ، شعبا وعباقرة . مستقبل زوجك فى يدك . التاريخ السرى للاحتلال البريطانى لمصر . أقنعة الحب السبعة . فى داخل افريقيا . من فرعون الى فاروق . كفاحى (لسومرست موم) . فى داخل مراكش . خفايا العلوم الفرعونية . قناة السويس . دزرائيلى . فى داخل الجزائر . مدينة تذل طاغية . عالم الغد . رابعة العدوية . ألبرت اينشتين . أعياد المصريين منذ قرن ونصف قرن

وهاك كتابا قيما عن عالم المستقبل :

١٨

العالم سنة ٢٠٠٠

للفيلسوف الإنجليزي الأشهر: برتراند رسل

تلخيص: محمد بدر الدين خليل

السؤال الذى يحير الانسانية جمعاء !

◆ ترى كيف يكون عالمنا هذا فى سنة ٢٠٠٠ ؟

لقد وافاك ((كتابى)) منذ شهور بسلسلة من النبوءات العلمية ، التى ترسم لك صورة عما يتوقعه العلم للحياة فى المستقبل .. وهو اليوم يقدم لك ناحية أخرى من صورة عالم الغد : ناحية نظام الدولة ، ونظام الاسرة والمجتمع ، فيلخص لك فيما يلى الكتاب الذى استعرض فيه الفيلسوف الانجليزى الكبير ((برتراند رسل)) ما سوف يصبح عليه الناس فى سنة ٢٠٠٠ ، على ضوء النظريات : كيف يكون نظام الدولة ؟.. والاسرة ؟.. والمجتمع ؟.. الخ

١ – الزواج ومصير الأسرة

◆ تغيرت العلاقات بين الرجال والنساء – خلال حياتى – اكثر مما تغيرت فى أية ثمانين سنة أخرى فى تاريخ البشرية . فعندما ولدت – فى عهد الملكة فيكتوريا – كانت النساء مرهفات الادراك والشعور ، فلم يكن للسادة أن يدخنوا فى حضور السيدات ، بل كان عليهم ان ينسحبوا الى حجرة خاصة بالتدخين ، يتبادلون فيها من الأحاديث ما كان يخدش أسماع «الأناث الرقيقات» ! .. وكان الآباء يحرصون على أن يوفروا لبناتهم حراسة تمنع اى تآلف غير مستحب بينهن وبين الرجال ! .. ومن جهة أخرى ، كان يفرض فى النساء – فيما عدا الملكة فيكتوريا – أن ينصرفن عن المسائل السياسية ، **وكان السبب فى هـذا – فى الواقـع – هو حب الذكور للسيطرة .. أما السبب الظاهرى فكان يتمثل فى أن ((السياسة))**

عمل قذر لا يليق بطهارة النساء !

ومن الطبيعى أنه كانت ثمة نسوة يتكسبن عيشهن من العمل فى مصانع الغزل والنسيج ، ومن الخدمة فى البيوت ، ولكن أمثالهن كن يعتبرن « شواذا » ، أو حالات استثنائية يؤسف لها ! .. وكان مبعث الأسى ان تنتمى المرأة الى طبقة الموكلين بالخدمة فى البيوت !

انصراف المرأة عن البيت وتربية الأطفال

• **على** ان الفارق بين الرجل والمرأة من حيث العمل أخذ يتضاءل بسرعة منذ الحرب العالمية الأولى ، فان الجيوش الكبيرة ـ التى امتازت بها الحروب الحديثة ـ أصبحت تعتمد الى حد كبير على عمل النسوة فى مصانع الذخيرة وفى الزراعة. والعادات التى تكتسب أثناء الحرب لا تتلاشى عند عودة السلم، ومن ثم فلا سبيل الى اقناع النساء ـ اللائى ألفن الاستقلال الاقتصادى والاجتماعى ـ بأن يرضخن لسلطان أزواجهن وآبائهن ! لذلك لم يعد حتما على الرجال أن يغيروا مجرى حديثهم أو لهجتهم اذا ماكان ثمة نساء فى مجلسهم .. كما أن الفارق بين ثياب الرجال وثياب النساء يبدو طفيفا فى بعض الأحيان !

وانى لأعتقد أن هذه التطورات والتغيرات ستطرد فى عين الاتجاه الذى تسير فيه ، بحيث يتضاءل عدد النساء المتفرغات للواجبات البيتية والزوجية ، وتتزايد الحاجة الى تدبير أمر رعاية الأطفال الصغار فى دور الحضانة . ومن المرتقب أن يتسع الدور الذى تقوم به المرأة فى ميادين السياسة والاعمال، بالتدريج

ومهما تكن رغباتنا ومشتهياتنا ، فاننى أرى حتما علينا ان

نتوقع أن تزداد نسبة الطلاق ، وان تختفى العقوبات الطفيفة التى تفرض الآن على الطرف المذنب من الزوجين . على أننى لا أرتقب تغيرات جوهرية ـ فى هذا المضمار ـ فى القريب العاجل .

انقراض الحب الشاعرى !

• **ولقد** بدات حرية المراة الحديثة تؤتى أول ثمرة ارتقب نضوجها خلال ماتبقى من هذا القرن .. وهذه الثمرة المرتقبة هى : انهيار « الحب الشاعرى » . ذلك لأن الحب الذى كان يصفه الشعراء والروائيون فى القرن الماضى ، انما كان وليد العقبات التى كان العرف الاجتماعى يخلق بعضها ، والتى كان ادراك بعض النساء للفضيلة ـ وشعورهن بها ـ يخلق بعضها الآخر !

والرجل اذا أحب امرأة وعز عليه ان ينالها ، تذكى الصعاب حماسة وحرارة وجده ، فيضفى على تلك المرأة ـ فى خياله ـ فضائل وكمالا وصفات غامضة ، ماكان ليصدقها هو نفسه لو أن الألفة كانت ميسورة بينه وبين تلك المشتهاة !

والرجل الحديث لا يتوقع فى أية امراة أن تكون من الطهر الخلقى والسمو الأدبى والمعنوى ، بالدرجة التى كانت عليها بطلات قصص القرن الماضى ، اللاتى كان جده واسلافه يعتبرونهن مثلا عليا للنساء ! .. لقد كان من المالوف اذ ذاك ان النساء الجديرات بالحب هن مخلوقات غامضة تتولاهن بواعث اسمى وأرفع من كل مايحرك الرجال ! وكان لكل من الرجل والمراة دور يلعبه فى الغزل ، دون أن يرغب أى منهما فى أن يدع بصيصا من الحقيقة ينفذ الى دياجير ظلمات النفس ! .. **ولكن هذه الحال تبدلت اليوم نتيجة اتصال الجنسين فى العمل اليومى ، ونتيجة الادراك الواقعى للطبيعة البشرية . وأعتقد أن هذا الاتجاه سيزداد اطرادا وشدة !**

واعتقادى ان هذا التغير مما يؤسف له ! .. فان المشاعر

السامية – التى كانت مألوفة فى الماضى – كانت صادقة الى حد كبير ، رغم اختلاطها ببعض الزيف والأباطيل !

الدولة تنتج رعايا ، ذوى صفات معينة حسب حاجاتها !

• **واذا** لم يكن من المرتقب للجنس البشرى أن يوفق الى القضاء على الحرب ، الا أننى أتنبأ له بأنه سيوفق الى تعديلات جوهرية جدا فى الصلات بين الرجال والنساء ، وفى نظم الأسرة .. وان كنت لا أرتقب هذه التعديلات قبل سنة ٢٠٠٠ على الأقل !

والذى أراه هو أن قدرا كبيرا من التعديلات فى علاقات الرجال والنساء ، سيرتبط ارتباطا كبيرا بالحروب ، اذ لن تظل الغاية الرئيسية للسياسة العامة للدولة هى مجرد الانتصار فى الحرب ، وانما لابد ان نرى العلم – الذى أذهل العالم بانتاج القنبلة الهيدروجينية ، ومن المحتمل أن يصل الى نتائج أكثر من هذا اذهالا – لابد أن نراه يتجه اتجاها قويا الى العلاقات البشرية ، والى مشكلات التناسل . ذلك لأن علم التناسليات لا يزال فى طفولته بالنسبة للانسان ، وان كان قد تقدم بالنسبة للحيوان ! .. ولنا أن نتوقع ان يوفق الناس الى اكتشاف طرق لتهجين النسل الآدمى لكى تتوفر له صفات معينة . **واذ ذاك سيغدو فى الامكان انجاب أناس لهم حصانة من البرد ، وأناس ذوى مناعة ضد الحرارة ، وأناس ذوى قوة عضلية خارقة ، وأناس ذوى قوة ذهنية فوق المستوى المألوف ! .. واذ ذاك سيكون فى مقدور أى ديكتاتور ذى عقلية علمية أن ينتج رعايا أقدر على الظفر فى الحروب من أى رعايا آخرين ينتجون بدون معونة للطبيعة !**

ولو أن هذه السياسة اتبعت فى دولة ، فان الرغبة فى تفادى الهزيمة فى الحروب ستدعو الدول الأخرى الى الاخذ بها ، كما أن معارضة انتهاجها ستعتبر نقصا فى الشعور الوطنى !

سوف تختار الدولة الرجال الذين يسمح لهم بالنسل !

• **والآن** تعالوا نتصور ما تؤدى اليه هذه التطورات :

من الجلى ان الرجال الذين سيسمح لهم بانجاب النسل – فى الجيل القادم – سيختارون اختيارا ، لبعض المواهب الفذة التى تتفاوت بتفاوت طبقات المواطنين . **وستختار الأغلبية منهم على أساس امتيازهم بسرعة وسهولة تصديق ما تمليه عليهم الحكومة . على أنه لابد من وجود أقلية تختارعلى أساس ما أوتيت من قدرة على السيطرة أو على الابتكار .. أو ما الى ذلك .**

وهناك صفات قد يشترط توفرها فيمن يسمح لهم بانجاب النسل ، كالصحة والقوة ، بيد أن هناك صفات أخرى ستعمل الدولة على توليدها فيهم بالنسبة التى تدعو اليها حاجتها . وقد يثبت العلم أنه بفضل « التلقيح الصناعى » لن تعود ثمة حاجة الى السماح لأكثر من خمسة فى المائة من الذكور بالتناسل ، فى حين يعقم الباقون كى لاينجبوا اطفالا !..

وكذلك قد لا يسمح لأكثر من ثلاثين فى المائة من النساء بالحمل والولادة !

الدولة تصبح الأسرة الوحيدة !

• **وهنا** منشأ التطور الذى ينتظر أن يصيب نظام الأسرة . فلسوف يكون من الطبيعى ان تقصر تربية الاطفال على مؤسسات خاصة ، بحيث يولون كل ولائهم للدولة وحدها ..

لا الولاء السياسى والقومى فحسب ، بل والولاء الذى يدين المرء به - فى وقتنا الراهن - الى الأسرة . **وبهذه الطريقة ، لن يكون من العسير انشـاء شعب بأكمله من المتعصبين المتهوسين الذين تقفل عقولهم دون كل شىء ، اللهم الا خدمة الدولة عن طريق كسب الانتصارات لها فى الحروب !**

اننى أدعو من كل قلبى أن يكون هذا مجرد حلم بغيض ، وليس نبوءة . اذ من الممكن تفادى هـذه النتيجة اذا وافق الجنس البشرى بأكمله على القضاء على الحروب .. وهذا الترافق الاجماعى هو أفضل الطرق لتفادى الحروب ، اذ أن الطريقتين الأخريين تتمثلان فى القضـاء على الحروب بحروب تقضى نهائيا على الجنس البشرى ، و .. القضاء على الحروب بحروب لا تبقى الا على الفلول غير المتحضرة من البشر ، بحكم كونها الفئة الوحيدة التى قد تنجو من «نعم» العلم و«خيراته»!

هل يتعارض تحرر المرأة مع الدين ؟

• بقى تطور آخر محتمل ، هو .. احتمال قيام نهضة دينية كبرى ! .. فمن التطورات التى ألمت بالعالم ، والتى قد تلم به - فيما بعد - كثير مما يلقى معارضة من القوانين الخلقية الدينية التقليدية . فلو قدر للايمان الدينى الصحيح أن يكتسب سلطانا يفوق سلطانه الحالى على تصرفات البشر وسلوكهم ، لما استمر تحرر المرأة قائما بأوضاعه الراهنة !

ولقد حظيت المرأة بدرجات من التحرر - فى بعض عهود الماضى - قد تفوق ما تحظى به اليوم ، ولكن التطور الذى أدى الى تحرر المرأة اليوم ، يبدو أعمق من ذلك الذى أدى الى تحررها فى تلك العهود . ذلك لأن تضاؤل عدد الأسرة - بفضل الاتجاه الى تحديد النسل وانتشار التعليم العام - ساعد على افساح الفرص للمرأة كى تعمل خارج البيت . وكذلك أدت ضرورات الحرب ، ثم ضرورات علاج ما خلفته ، من ضائقات

وويلات ، الى اشتداد الحاجة الى نزول المرأة الى ميدان العمل. كما ان انتشار الديموقراطية جعل اخضاع المرأة للرجل أمرا غير مستساغ !

وليس التطور الذى أدى الى الوضع الراهن ، مجرد تغير سطحى ، وانما هو تطور أصاب نسيج وكيان النظام الاقتصادى فى الحياة القومية . وهذا يحدونى الى الاعتقاد بأن التطور الذى طرأ على علاقات الرجال والنساء لن يكون مجرد تعديلات طارئة ، بل اننى أتوقع أن يظل التطور سائرا فى الاتجاه الذى انتهجه خلال الأربعين عاما الأخيرة !

٢ ـ الدولة ومصير الحريات

• **وليس** بين النبوءات الخاصة بما سيكون عليه العالم فى سنة ٢٠٠٠ ما يمكن ذكره فى ثقة واعتداد ، مثل التنبؤ بأن سلطات الدولة ستزداد ازديادا كبيرا ، فى جميع الدول التى لم يقم بها بعد حكم ديكتاتورى . **ولا ينال من صحة هذه النبوءة سوى أمر واحد : هو أن تقوم حرب عالمية تمحو المدنية القائمة محوا تاما !** .. ولكنى أوثر أن أستبعد قيام هذه الحرب ، لأمضى فى البحث

ولست أدرى ما اذا كان استفحال سلطان الدولة أمرا يدعو الى الاغتباط ، أو انه شر يدعو الى الاسى . بيد انه اتجاه لم يتسن تفاديه حتى الآن على اية حال : فقد نصح به الاشتراكيون ، وعارضه معارضوهم ، ولكنه تحقق ـ برغم هذه المعارضة ـ فى كل مكان ، حتى فى الولايات المتحدة الأمريكية ، التى تتمشدق بالفردية .

ولقد كانت وظيفة الدولة ـ فى القرن الثامن عشر ـ مقصورة فى الواقع على حماية حياة رعاياها وثرواتهم ، وعلى الاضطلاع بالحروب . ومع ذلك فان الدولة لم تكن موفقة فى القيام بهذه الوظائف المحدودة ، اذا نحن قسنا مقدرتها بمقاييس

أيامنا الحاضرة . على أن أى أمرىء من أبناء القرن الثامن عشر ـ حتى أقلهم شأنا ومقاما ـ يذعر اذا شهد القيود التى تفرضها الدولة على الحريات فى عصرنا الحديث ! .. ان نزلاء السجون ـ فى القرن الثامن عشر ـ يفزعون من تقييد الحرية فى ايامنا. فمع انهم كانوا يتساقطون صرعى للحميات والأوبئة ، الا انهم لم يكونوا يساقون تحت نظم عسكرية صارمة كتلك التى تخضع لها السجون الآن .

قصة ((ديكنز)) التى احدثت تطورا فى التشريع الاجتماعى !

• **ولقد** ترتبت التطورات التى ألمت بسلطان الدولة ، على عاملين رئيسيين ، احدهما : ضرورات الحرب ، وثانيهما : الشعور الانسانى . والعامل الأول هو الأهم والأقوى ، ولكن هذا لايقلل من أهمية العامل الثانى . ففى أوائل القرن التاسع عشر ، كانت ثمة ملاجىء للايتام ، ومع ذلك فان الأغلبية الساحقة من الأيتام كانوا يموتون !.. ولقد أدى الدافع الانسانى بانجلترا الى ان تضع نظاما للملاجىء ، يسلم بموجبه الأيتام الى بعض أرباب الحرف ليعلموهم حرفا يتكسبون منها عيشهم ، فكانوا يلقون من هؤلاء الصناع كل عنت وارهاق .. **الى ان صدرت قصة ((أوليفر تويست)) ، فكانت احتجاجا صارخا على هذا ((الأصلاح الانسانى)) أيقظ ضمير المجتمع ، فما لبث الناس ان فطنوا تدريجا الى ان الحرية قد تكون أمرا جميلا ، ولكن الحرية فى تعذيب المستضعفين ليست أمرا نبيلا ! .. وهكذا تدخل القانون ليحد من حرية أصحاب المصانع والمزارع فى استخدام الاحداث ، وليمنع استغلال الأطفال !**

وعلى هذا النسق اضطرت الدولة الى أن تتوسع فى بسط

سلطانها ، والى ان تفرض قيودا على الحريات - فى سبيل الصالح العام - استجابة للدافع الانسانى . بيد ان ضرورات الحروب كانت أكثر دفعا للدولة الى التوسع فى وظائفها . وهذا التوسع لا يزال فى نمو مطرد ، ولا سبيل الى التكهن بمداه أو الحد الذى ينتهى عنده . ففى الولايات المتحدة - مثلا - نجد ان ثمة مشروعات جدية لأعادة توزيع السكان فى المدن المزدحمة، بنقل عدد كبير منهم الى المناطق الريفية المحيطة بالمدن .. بل اننا لنجد ان سلطان الحكومة قد امتد الى العلم ، فأصبحت معظم الحكومات ترى ان من وظائفها ان تشرف على البحث العلمى ، الذى كان من قبل مجهودا فرديا . وأصبح العلماء يحاطون بجيوش من رجال الأمن والمخابرات ، للمحافظة على سرية مايصلون اليه من اكتشافات . بل غدا للحكومة ان تفرض قيودا على حرية العلماء الشخصية ، فتمنع الواحد منهم من ان ينتقل الى دولة اخرى ، خشية ان يبيع اسرار أبحاثه لحكومة اخرى قد تعاديها !

العلم والتعليم سوف يسخران

لاعداد الدول للحرب !

• ولو ان نذر الحرب ظلت قوية المفعول الى هذا الحد لوجب ان تتغير النظرة الى التعليم تدريجا ، لمراعاة أصول ومطالب « الدفاع القومى » . وهذا هو ما يحدث بالفعل فى الدول الديكتاتورية ، ولكن الظواهر تشير الى ان الدول الأخرى قد تأخذ بنفس السياسة !

وعلى هذا ، فسوف لا يتلقى الصغار - فى المستقبل - من النظريات والحقائق الا ما يثير فى نفوسهم الكراهية لأعداء بلادهم ، ولن يتعلموا من الحرف والفنون الا ما يمكنهم من ان

يصبحوا عناصر نافعة فى أوقات الحرب ! وانى لأدعو من صميم فؤادى ان تتجنب جميع الدول - لا بلادى وحدها - هذا الغدر بالحريات وبالحضارة القائمة عليها .

ولسوف يتغير كل هذا اذا امكن الوصول الى وسائل لتخفيف التوتر الدولى . فلو ان الدول الكبرى - فى الشرق والغرب - آمنت مخلصة بقيمة السلام ، لأمكن توجيه البراعة الهائلة التى اكتسبها الجنس البشرى فى العصر الحديث، الى ما يحقق الخير للبشرية ، بدلا من ان تتجه الى الدمار العلمى .

سر تدخل الحكومة فى الزراعة والصناعة

• **ولست** أحسب قط ان الدنيا تستطيع ان تعود - وقد بلغت ما بلغته من تقدم علمى ومن ازدحام بالسكان - الى الحريات المطلقة ، أى الى العهد الذى يكون لكل فرد فيه حريات كاملة ، لا سبيل الى تدخل الحكومة فيها . . ولكى اقرب هذه الحقيقة الى الأذهان، اختار مثلا يصور اهم ناحية من نواحى الموضوع ، وهى ناحية انتاج الأغذية : فعندما استقر المهاجرون الأوائل فى المناطق الغربية من وسط أمريكا الشمالية، لم يطمعوا من الحكومة فى شىء أكثر من أن تدعهم يستحوذون على الأراضى بأثمان بخسة . ومن جراء ذلك كان أولئك القوم من طلائع الداعين الى «الفردية» . ولقد كان ذلك منذ أكثر

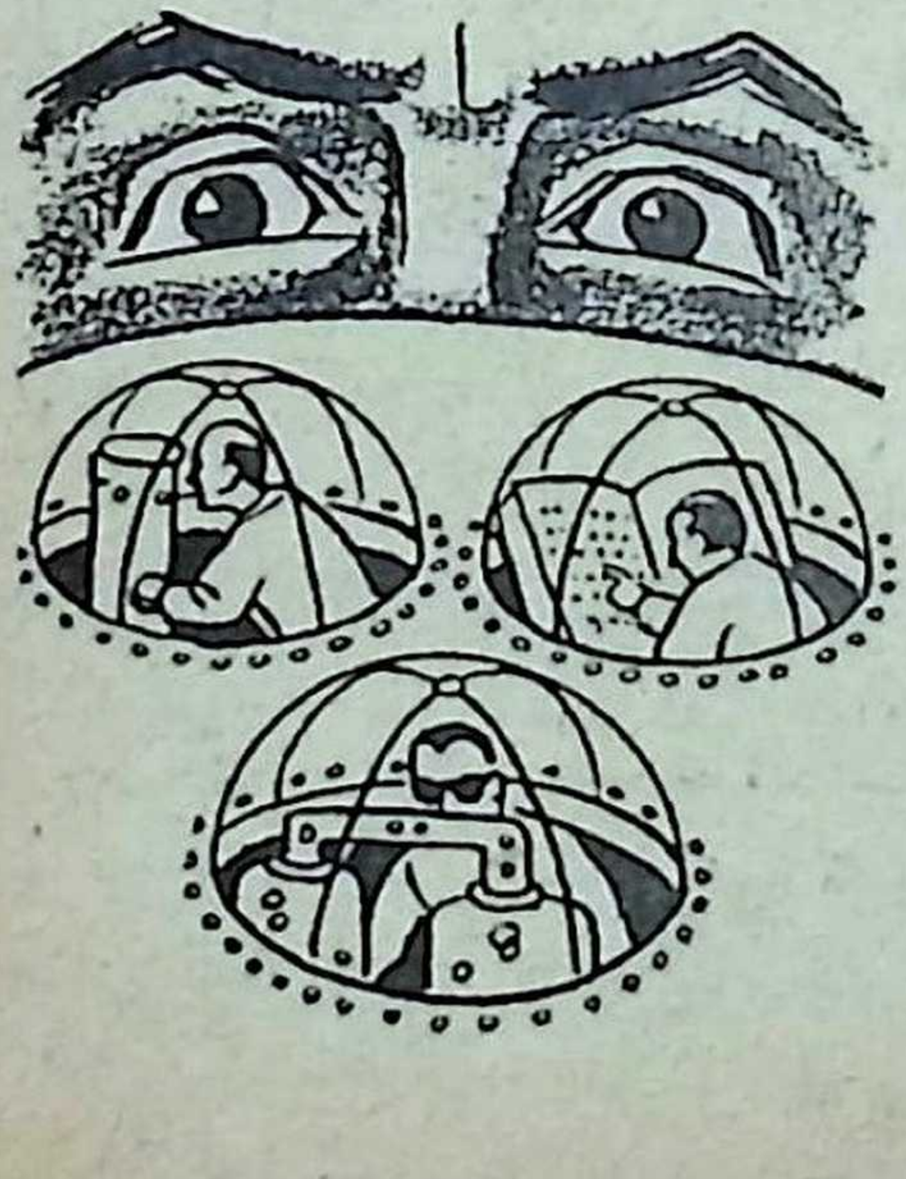

من قرن ، أما اليوم ، فلا توجد سوى أصقاع قليلة يستطيع الناس ان يستحوذوا فيهـا على اراض للزراعة ، يستغلونها بالطرق الفردية .. فان استغلال المناطق الجديدة ــ فى عصرنا الحالى ــ يتطلب مشروعات وأساليب تستدعى نفقات باهظة ، لا يمكن للفرد ان يضطلع بها وحده ، بل لا بد له فيها من معونة الحكومة .. وحتى اذا تيسرت أسباب الزراعـة للفرد ، فانه لا يستطيع أن يستغنى عن عون الحكومة لمقاومة عوامل التعرية والآفات التى تذهب بخصب الأرض وقدرتها الانتاجية. وتدل كل الشواهد على أن هـذا العون سيظـل فى اطراد ، بازدياد التقدم العلمى والوسائل العلمية فى الزراعة .

أما فى ميدان الصناعة ، فمن المحتمل ان يكون اشراف الدولة على الأفراد أكثر مما هو فى الزراعة . والواقع أن الدولة تباشر الآن اشرافا كبيرا على ما يجوز انتاجه، ومن المحتمل ان تمارس اشرافا مطردا على وسائل وأساليب الانتـاج كذلك ، لتفادى تبديد المواد الأولية والجهد فى غير طائل .

واذا تحقق الازدياد المرتقب فى الافادة من الطاقة الذرية ، فان هذه الطاقة ستستمد من مراكز ومحطـات لا بد من ان تكون ملكا للدولة وتحت اشراف الحكومة . ومن الطبيعى ان المسيطرين على هذه المحطات قد يغدون فى مراكز تمكنهم من ان يفرضوا سلطانهم وان يهددوا كل معارضة أو تمرد عليهم ، ومن ثم فلا بد من قيود وضمانات قوية محكمة ، اذا أريد أن لا يساء استغلال هذه المراكز

الحرب والجريمة .. من حاجات البشر !

• ترى ما نصيب الحياة الفكرية فى عالم هـذا شأنه ؟ .. ما مصير الفن ، والأدب ، والفلسفة ، والفكر الحر ؟ .. هـل يقدر لها البقاء والحياة ؟

ان كثيرا من جلائل الآراء والأفكار والتحف الفنية ــ التى

ظهرت فى الماضى ـ جاءت نتيجة تفكير حر لأفراد كانوا مستقلين فى معاشهم عن الحكومة . ولقد كان بعضهم يبدون كالحمقى المتعطلين الذين لا يؤدون أعمالا نافعة للدولة ، ولكن الدولة لم تكن تملك أن تضطرهم الى التحول عن التفكير والبحث والفن ، ليمارسوا أعمالا أخرى . **أما اليوم ، فان الحكومة ـ فى بعض الدول ـ تملك ان تقول لأمثال هؤلاء المفكرين والفنانين ، اذا رأت أن انتاجهم نوع من الخطل والهذيان : « ان مثل هذا العبث لا يفيد الدولة ، فانصرف عنه الى عمل نافع مثمر »!..**

ومثل هذا التدخل ـ الذى لا يلمس الآن الا فى الدول الديكتاتورية ـ قد يشمل الدول عامة ، نتيجة التقدم الذى يسير تنظيم الدولة فى اتجاهه . ولو تم هذا ، فسوف يكون من سوء حظ البشرية .

ان التنظيم العلمى ضرورة لا غنى عنها ، ولكن الاسراف فيه من شأنه ان يحرم العالم من كل ما هو طيب . وانى لآمل أن يؤتى المشرفون على الدولة ـ فى المستقبل ـ من الحكمة مايمكنهم من ان يستثنوا العباقرة والموهوبين من تعنت هذا التنظيم .

وليس العباقرة والموهوبون وحدهم هم الذين يحتاجون الى حرية الفرص ، بل ان الناس جميعا بحاجة الى ذلك . ولكنهم يحتاجون اليه فى أوقات عارضة ، فى حين ان العباقرة والموهوبين يحتاجون اليه فى جميع الاوقات . **وبوجه عام ، نستطيع أن نقول انه ليس فى وسع أى نظام للمجتمع ان يظفر بالرضى الدائم ، ما لم يوفر الفرصة الكافية لحب المغامرة ، والرغبة فى التخلص من التواتر الرتيب فى الحياة . فاذا لم يوفر هذه الفرص ، فان الطبيعة البشرية ستدفع الناس الى ان يسعوا اليها بالعنف والطرق غير المشروعة . وهذا من الأسباب التى تدعو الى الأمل فى أن الدولة ـ فى القرن القادم ـ ستتفادى الجمود الذى لا يطاق فى نظمها .**

ان اول ما ينبغي للدولة ان توفره ، هو الأمن والطمأنينة

والقوت . على ان توفر هـذه لا يلبث ان يدع السبيل لظهور حاجات بشرية أخرى ، تتطلب الاشبـاع .. ومن الغريب ان الحرب والجريمة من هذه الحاجات ، ولكن من الممكن تفاديهما اذا أفسحت الفرص للمغامرة والمشروعات الفردية !

المساواة فى التعليم .. خطأ !

• **فاذا** انتقلنا – بعد هذا – الى ميدان التربية والتعليم ، وجدنا ان الظواهر توحى بأنه من المحتمل ان يتحسن التعليم فى مراحله الأولية ، بينما ينحط فى مراحله العليـا .. أى انه من المحتمل ان يرفع مستوى القدر الأدنى من التعليم ، الذى يشتد الالحاح على اتاحته لجميع سكان الدولة . ولكنى أخشى أن يـكون من المحتمـل كذلك أن لا يتسنى لزبدة خـريجى الجامعات ، أن يصلوا الى المستوى العالى الذى يتوفر لهم اليوم . وهذا التطور بشقيه – السىء والطيب – يترتب على الاتجاه الفج الذى نطبق به نظرية الديموقراطية .

لقد دأبت الديموقراطية – منذ أيام ((روسو)) – على الزعم بان كل الناس يولدون متساوين . ولكن كل مدرس – فى أية مدرسة – يدرك تماما ان هذا غير صحيح ، اذا طبقنـاه على الطاقة الفكرية أو المقدرة العقلية للأفراد . فان المقدرة العقلية للأفراد تختلف منذ مولدهم ، بل ان الأغلبيـة تولد دون ان يكون لها موهبة فذة بفطرتها . ومن ثم فان الأغلبيـة تعرقل كل نفع مرجو للأقلية الموهوبة ، حيثما تطبق نظرية المسـاواة الطبيعية ! .. وهو أمر ملحوظ فى كل دولة ، حتى الدول التى تزعم انها أرقى معاقل الديموقراطية ، فلسنا نجد من المدرسين من يفصل اذكى تلاميذه عن بقية زملائه .. ولسنا نجد المدرسة التى تخصص فصولا للموهوبين من تلامذتهـا دون سواهم . ولو حدث ذلك ، لتعالت الأصوات بالمعارضة ، باعتبار ان هذا التصرف ينافى الديموقراطية !

ولعل أحدا لم يعن العناية العملية الحقة بالنتائج التى تترتب على جمع التلاميذ المتبايني الذكاء فى فصل واحد . ذلك لأن البطء الذى يسير به المدرس فى شرحه لدروسه — كى يمكن أقل التلاميذ ذكاء ، من ان يفهم — قد يضجر الأذكياء من التلاميذ ، أو يضطرهم الى ان يكرهوا الدروس !

ومن الناحية التربوية ، نجد ان الفصل بين الاذكياء والأغبياء من التلاميذ ، أمر مستحب . وفى حيلولة الديموقراطية دون ذلك ، تبديد للخامات الطيبة . واخشى ما أخشاه ، ان يستفحل هذا الشر فى المستقبل القريب . فهو جزء من الاتجاه العام الى الاقتصاد فى مراعاة « الفرد » .. وهى ظاهرة من الظواهر التى تصحب المغالاة فى الديموقراطية

الثقافة العامة وقاء من النعرات والتعصب

• **واسوف** تزداد الحاجة الى التعليم الفنى زيادة واسعة الاطراد فى المستقبل . ففى القرن الثامن عشر كان « المتعلم المثقف » هو الذى يتقن اللغات القديمة — كاللاتينية واليونانية — ويلم بآدابها ، ويحيط بالتاريخ القديم . ولم يكن من المفروض فيه ان يعرف شيئا من العلوم أو الاقتصاد . على ان الدراسات « النافعة » اخذت بعد ذلك تجتل شطرا مطرد الازدياد من المناهج التعليمية ، وهو اتجاه لا يزال مستمرا ، وليس فيه ما يدعو الى الأسف . **على اننى أتمنى لو استمر الاعتراف قائما بأن التعليم الثقافى — من آداب وتاريخ .. الخ — يجب ان يشغل قسطا غير ضئيل من المناهج .**

وليست مهمة الجمع بين التفقه الفنى وبين حد أدنى من الثقافة ، بالأمر الهين . فان كل تقدم هندسى مثلا يباعد الشقة بين المرء وبين حدود المعرفة فى اية ناحية من نواحيها ، وبالتالى فانه لا يدع فسحة من الوقت للتعليم العام الذى يزود المرء بقدر من الثقافة العامة . فالذى يدرس التاريخ الاقتصادى

ـ مثلا ـ لا يتذكر ، عند ذكر أية حقبة من التاريخ ، سوى الأوضاع الاقتصادية التى رافقت هـذه الحقبة ، فهو لا يذكر الأحداث الأدبية التى تمت خلالها .. والطـالب الذى يدرس أى علم غير التاريخ ، قد يظل جاهلا بالماضى جهلا تاما ، فهو لا ينظر الى القرون المظلمـة ـ التى سبقت عصر النهضة ـ الا بازدراء .

والذين يقدر لهم مثل هذا التعليم الضيق الآفاق ،لايحتمل أن يكونوا على بينة ومعرفة بما هو خارج نطاق مادة تخصصهم .. وهو ما يرى اليوم فى بعض الدول الديكتاتورية ، وان كان ضغط التنـافس العسكرى والصنـاعى ، كفيلا بأن ينشره فى جميع الدول على السواء !

واهمية العلوم الثقافية بالنسبة الى التعليم الفنى الهندسى هى انها تسـاعد على ان تقترن المعرفة بما يمـكن ان نسميه حكمة .. فالرجل الذى لم يؤت من المعرفة سوى ما هو فنى بحت لايحتمل ان ينظر الى الأمور ، كل بالنسبة لقيمته وقدره ، بل ان دراسته الفنية لا تلبث ان تقوم سياجا بينه وبين بقية أبواب المعرفة .. والـكسب الذى قد يجنى من وراء الثقافة المتسعة النطاق ليس بالذى يسهل ايضـاحه بالـكلمات ، ولا بالذى يتيسر قياسه بالمقاييس التى اصطلح عليها فى الامتحانات . ولكن هذا لا يقلل من قيمته ، بل انه يضاعفها .. فان الثقافة الواسعة المرامى وقاء من المشروعات الجنونية ، ومن النعرات القائمة على ضيق الأفق . وهى تيسر للمندفعين وراء السبق الصناعى والعسكرى أسباب تذكر الغايات النهائية التى وجد الانسان من أجلها ، وتبصرهم بمـا يترتب على العنف الناجم عن قصر النظر الى الأمور .

ولمثل هـذه الأسباب ، آمل ان لا يجمح التعليم فى تيار السبق الى المهارة الفنية .. اى أن يقتضب من الوقت المخصص للتعليم الفنى ، كى نفسح الفرصة للثقافة العامة .

حرية العلم تعانى محن التدخل السياسى

• **وللتعليم** ـ بوجه عام ـ هدفان رئيسيان : أولهما تنمية مقررات معينة ـ من قراءة وكتابة .. الخ ـ وثانيهما اعداد الناس ليكونوا مواطنين صالحين . ولكن السعى الى الهدف الثانى يختلف باختلاف أنواع نظم الحكم فى الدول . ففى بعض البلاد الديكتاتورية ، أو التى تدين بمذهب سياسى معين ، نجد أن التعليم يتجه الى حشو عقول النشء برسالة النظام القائم ، وبالمعلومات الزائفة عن الدول التى لا تدين بهذا النظام . فلا يلبث الأطفال أن يغدوا عبيدا ـ من الناحية العقلية ـ اذ لا سبيل لهم الى أية موارد للمعرفة ، سوى تلك التى يساقون اليها . **وهذا العيب نراه فى الولايات المتحدة الأمريكية ، كما نراه فى روسيا ، على السواء . فكما ان النشء ـ فى روسيا ـ يلقنون كراهية كل نظام غير شيوعى ، نجد ان النشء فى أمريكا لا يلقنون أى شىء يحبب اليهم روسيا ، مهما يكن هذا الشىء حقيقيا وصحيحا !**

ويعتبر التعليم فى كثير من الدول وسيلة من وسائل الاعداد للحرب ، وفى سبيل هذه الغاية تروح الحقيقة ضحية ! ولست أزعم اننى مطمئن الى المستقبل فى هذا الصدد . ولكنى أخشى أن تتسرب الحرارة الى الحرب الباردة القائمة ، وأن نجد انفسنا مسوقين ـ خطوة فخطوة ـ الى تعصب مطرد النمو . وهذا خطر حقيقى يخلق بكل شعب محب للحرية أن يتخذ حذره منه .

ولو أننا ألقينا نظرة على الجامعات فى الدول عامة ، لرأينا أن الحرية العلمية تعرضت لكثير من المحن .. **حتى فى الولايات المتحدة الامريكية نجد أن الاساتذة الجامعيين الذين يعربون عن آراء لا تروق للسلطات ، يتعرضون لكثير من المتاعب . وفى انجلترا نجد ان الالتحاق بجامعتى اوكسفورد وكمبريدج لم**

يكن – الى حوالى سبعين عاما مضت – مباحا ان لا ينتمون للكنيسة الانجليزية . ولا خوف هناك من أن يبعث هذا التقليد المتعصب من جديد ، بيد ان ثمة خطرا من ان يخلفه تقليد سياسى ، فلا يسمح بالالتحاق بالجامعات الكبرى لمن يعتنقون مذاهب سياسية معينة ! .. فان نذر هذا الخطر تستفحل شيئا فشيئا !

ومن السهل التمويه على أمة بأكملها ، فيما يتعلق بالوقائع الهامة والحقائق . ومن هنا يتسنى للحاكم المتهور ان يقود بلاده الى الدمار . وقد حدث هذا مرتين فى المانيا ، خلال القرن الحالى . ومن هنا نستطيع ان نلمس خطورة التعليم كسلاح للتغرير بالشعب

التعليم الفنى يبدأ بعد السادسة عشرة

• **والذى** أرجوه ، هو أن يتسنى فى السنوات الباقية من القرن الحالى ، رفع سن التعليم العام الى السادسة عشرة ، ثم يقسم الطلبة – بعد هذه السن – وفقا لكفاءاتهم واستعداداتهم ، فيوجه بعضهم الى متابعة الدراسات العلمية ، ويوجه الآخرون الى مختلف فروع التعليم والمران الفنيين .

وينبغى ألا يخطر بالبال أن أيا من هؤلاء الفريقين أرقى من الآخر فى شىء . وانى لأتمنى أن يسعى الذين يوجهون الى التعليم الفنى بعد السادسة عشرة ، الى ان يقرنوا ذلك بأكبر قسط من الثقافة العامة يستطيعون تحصيله . وجدير بنا الا ننسى أن الهدف الأسمى التعليم – فى الدولة الديموقراطية – هو اعداد الناس لكى يكونوا مواطنين صالحين . وهذا الاعداد لا يمكن ان يقتصر على التعليم الفنى وحده .

وفى عالم يمزقه التعصب الجنونى للمذاهب ، تستطيع الحرية المكفولة للتعليم ان تفعل الكثير لتحفظ لأى شعب هدوءه ، كى يتبين الحقائق على علاتها . فليس ثمة مهمة – ملقاة على عاتق التعليم – تعادل اعداد الناس لهذه الغاية !

الشقيقات الثلاث

أولى المسرحيات الاجتماعية للكاتب الروسى الشهير:
انطون تشيكوف

تلخيص : محمد كامل

السـعادة .. والأمـل !

◆ لاتكاد تجد فى اللغة لفظا مائعا غير محدد المعالم ، ككلمتى « السعادة » ، و « الامل » .. لقد كان أمل « اندريى » - فى هذه المسرحية التى تعتبر نموذجا لفن « تشيكوف » فى الكتابة للمسرح - هو أن يصبح أستاذا فى الجامعة ، فاذا به يقنع بأن يصير سكرتيرا للمجلس القروى ، وزوجا ، وأبا .. فهل تراه سعد بذلك ؟ . ولقد كان أمل « ماشا » أن تتزوج وتستقر فى بيت خاص بها ، فلما قدر لها ذلك ، اذا نفسها تهفو الى العبث مع ضابط !.. فهل تراها سعدت بعشيقها أكثر مما سعدت بزوجها ؟.. وكان أمل « ايرينا » يتمثل فى كلمات ثلاث : « الرحيل الى موسكو » .. ولكنها انتهت الى قبول الزواج من « بارون » .. وهكذا شأن كل شخصية من شخصيات هذه المسرحية التى حلل « تشيكوف » فيها المجتمع أبدع تحليل .. ان بوسعك أن تجد فى كل شخصية عالما قائمـا بذاته ، تستهويك دراسته .. وبوسعك كذلك أن تقرأ المسرحية على انها مجرد انتاج أدبى فنى .. للتسلية :

فاختر لنفسك ما يحلو :..

- ١ -

◆ ترفع الستار عن غرفة استقبال فى منزل آل «بروزوروف»، تظهر خلالهـا غرفة أخرى كبيرة بهـا مائدة معدة للغداء .. فالوقت ظهر ، والجو صحو . وترى « أولجـا » - فى زى معلمات المدارس الثانوية القاتم - عاكفة على تصحيح الكراسات، وبيدها كتاب ، تنظر فيه .. بينما وقفت « ايرينـا » فى زى أبيض ، مستغرقة فى التفكير

أولجا (وقد قامت عن الكراسات) : فى هذا اليوم بالذات ، يكون قد انقضى عام كامل على وفاة أبينـا .. الخامس من مايو ! .. وكان الجو باردا ، والجليد يتساقط . كنت أشعر اننى لن أقوى على العيش خلال هذه المحنـة ، وكنت أنت - يا ايرينا - مستلقية وكأنك ميتة . أما الآن - وقد انقضى هذا العام - فاننا نستطيع ان نفكر فى الأمر بهدوء أكثر، وها أنت ذي فى رداء أبيض ، وقد أشرق وجهك وتألق . **(تدق الساعة**

الثانية عشرة) وكانت الساعة تدق لحظتئذ ايضا **(يسود الصمت لحظة)** . انى لأذكر الرصاصات التى أطلقوها فى الجبانة ساعة حملهم النعش ، اذ انه كان قائد لواء بالجيش

ايرينا : لماذا تفكرين فى ذلك ؟

يظهر البارون توسنباخ ، وتشيبوتيكين ، وسوليونى ، بالقرب من المائدة فى الحجرة الأخرى .

أولجا : ان اليوم دافىء ، ونستطيع ان نفتح النوافذ ، لكن الأكمام لم تتفتح بعد . لقد تسلم ابى لواءه منذ أحد عشر عاما ، فجاء بنا من موسكو الى هنا ، وانى لأذكر موسكو فى ذلك الوقت .. فى أول مايو .. كانت الزهور متفتحة ، والجو دافئا ، والشمس تغمر كل شىء ! لقد انقضى على ذلك أحد عشر عاما ، ولكنى أذكر كل شىء وكأنه كان بالأمس .. ما أشد حنينى الى موسكو !

تشيبوتيكين : يا للشيطان !

توسنباخ : طبعا .. لا معنى لكل ذلك .

((ماشا)) ، منكبة على كتابها ، تصفر بفمها لحنا موسيقيا

اولجا : كفى صفيرا يا ماشا .. كيف تستطيعين ذلك ؟ **(تستأنف حديثها السابق)** اننى أعكف على الكراسات حتى مغرب الشمس ، فأشعر بالسأم ، كما لو كنت عجوزا .. لقد ظللت طيلة السنوات الأربع ـ التى قضيتها فى المدرسة الثانوية ـ وأنا أشعر بقواى وشبابى تتبخر يوما بعد يوم ، فليس هناك ما ينمو سوى رغبة واحدة ..

ايرينا : تلك هى أن تعودى الى موسكو .. ان تبيعى البيت ، أن تضعى نهاية لكل شىء هنا ، ثم ترحلى الى موسكو ..

أولجا : نعم ! الى موسكو ، وبسرعة . **(يضحك تشيبوتيكين وتوسنباخ)**

ايرينا : قد يصبح « أندريى » أستاذا ، وهو لن يقيم هنا على أى حال . ولكن « ماشا » المسكينة هى العائق الوحيد !

أولجا : تستطيع « ماشا » أن تأتى كل عام فتقضى الصيف كله فى موسكو

ايرينا : لعل الله يدبر الأمر (**تتطلع خارج النافذة**) ما أجمل الجو اليوم ، انى لأشعر بغبطة ، فقد تذكرت هذا الصباح ان اليوم هو ذكرى تعميدى ، فامتلأت نفسى بذكريات طفولتى ، حين كانت أمى معنا .

أولجا : انك تبدين جميلة اليوم ، وكذلك ماشا .. ولعل « اندريى » كذلك أيضا ، الا أن جسمه يتضخم بدرجة لا تناسبه . أما أنا فقد كبرت ونحل عودى .. ولعل ذلك لأن التلميذات يضايقننى .. لكنى اليوم حرة ، اذ أمكث فى بيتى .. ولا أعانى الصداع .. انى لأشعر كما لو اننى أصغر سنا مما كنت بالأمس . انى لم أزل فى العشرين .. هذا حسن ، كل شىء حسن .. كله من عند الله ، على انه يخيل الى اننى لو كنت قد تزوجت ، وأصبحت أقضى فى البيت طوال اليوم ، لكان هذا افضل .. لا ريب انى كنت سأغرم بزوجى .

وهنا يغادر توسنباخ غرفة المائدة وقد أضجره حديث سوليونى ، فيعلن الى الجالسات فى غرفة الجلوس ان «فيرشينين» ــ القائد الجديد للكتيبة التى كان ينتمى اليها ــ سيفد اليوم زائرا

توسنباخ : انه فى الأربعين .. فى الخامسة والأربعين على الأكثر ، وهو يبدو لطيفا ، وان كان كثير الكلام .. كل شىء فيه مقبول ، اللهم الا انه متزوج ، وله حماة وابنتان .. ثم ان زوجته الثانية تبدو مخبولة بعض الشىء ، وهى تتحدث فى أسلوب رفيع ، وتشغف بابداء الآراء الفلسفية ، كما انها كثيرا ما تحاول الانتحار ، لمجرد مضايقة زوجها ، كما يبدو !

سوليونى (مقبلا ومعه تشيبوتيكين الطبيب بالجيش) : اننى استطيع ان أحمل نصف قنطار بيد واحدة أما باليدين فانى أستطيع أن أحمل قنطارا ونصف قنطار ، أو قنطارا وثلاثة أرباع .. ومن هذا نستنتج ان الرجلين مجتمعين يوازيان ـ فى القوة ـ ثلاثة رجال وربما أكثر ..

ايرينا (تحادث تشيبوتيكين) : خبرنى ياعزيزى تشيبوتيكين .. لماذا أنا جد سعيدة اليوم ؟ لقد استيقظت اليوم وبنفسى شعور بأن الدنيا متفتحة لى ، واعترتنى رغبة اكيدة فى أن أمارس أى عمل ، فكم هو جميل أن يكون للانسان عمل ما .. أواه ، يا عزيزى .. لأن يكون المرء حصانا متواضعا عاملا خير من أن يكون شابة تصحو فى الثانية عشرة ، ثم تنفق ساعتين فى الزينة ! اذا لم استيقظ ـ منذ اليوم ـ مبكرة يا عزيزى ايفان رمانيتش ، فلا تعتبرنى صديقة لك بعد الآن !

اولجا : لقد عودنا ابونا على الاستيقاظ فى السابعة صباحا . وان « ايرينا » لتصحو فى السابعة ثم تظل مستلقية فى فراشها الى التاسعة على الأقل ، وهى مستغرقة فى تفكير عميق .. ثم انها تتخذ مظهرا جديا

ايرينا : ولماذا تستغربين منى الجد ؟ .. اننى لست صغيرة ، فأنا فى العشرين !

توسنباخ : انى لأفهم معنى الشوق الى العمل يا عزيزتى ، لأننى لم أعمل شيئا فى حياتى قط ! .. لقد ولدت فى أسرة غنية ، منعما ، مدللا ، ولقد شاء أهلى ان يحمونى من العمل ، ولكن .. لا ، لقد حان الوقت ليعمل كل فرد .. سأعمل ، وفى مدى خمسة وعشرين أو ثلاثين عاما ، ستجدين كل انسان يعمل .. كل واحد !

تشيبوتيكين : ولكنى لن أعمل !

سوليونى : انك لن تكون هنا بعد خمسة وعشرين عاما .

ففى مدى سنتين أو ثلاث اما ان تعتزل الحياة ، واما أن افقد اتزانى وأفرغ رصاصة فى رأسك .. يا ملاكى !

يسمع دق على الأرض ، منبعث من الطابق الأسفل ، فيسرع تشيبوتيكين بالخروج . ويخمن سوليونى انه ذاهب لاحضار هدية يقدمها لايرينا . وتهم ماشا بالخروج من الغرفة فتعجب أولجا مما يبدو عليها من عدم انتعاش ، وتسألها عن وجهتها ، فتقول : « الى البيت » .

توسنباخ : أتنصرفين قبل أن نحتفل بذكرى تعميد اختك ؟ !

ماشا : لا بأس .. فسأعود فى المساء . الى اللقاء ياحبيبتى **(تقبل ايرينا)** وانى لأتمنى لك السعادة ، لقد اعتدنا فى الأيام السابقة ـ أثناء حياة أبينا ـ أن يكون بيننا فى حفلات التعميد ثلاثون أو أربعون ضابطا .. لقد كانت حفلاتنا صاخبة ، أما اليوم ، فليس بيننا الا رجل ونصف .. وكأننا فى صحراء .. انى منصرفة .. اننى اشعر اليوم بضيق ، فلا تؤاخذونى على ما أقول **(تضحك فيختلط ضحكها بالدموع)** الى اللقاء يا حبيبتى ، انى منصرفة ..

أولجا (من خلال دموع) : انى أفهم شعورك يا ما شا .

وتدخل « انفيسا » ـ المربية العجوز ـ حاملة فطيرة ، يتقدمها « فيرابونت » معلنا ان الفطيرة هدية من « ميخائيل ايفانتش بروتوبوبوف » . فتتقبلها شاكرة .. واذ تقول « ماشا » انها لا تحب هذا «البروتوبوبوف» ، تنكر « ايرينا » انها دعته الى الحفلة . ويدخل تشيبوتيكين فيقدم هديته . ولا يلبث الكولونيل فيرشينين ان يقبل

فيرشينين (لماشا وايرينا) : يشرفنى أن أقدم نفسى اليكما ، فأنا أدعى فيرشينين .. وانى لجد مغتبط بأن ادخل داركما أخيرا . لكم كبرتما ! ولكننى اتذكر انكن شقيقات ثلاث .. أجل ،

اتذكر انه كان للكولونيل «روزوروف» ثلاث بنات صغيرات !

توسنباخ : لقد جاء « الكسندر اجناتيفيتش فيرشينين » من موسكو

فيرشينين : نعم .. لقد جئت من موسكو . وكان أبوكما قائد فرقة هناك ، وكنت أنا قائدا فى نفس اللواء

ايرينا : اذن فأنت قادم من موسكو ! أولجا ، أولجا ! .. تعالى يا أولجا !.. (**تقبل هذه من حجرة المائدة**) ان الكولونيل فيرشينين قادم من موسكو

فيرشينين : اذن فأنت أولجا سيرجيفنا ، الكبرى .. وانت ايرينا ، الصغرى ..

ماشا : آه .. انى لأذكر الآن ، لقد كانوا يطلقون عليك « الضابط المريض بالحب ! » .. أوه ، لكم تقدمت بك السن ! (**يتضاحكون جميعا من خلال الدموع**) .. ولكن الشيب لم يدب بعد فى شعرك !

فيرشينين : نعم .. كنت يومئذ شابا غارقا فى الحب .. أما الآن ، فها أنذا فى الثالثة والأربعين

ايرينا : لقد انقضى أحد عشر عاما منذ تركنا موسكو ، ولكن .. لماذا تبكين ياماشا ؟ (**من خلال دموعها**) يبدو اننى سأبكى أنا الأخرى .

وتستأثر ذكريات موسكو بكل حديثهم ، حتى تذكر الشقيقات الثلاث أمهن ، فيقول تشيبوتيكين : « انى لأذكرها جيدا ، لقد كانت امرأة لطيفة ! »

ماشا : عجبا .. لقد بدأت أنسى صورة وجهها .. كذلك نحن ، لن يذكرنا الناس .. سينسوننا بدورنا !

فيرشينين : نعم .. ذلك هو مصيرنا ، ولا مهرب لنا منه . ان ما نراه اليوم خطيرا ، عظيم القيمة والاهمية ، لن يلبث ان

يصبح منسيا أو عديم القيمة يوما ! .. وهذه الحياة التى نراها اليوم شاقة ومتعبة ، ألا يحتمل أن يأتى اليوم الذى يحن فيه الناس ويتطلعون الى مثلها ؟ .. فنحن اليوم لا نحتفظ بحجرات التعذيب ، أو سواها من مساوىء الماضى ، ومع ذلك فنحن ننظر الى ايام ذلك الماضى باعتبارها اسعد من ايامنا هذه !

توسنباخ : على أى حال ، فان هذه التعاسة التى نراها بيننا الآن انما تدل على ان المجتمع قد وصل الى مستوى أخلاقى معين .. **(يسمع صوت قيثارة من وراء الستار)**

ايرينا : ذلكم هو اندريى ، شقيقنا .. انه الشخص الوحيد المتعلم فى الاسرة ، ونتوقع أن يصبح أستاذا .. لقد كان أبى رجلا عسكريا ، أما أخى فقد ضرب فى الثقافة بنصيب وافر

أولجا : وانه ـ فيما أرى ـ غارق فى حب فتاة تسكن هنا تدعى ناتاشا .. وهى غالبا ستأتى اليوم لزيارتنا .

ماشا : أوه ! يالأسلوب تلك الفتاة فى الملبس ، انها لتثير الضحك ! .. لا أظنه يحبها حقا ، انما هو يعبث ولا ريب .. فما أظن ذوقه ينحط الى هذه الدرجة ، ولست أرضى له مثل هذا الانحطاط

وتدعو ((ايرينا)) اخاها ((اندريى)) وتقدمه الى الموجودين ، فيحييهم ويهم بالانصراف

أولجا : أندريى ، لا تذهب ! .. **(موجهة الحديث للحضور)** هذه عادته .. دائما يحاول الاعتزال !

(وتمسك ايرينا وماشا به ، كل من ذراع)

ماشا : يا له من أحمق .. لقد كان الكسندر فيرشينين يدعى ((المريض بالحب)) دون أن يغضب .. وانى لأود أن أدعوك كذلك !

أندريى : كفى .. كفى .. انى لم انم الليلة الماضية ، ولست

فى حال طيبة اليوم .. لقد ظللت اقرأ حتى الرابعة صباحا ، ثم حاولت النوم دون جدوى ، حتى أشرقت الشمس . اننى أبغى ان اترجم - اثناء مقامى هنا ، فى الصيف - كتابا عن الانجليزية ..

فيرشينين : اذن فانت تقرأ الانجليزية ؟ !

اندريى : نعم ، لقد أراد لنا أبونا أن نكون مثقفين ، فنحن جميعا - بفضله - نعرف الانجليزية والفرنسية والالمانية ، بل ان ايرينا تعرف الايطالية كذلك ! اننا بفضله نعرف أشياء كثيرة تعد ترفا لا لزوم له !

فيرشينين : تعرفون أشياء كثيرة لا لزوم لها ؟ ! .. منذا الذى يقول أن الثقافة ترف لا لزوم له؟.. أنكم قد تموتون دون أن يشعر أحد بوجودكم حقا ، ولكن من المؤكد انكم ستخلفون اثرا ما ، ولو ضئيلا . ثم سيأتى بعدكم ستة مثقفون .. يتبعهم اثنا عشر .. حتى يتحقق الحلم المنشود **(يضحكون)**

ماشا (تخلع قبعتها) : سأبقى للغداء .. ان هذا الحديث يجب أن يدون **(يخرج اندريى دون أن يفطن اليه أحد)**

توسنباخ : تقول ان الحياة بعد عدة سنوات ستكون جميلة ؟ .. ان هذا صحيح ، ولكن علينا - لنساهم فى هذا التقدم - أن نعمل

توسنباخ : انى كثيرا ما احدث نفسى : لماذا لا يبدأ الانسان حياته من جديد - بشرط ان لا يكررها ؟ .. انى متزوج ولى بنتان ، فلو كان لى أن أعيد حياتى لما تزوجت قط ..لا..لا..

ويقبل ((كوليجين)) - زوج ماشا - فى ثياب اساتذة المدرسة العليا ، فيهنىء ((ايرينا)) بعيد تعميدها ويقدم اليها نسخة من كتاب وضعه عن تاريخ المدرسة فى خمسين عاما . واذ تنبهه ((ايرينا)) الى انها قرأته من قبل ، يقدم النسخة

الى ((فيرشينين)) ، الذى كان يجهل ان اليوم عيد ((ايرينا)). ولا يلبث الاخير أن ينصرف مع أولجا الى غرفة المائدة .. ثم يلحق بهما الآخرون، ولا يبقى فى غرفة الاستقبال سوى ((ايرينا)) و ((توسنباخ))

ايرينا : ان ((ماشا)) اليوم فى حالة معنوية سيئة . لقد تزوجت فى الثامنة عشرة ، وكانت تظن زوجها أمهر الناس . اما الآن فقد تغير الموقف .. انه أطيب الناس ، وليس أمهرهم!

توسنباخ : دعينا من الناس .. ليجلس الآخرون الى المائدة ، وأبق انا معك هنا . فيم تفكرين ؟.. انك فى العشرين ، وأنا لم أبلغ الثلاثين بعد .. كم من السنين باقية أمامنا ؟.. سلسلة طويلة من الايام مليئة بحبى لك .. ان بى ميلا شديدا الى الحياة .. الى النضال .. الى العمل .. ولقد اندمج كل هذا الميل الشديد ـ فى نفسى ـ مع حبى لك . فلست أرى الحياة جميلة الا لأننى أراها من خلال جمالك !

ايرينا : تقول ان الحياة جميلة ؟.. فما رأيك فى ان مظهرها فقط هو الجميل ؟.. انها ليست جميلة بالنسبة لنا ، نحن الشقيقات الثلاث . اننى اذرف الدمع .. وان كان ينبغى ألا أفعل (**تجفف دموعها**) ان سبب ضيقنا الليلة هو اننا يجب أن نعمل ولكننا لانعرف كيف نعمل . لقد ولدنا فى بيئة تحتقر العمل !

تدخل ناتاشا فى استحياء فتحيى ايرينا وتهنئها ... ويدخلون جميعا الى غرفة المائدة ثم يقبل الملازمان ((فيدوتيك)) و ((رودى)) حاملين سلة كبيرة من الزهور ، فيستقبلان بعاصفة من الصخب ، ثم يشتركان فى الحديث المرح .

كوليجين : غريب أن يجتمع ثلاثة عشر شخصا حول مائدة!.. ألا تؤمنون بالخرافات ؟ اذا اجتمع مثل هذا العدد حول مائدة

فلا بد أن بينهم عاشقا ! .. لا ، لست انت يا تشيبوتيكين على اى حال .

تشيبوتيكين : انى خاطىء مسن !.. ولكنى لا أدرى لماذا تغير لون ناتاشا !

تتعالى الضحكات وتجرى ناتاشا الى غرفة الاستقبال فيتبعها أندريى .

ناتاشا : انى جد خجلى .. لا أدرى ما أمرهم ، ولا أمر نفسى .. انهم يسخرون منى . اعرف انه لا يليق بى ان أغادر المائدة هكذا ، ولكنى لم استطع .. **(تخفى وجهها بكفيها)**

أندريى : لا تضايقى نفسك يافتاتى .. اؤكد لك انهم انما يمزحون فحسب . ياحبيبتى العزيزة .. انهم طيبون ، وهم يحبونك ويحبوننى . تعالى الى هنا .. الى النافذة .. هنا لا يستطيع أحد أن يرانا ..

(ينظر حوله)

ناتاشا : انى لم آلف المجتمعات !

أندريى : أوه يا حبيبتى الفاتنة، صدقينى.. صدقينى .. انى لأشعر بالسعادة ، وأن روحى لمفعمة بالحب .. كونى زوجتى ! انى أحبك ! أحبك كما لم أحب أحدا قط !

يقبلها .. وفى تلك اللحظة يدخل ضابطان ، فيقفان مشدوهين .. ويسدل الستار

- ٢ -

• وترفع ستار الفصل الثانى عن نفس الحجرة .. الساعة الثامنة مساء . وناتاشا – التى تزوجت من أندريى – تقبل حاملة شمعة ، فتقف لدى باب حجرة زوجها ، وتناديه . ويظهر « اندريى » فتعرب له عن قلقها لتأخر شقيقتيه « ايرينا » و «أولجا» فى المجيىء ، وقد بقى ثلاثة ارباع الساعة على موعد حضور الضيوف ، الذين دعوا الى حفلة راقصة بمناسبة العيد

ناتاشا : لقد استيقظ طفلنا هذا الصباح فتطلع الى مبتسما .. وضحك حين قلت له : « صباح الخير يا حبيبى » .. ان الاطفال يفهمون كلامنا .. مسكين « بوبيك » ، انه مصاب ببرد ، وأخشى أن تكون غرفته رطبة .. يجب ان ننقله الى غرفة دافئة حتى يتحسن الجو .. الى غرفة ايرينا مثلا ، فالشمس تدخلها كل يوم . ولا بأس من ان تشترك ايرينا مع أولجا فى غرفتها ، فهى تقضى النهار فى عملها ، ولا تمكث فى البيت الا فترة الليل .. لماذا انت صامت .. الا تتكلم ؟

أندريى : كنت أفكر .. وليس لدى ما أقوله .

وتغادر المكان اذ يفد الساعى « فيرابونت » حاملا رسالة وكتابا من رئيس المجلس القروى ، فيطلع « أندريى » عليهما .

اندريى (يتأمل الكتاب) : ان غدا هو يوم الجمعة ، ومع ذلك فسوف أحضر وامارس العمل ، اذ ان جو البيت يبعث الضجر .. ما أعجب خداع الحياة للمرء !.. اننى سكرتير المجلس القروى ، و «بروتوبوبوف» هو رئيسه .. وأقصى ما أستطيع أن اطمع فيه هو أن أصبح عضوا فى المجلس ، فى حين اننى اتمثل نفسى فى المنام – فى كل ليلة – استاذا بجامعة موسكو .. رجلا ممتازا تفخر به روسيا بأسرها !

فيرابونت : اننى لا أسمع بجلاء ياسيدى ..

أندريى : اذن فلا جدوى من الحديث اليك . ولكن .. لا بد لى من ان أتحدث الى أحد ما . ان زوجتى لاتستطيع ان تفهمنى ، أما أخواتى فانى أخشاهن ، وأخشى ان يسخرن منى .. ان الانسان فى موسكو لا يعرف أحدا ولا يعرفه أحد ، لكنه لا يشعر بالوحدة مطلقا . أما هنا فانت دائما تستشعر الغربة والوحشة ، بالرغم من انك تعرف الجميع والجميع يعرفونك !

ويصرف الساعى ، ثم ينصرف الى غرفته .. ولا تلبث ان تدخل ((ماشا)) و ((فيرشينين)) .

ماشا : انى لأحس بالتعاسة .. لقد تزوجت وانا فى الثامنة عشرة ، وكنت أخاف زوجى ، اذ انه مدرس ، ولم أكن قد غادرت المدرسة الا منذ أمد يسير .. كنت أظنه أمهر الناس وأكثرهم ثقافة .. اما الآن ، فقد تغير كل شىء . اننى أكره المدنيين جميعا لأنهم ـ فى الغالب ـ سيؤو الخلق والتربية!

فيرشينين : وما الفرق بين مدنى وعسكرى ؟ كلهم سواء .. خبرينى : لماذا يشعر المرء بسأم من كل شىء ؟ من نفسه .. من حياته .. من زوجته .. من أولاده .. من كل شىء ؟ لقد بلغ بى الضيق أشده اليوم ، فان ابنتى اليوم متوعكة ، وقد اعتاد ضميرى أن يؤنبنى كلما ألم مرض باحدى بناتى ، لأننى نكبتهن بمثل هذه الأم ، زوجتى ! آه لو رأيتها اليوم .. هذه المخلوقة التعسة ! لقد بدأنا نتشاجر منذ السابعة صباحا حتى التاسعة ، فلم ينقذنى منها الا أن خرجت وصفقت الباب ورائى . انى لا أتكلم عنها امام احد سواك ... لا أحد (**يقبل يدها**) انك امرأة غريبة .. لطيفة .. مرغوبة . انى أحبك . أحب عينيك .. واحب حركاتك ، وأحلم بها فى ليالى !

ماشا (ضاحكة فى هدوء) : لا أدرى لماذا أضحك عندما

تحدثنى هكذا .. أرجوك ، لا تفعل هذا ثانية ... **(فى صوت خفيض)** أو فلتفعل ، فانى لا أعير الأمر اهتماما !

توسنباخ (يتحدث الى ايرينا وهما يدخلان الغرفة) : لا شيىء غير هذا الصبر يجعلنى احتملك .. اننى أذهب كل يوم اليك فى مكتب التلغراف ، فأرافقك الى البيت ، وسأداوم على ذلك دون ما سأم ، عشرة أعوام .. بل عشرين ! ولن أيأس حتى تطردينى . **(يلاحظان وجود ماشا وفيرشينين فيغيران الحديث ، ويذكر توسنباخ انه رأى اندريى يقامر فى النادى ، وقد خسر مائتى روبل)**

ماشا : لا فائدة من اصلاح أمره فقد اعتاد اللعب والخسارة باستمرار .. المهم أن لا تعرف ناتاشا بالأمر ، ولو انى أظنها لا تعبأ كثيرا ! يا ألهى ، متى نرحل الى موسكو .. انى أحلم بها كل ليلة .. لقد بقى على رحيلنا نصف سنة تماما !

يدخل تشيبوتيكين ، وقد لاح انه لم يغادر فراشه الا لساعته ، بعد القيلولة . فيجلس ويتناول صحيفة .. فتتساءل ماشا : « ذلكم هو .. هل دفع الايجار ؟ »

ايرينا (تضحك) : لا .. لم يدفع «كوبك» واحدا منذ ثمانية أشهر .. انه ولا بد قد نسى !

ثم يأتى الضابطان « فيدوتيك » و « رودى » ، ويصل بعدهما « سوليونى » ، فينصرف القوم الى الحديث والسمر

ناتاشا (تحدث سوليونى) : بعض الأطفال مرهفو الفهم . لقد قلت لطفلى فى هذا الصباح : « صباح الخير يابوبيك » .. فنظر الى بطريقة خاصة . أتظن انى أقول لك هذا لأنى أمه ؟ لا .. بل أؤكد لك انه طفل غير عادى

سوليونى : لوكان هذا الطفل طفلى ، لشويته ثم أكلته !

ناتاشا (تغطى وجهها بيديها) : وقح .. غير مهذب !

ماشا : لايزال الجو باردا ، ولكن الصيف قريب ، وسنرحل الى موسكو .. يبدو ان السعداء لا يشعرون بتغير الفصول، فلو اننى عشت فى موسكو لتساوى عندى الصيف والشتاء !

فيرشينين : انما الأمر نسبى !.. انك لن تشعرى بموسكو عندما تعيشين فيها !

(تدخل انفيسيا فتقدم خطابا الى فيرشينين)

فيرشينين : أف لهذه المضايقات .. انه خطاب من ابنتى .. لن أستطيع تناول الشاى ، وسأنصرف حالا ..

ماشا : ماذا هناك ؟ أهو سر ؟

فيرشينين (فى صوت خفيض) : لقد تسممت زوجتى ثانية **(يقبل يدها)** ياعزيزتى الشهية !.. سأتسلل لفورى !

وتجلس ماشا الى المائدة وقد اعتراها ضيق شديد ، ظهر فى تصرفاتها مع الجميع . اذ تلاحظ ناتاشا غضبها تنصرف لتعنى بطفلها

توسنباخ (محدثا سوليونى) : ألاحظ أنك دائما تهاجمنى كلما كنا فى صحبة .. فما أمرك معى ؟

سوليونى : لا تؤاخذنى ، فلست أدرى لماذا أشعر بارتباك كلماوجدت فى صحبة ، فأقول وأفعل اشياءغريبة .. دعنانشرب **(يشربان)** فليس ثمة ما أحمله لك فى نفسى أيها البارون !

ولا يلبث أن يدخل أندريى فيسود الجميع جو من المرح ، ويغنون ويرقصون تأهبا لحفلة الكارنفال . ثم يجلس توسنباخ الى البيانو فيعزف قطعة من موسيقى الفالس

ماشا (ترقص الفالس بمفردها) : لقد ثمل البارون .. لقد سكر البارون

وتدخل ناتاشا فتهمس فى أذن تشيبوتيكين شيئا ، ثم تخرج .. فينهض مستأذنا فى الانصراف ، ويحذو ((توسنباخ)) حذوه

ايرينا : ولكن .. ما أمر حفلة الكارنفال ؟

اندريى (فى حيرة وارتباك) : ان المدعوين لن يأتوا ، اذ ان بوبيك ليس على ما يرام !

ماشا : ليس على ما يرام ؟ ! **(محدثة ايرينا)** ليس بوبيك بالمريض ، لكنها حيلة منها .. تلك الوضيعة المستهجنة ! .. **(مخاطبة الباقين)** لنخرج الى الطريق .. فهناك نستطيع الحديث ، وسنقرر ما ينبغى عمله !

وينصرفون .. فلا يلبث اندريى ان يدخل مرتديا قبعة ومعطفا ، مصطحبا تشيبوتيكين

تشيبوتيكين : اننى لم اتزوج ، لان الحياة مرت بى كلمح البرق ، ولانى كنت احب أمك ، بينما كانت هى متزوجة !

اندريى : جدير بالمرء ان لايتزوج .. فان الزواج امر متعب

تشيبوتيكين : وما قولك فى الوحدة يا فتى ؟ انه لشىء فظيع ان يشعر الانسان بالوحدة يا ولدى العزيز .. لماذا تتعجل الخروج ؟

اندريى : أخشى أن تستوقفنى زوجتى .. على انى لن أقامر الليلة ، وانما سأجلس متفرجا فحسب .. فلست على مايرام

وينصرفان فى هدوء من خلال باب المطبخ ، ثم تسمع دقات جرس وضحكات . وتأتى ايرينا فتخبرها انفيسا بان المدعوين لحفلة ((الكارنفال)) قد وصلوا فى ملابس تنكرية ، فتطلب اليها ايرينا أن تذهب فتخبرهم أن لا أحد فى البيت ، وتصرفهم ! .. وتبقى ايرينا وحدها ، يعتورها اضطراب . ثم يدخل سوليونى فى تردد ، فتخبره بان الجميع قد انصرفوا

سوليونى : انى لم اتصرف بمهارة حتى الان . ولكنك لست مثل باقى الناس ، فانك طاهرة بريئة ، تستطيعين رؤية الحقيقة . انت الوحيدة التى تفهميننى .. اننى احبك ، . احبك من الاعماق .. حبا مطلقا . لا استطيع العيش بدونك !

ايرينا (ببرود) : اسعدت مساء .. يجب ان تنصرف !

سوليونى : لأول مرة أبوح بالحب لك ، وانى لأشعر كما لو اننى اعيش فوق كوكب آخر غير الارض . على اننى لا أحب ان يكون لى منافسون .. أقسم بكل مقدس اننى ساقتل اى منافس .. أيتها المخلوقة الجذابة !

وتفد ناتاشا ، فينصرف سوليونى . واذ ذاك تقول لايرينا ((انك متعبة يا عزيزتى الصغيرة .. يجب أن تنامى مبكرة !))

ايرينا : هل بوبيك نائم ؟

ناتاشا : انه نائم ، لكنه نوم مضطرب . وبالمناسبة ياعزيزتى ، لقد كنت أريد ان احدثك ، ولكن الفرصة لم تسنح لى .. اظن أن غرفة بوبيك باردة ورطبة ، فى حين أن غرفتك أكثر ملاءمة له . فعليك يا حبيبتى أن تنتقلى مؤقتا الى غرفة أولجا **(يدق الجرس)** انها أولجا .. لقد تأخرت . **(وتدخل الخادمة فتسر شيئا الى ناتاشا)** بروتوبوبوف ؟! .. لقد جاء بروتوبوبوف ، وانه ليسالنى أن أخرج معه ! **(تضحك)** يالغرابة الرجال ! .. **(للخادمة)** قولى له انى آتية حالا . **(يدق الجرس)** أتسمعين .. لا بد أنها أولجا هذه المرة

تخرج وتسبقها الخادمة ، بينما تبقى ايرينا مستغرقة فى تفكير . تدخل أولجا ومعها كوليجين وفيرشينين اللذين يعجبان اذ لا يجدان حفلة ولا أناسا متنكرين ! فتقول لهما ايرينا : ((لقد انصرف الجميع))

كوليجين : وهل انصرفت ماشا ايضا ؟ .. ولماذا ينتظر بروتوبوبوف بزحافته أمام البيت ؟ ومن ينتظر ؟

ايرينا : لا تسلنى شيئا .. اننى جد متعبة !

اولجا : وانا جد متعبة .. أوه ، يا لراسى ! .. لقد خسر اندريى مائتى روبل فى اللعب امس .. والمدينة كلها تتحدث عن الأمر !

فيرشينين : هيا ياكوليجين لنبحث عن مكان نقضى به الليل، فلست مستطيعا أن أبقى بالبيت .. ان زوجتى تنوى ارهابى، حتى لقد اوشكت الليلة على تسميم نفسها من أجل هذه الغاية!

(تبقى اولجا وايرينا فى الحجرة)

اولجا : اواه ، يا للصداع الذى يتملكنى ! .. لقد خسر اندريى فى القمار والمدينة كلها تتحدث عنه !

تنصرف ، فتبقى ايرينا وحدها .. يسمع صوت آلة موسيقية ينبعث من الطريق ، وغناء المربية صادرا من مخدع الطفل . ثم تدخل ناتاشا فى ملابس من الفراء

ناتاشا : سأعود فى مدى نصف ساعة ، فلن يطول طريقنا **(تذهب)**

ايرينا (وقد صارت وحيدة) : أواه ، متى نذهب الى موسكو ؟ .. الى موسكو ! **(وتسدل الستار)**

- ٣ -

. **ترفع** ستار الفصل الثالث عن غرفة نوم ايرينا وأولجا .. ويسمع رنين جرس منبعث من الخارج ، معلنا عن حريق بالمدينة . الجميع مستيقظون رغم ان الساعة تعدت الثانية صباحا .. « ماشا » مستلقية على أريكة فى لباسها الاسود المعتاد . تدخل « أولجا » مع « أنفيسا » فتنتقى من دولاب الملابس ما تساهم به فى مساعدة من أصابهم الحريق ومنهم سيدات عائلة « كوتولين » اللائى لذن بالطابق الأسفل من البيت

أولجا : مساكين أفراد عائلة « فيرشينين » . لقد اخافهم اقتراب الحريق من بيتهم ، فليبيتوا معنا الليلة . ومسكين « فيدوتيك » ، لقد احترق كل ما يملك .. **(يدخل فيرابونت فتعطيه الملابس)** أوه لكم أنا متعبة !

تدخل ناتاشا مضطربة فتثور لمرأى انفيسا جالسة بالغرفة

ناتاشا : أتجرؤين على الجلوس أمامى ؟ أخرجى من هنـا ! (**مخاطبة الباقيـات**) ان البيت ملىء باللاجئين ، والانفلونزا منتشرة ، وكم أخشى ان تمتد عدواها الى « بوبيك » أو الطفلة صوفى .. مسكينة ماشا ، انها نائمة فهى مرهقة !

أولجا : لقد كنت قاسية مع انفيسا ، ونحن لا نحتمل مثل هذه القسوة

ناتاشا : ما كان لها ان تجلس هنا ، فهى فلاحـة ، ولا نفع يرجى منها .. انكن تفسدن الناس بهذا التدليل !

اولجا : قد تكون تربيتنا غريبة ، ولكنا لا نطيق مثل هـذه المعاملة ، لا سيما مع انفيسا التى شاركتنا العيش ثلاثين عاما.

ناتاشا : اوه .. هـل آلمتك ؟ انى آسفـة حقا ! (**تغرورق عيناها بالدموع**) ولكنى لا ارى ضرورة لوجودها فى هذا البيت.. ان لدينا مربية تعنى بطفلى الاثنين ، وخادمة وطباخا ، فلماذا تتمسكين بهذه العجوز ؟ (يدق جرس الخطر) يجب الا يكون ثمة سوء تفاهم بيننـا بهـذا الصـدد ، يا أولجا .. فأنت تذهبين الى المدرسة ، بينمـا ابقى انا فى البيت وأشرف على الخدم .. فاذا قلت شيئا عنهم فانما اقوله عن ادراك .. لذلك فسوف تغادرنا هذه اللصـة العجوز غدا .. انى لا احب ان ابقى شخصا يثير المضايقات فى البيت (**تشعر بأنها ذهبت الى أبعد مما ينبغى**) حقـا .. اذا لم تنتقلى الى الدور الأسـفل فسنصبح دائما فى شجار .. ان هذا لفظيع !

يدخل كوليجين ،ولكنه يبادر الى الاختباء ، اذ يسمع ضجة فى الخارج ، ويعلو صوت تشيبوتيكين ، وقد عاد مخمورا لأول مرة منذ أمد طويل ..وتغادر اولجا وناتاشا المكان، فى اللحظة التى يدخل فيها المخمور ، فيقف امام المرآة باكيا محزونا

تشيبوتيكين : ليذهبوا جميعا الى الشيطان ! .. كلهم يظنون اننى طبيب وما أنا بطبيب . لقد نسيت العلم منذ خمسة وعشرين عاما .. لست طبيبا ، بل اننى قد لا أكون رجلا على الاطلاق .. (**يبكى**) اواه ! .. ليتنى لم أولد ! (**يخرج باكيا**)

تدخل ايرينا وفيرشينين وتوسنباخ، وقد تجاوزت الساعة الثالثة صباحا ، وأوشكت النيران ان تخمد دون ان تلتهم سوى جانب من المدينة .. ويتحدثون عن تنظيم حفلة لمساعدة المنكوبين ، فيقول فيرشينين مهموما : ((لقد علمت بأن فرقتنا ستنتقل الى مكان بعيد !))

توسنباخ : ستكون المدينة موحشة اذن !

ايرينا : وسوف نرحل نحن ايضا !

تشيبوتيكين (لدى الباب وقد أسقط من يده ساعة تذكارية خلفتها ام ايرينا فكسرها) : لماذا تنظرون الى هكذا ؟ انى لم أكسر شيئا ، ولكنه وهم داخلكم .. كما يداخلكم الوهم بأنكم موجودون ، ولستم من الوجود فى شىء .. كل شىء مجرد أوهام فحسب ! .. لماذا تحدقون فى ؟ لقد اصبح لناتاشا أمر مع بروتوبوبوف .. انكم تجلسون هنا ولا ترون شيئا .. لقد أصبح لناتاشا أمر مع بروتوبوبوف (**يخرج وهو يغنى**)

تدخل ((ماشا)) فينقلب الجو الى المرح . ثم يفد ((سوليونى)) فنطلب ((ايرينا)) اليه ان ينصرف .. ويصحبه فيرشينين الى غرفة المائدة .

ايرينا : لقد عبق جو الغرفة كلها بدخان تبغ هذا الـ ((سوليونى)) البغيض (**فى استغراب**) ان البارون نائم ! (توقظه)

توسنباخ (وقد استيقظ) : اننى متعب .. آه ، مضرب الطوب ! . . اننى ذاهب لتوى الى مضرب الطوب لأعمل ..

يجب أن نعمل جميعا (**لايرينا بحنان**) انك شاحبة ولـكنك جميلة ! انك حزينة ـ ولا ريب ـ وغير راضية عن الحياة .. آه ، تعالى معى ، لنعمل سويا !

ويخلو المسرح الا من ايرينا وماشا وكوليجين الذى تطلب اليه ماشا أن ينصرف ويدعها تصيب قسطا من الراحة .

كوليجين : أوه ، سأتركك تستريحين نصف ساعة ، ثم اصحبك الى بيتنا يا زوجتى الحبيبة .. لقد مضى على زواجنا سبعة أعوام ، ومع ذلك فما زلت أشعر وكأننا تزوجنا بالأمس فقط .. انك امرأة مدهشة حقـا ، وانى لراض ، راض ، راض !

ماشا : وأنا غير راضية ، غير راضية ، غير راضية ! .. لابد لى من ان أبوح بالفكرة التى تخز رأسى وخز الابر ! .. لقد رهن أندريى البيت ، وبددت زوجته النقود كلها ، كأن الثروة تخصه وحده .. كان يجب أن يعرف ان البيت يخصنا جميعا .

كوليجين : وماذا يهمك من أمر البيت يا حبيبتى .. انى اوفر لك كل شىء ..

ماشا : لست أعنى ذلك ، وانما يضايقنى عدم الانصاف .. والآن اذهب ودعنى أنام ! (**يخرج**)

ايرينا : أصبح أندريى هرما وتافها مذ عاشر زوجته تلك.. لقد كان يصبو الى أن يصبح أستاذا ، فاذا الفرح يستخفه بالأمس لأنه أصبح عضوا بالمجلس الريفى ! .. ذلك المجلس الذى يرأسه بروتوبوبوف .. ان المدينة كلها تتحدث ، وهو الوحيد الذى لا يرى ولا يسمع شيئا ! .. اننى لم أعد أحتمل ! . (**وتنخرط فى بكاء**) ان العمر يمر بنا ولن نستطيع استرجاعه ! .. لقد نسيت كل شىء ، نسيت حتى أصول اللغة الايطالية .. لقد ضاعت مع الايام ،وضاع معها كل شىء ،

ولن نذهب الى موسكو ابدا .. أبدا !

أولجا (وقد اقبلت على الحجرة) : ماذا بك يا حبيبتى .. ماذا بك ؟

ايرينا (وقد تمالكت نفسها قليلا) : أواه ، انى لا أستطيع العمل ! .. لقد اشتغلت كفـــايتى وأصبحت اكره العمل وازدريه .. لقد بدأ ذهنى يتجمد ، وانى لأزداد سقما ، كما يزداد عمرى كبرا ، دون ما شىء .. بل دون أقل ارضاء ! .. والوقت يمر ، فيشعر المرء به وكأنه يجرفه بعيدا .. الى الأعماق ! .. لست أدرى لماذا أعيش ؟ لماذا لا اقتل نفسى ؟!

أولجا : يا حبيبتى ! .. اننى أحـدثك كأخت لك .. كصديقة .. خذى بنصيحتى وتزوجى البارون **(ايرينا تبكى)** انك تحترمينه وتقدرينه .. حقا انه قبيح ، ولكنه رجل طيب النفس . والانســـان لا يتزوج للحب ، وانما هو يتزوج للواجب .. هـذا رأيى ، ولست أتردد فى الزواج عن غير حب .. لن اتردد فى الزواج من اى انسان ولو كان شيخا ، فان كل ما ارجوه هو ان يكون طيبا !

ايرينا : كنت احلم بأن ننتقل الى موســكو ، حيث التقى برجلى الحقيقى .. لقد كنت أحلم به واحبه .. ولكنه كان وهما !

ماشا : اننى خاطئة ــ يا اختى العزيزتين ــ واريد ان اعترف بخطيئتى .. انه سرى ، ولن ابوح به لسواكما : اننى أحب .. أحب ذلك الرجل الذى كان هنا منذ وقت قصـير .. احب فيرشينين ! .. خبرانى .. ما الذى يجب ان أفعله ؟

أولجا : لست اسمعك .. ولا اريد أن انصت الى ترهاتك !

ماشا : أواه ، اننى حائرة ، ولا أدرى ما الذى أفعله ! .. اننى أحبه ، وهو يحبنى .. لقد اعترفت ، وسأفعل ــ بعد هذا ــ كمجنون جوجول .. سألوذ بالصمت !

أندريى (وهو يلج الحجرة) : ياله من حريق فظيع ! ..

على ان النيران بدأت تخمد . حسن .. انكن جميعا هنا ، وقد حان لنا أن نسوى ما بيننا .. يجب أن نتفاهم بصراحة ولو مرة واحدة .. ماذا تحمل نفوسكن ضدى ؟

يسمع صوت فيرشـــــينين فى الخارج ، فتهم « ماشا » بالخروج لتلحق به

ماشا : طبت مساء يا أولجا .. (**تقبـــل ايرينا**) لتنعمى بنوم هنىء ! .. طبت مساء يا اندريى . خير لك ان تتركهما تستريحان ، ولتحدثنا غدا فيما تشاء **(وتخرج)**

أندريى : بل سأقول الآن ما أريد قوله ، ثم انصرف ... انكن ـ أولا ـ موغرات الصدور ضد « ناتاشا » زوجتي ، وقد لاحظت ذلك منذ يوم زفافنا .. ولكن زوجتى محترمة ، وانى لأحبها واقدرها .. أتفهمان ؟ اننى أحتـــرمها ، وأحتم على الآخرين أن يحترموها .. ثانيا : انكما تنعيان على اننى لم أصبح استاذا ، ولم أمارس عملا يتصل بالثقافة ، ولكنى اقول لكما اننى عضو فى المجلس الريفى ، واعتبر هذا العمل خدمة مقدسة لا تقل فى شىء عن مهنة التعليم ! .. ثالثا : هناك شىء آخر احب أن أقوله .. لقد رهنت البيت دون علمكن ، وهذا ما ألام عليه ، وانى لأعرب عن أسفى ، ولكن .. لقد دفعتنى ديونى الى ذلك .. فهى خمسة وثلاثون الفا ، ولكنى امتنعت عن المقامرة منذ وقت طويل **(ويخرج متأســـفا لأن زواجه من ناتاشا لم يحقق ما كان يرجوه من سعادة لأفراد البيت جميعا)**

كوليجين (مقبلا) : أليست « ماشا » هنـــا ؟ أين هى ؟ غريب ذلك ... **(ينصرف قلقا ، فتستلقى اولجا وايرينا على سريريهما)**

ايرينا : يالها من ليلة مرهقة ! .. اولجا ، هل ســـمعت ؟ سوف تنقل فرقة الجند الى مكان قصى .. وســـنعود الى وحدة الموحشة ! .. (بعد فترة صمت) اننى احترم البارون حبيبتى ، فهو رجل لطيف .. سأتزوجه راضية ، على

شريطة أن نذهب الى موسكو ! .. اننى أضرع اليك .. لنذهب الى موسكو ، فليس فى العالم ما هو أفضل من موسكو ! لنذهب يا أولجا . لنذهب ! **(وتسدل الستار)**

- ٤ -

• **ترفع** ستار الفصل الرابع عن حديقة بيت آل بروزوروف .. والى اليمين شرفة البيت ، وبها مائدة عليها كؤوس تدل على أن القوم كانوا يشربون منذ قليل .. وفى وسط المشهد طريق ينتهى الى النهر . « تشيبوتيكين » جالسا فى ملابسه العسكرية ، بينما يقبل « فيدوتيك » و « رودى » ليودعا « توسنباخ » و « ايرينا » و « كوليجين » الوداع الأخير ، اذ حان موعد رحيل الفرقة . وينصرفان فتقابلهما «ماشا» فى الطريق ، وتسير معهما مودعة ، بينما تجلس « ايرينا » على سلم الشرفة فى يأس ، تتمثل الوحشة التى توشك أن تحل بالبلدة .

تشيبوتيكين : لقد نسيا أن يودعانى ، ولكن لا بأس .. فان دورى فى الرحيل يحين غدا ، وسألحق بهما حالا .. ولكنى لن ألبث أن أدرج فى قائمة الاحالة الى الاستيداع ـ بعد عامين ـ فأقضى ما تبقى لى من العمر بينكم !

وينطرق الحديث الى واقعة حدثت بالأمس ، فتسأل ايرينا عن حقيقتها ، فيتهرب الحضور من الاجابة ..الا«كوليجين».

كوليجين : يقولون ان « سوليونى » تشاجر مع «البارون»، لانه يحب « ايرينا » ، بينما يوشك البارون أن يتزوجها .. وقد حددا موعد للمبارزة بينهما .

ايرينا : ان كل الحوادث اليوم تخيفنى .. **(فترة صمت)** سأتزوج من البارون غدا ، وسألتحق بعملى الجديد فى التدريس بعد غد .. انها لحياة جديدة تلك التى أبدأها !

كوليجين : لا بأس بكل ذلك .. انما أخشى عليك أن توغلى فى الخيال . وانى لأتمنى لك حظا سعيدا . نعم .. فالدنيا حظوظ ! ولست أشك فى أنى من أسعد الناس حظا ، فأنا أحب زوجتى ماشا .. وانها لمن أفضل النساء .

(تسمع صلاة يعزفها شخص ما على « البيانو » من الداخل)

ايرينا : لن أكون هنا مساء غد ، ولن اسمع هذه الصلاة ، ولن ألتقى ببروتو بوبوف الجالس الآن فى غرفة الاستقبال .. لقد أصبحت أكره الحياة فى هذا البيت ، خصوصا بعد أن أضحت أولجا « عميدة » ، وأصبحت وظيفتها تضطرها الى الاقامة فى المدرسة ، بينما أبقى أنا هنا وحدى يحيط بى السأم ، وتملأ نفسى الكراهية لهذه الوحدة .. لكم يعبث الحظ بمصائر الناس .. انه هو الذى لم يشأ لى الذهاب الى موسكو ، وهو الذى جعل البارون توسنباخ يكرر رجاءه لى ، حتى اننى لم أجد أمامى سوى أن أقبل .. اننى منذ البارحة أشعر بأن حياتى قد تبدلت .. لقد خف قلبى فكأن أجنحة نبتت فيه .. يخيل الى أن قدرا غامضا يحيط بى !

واذ تعلن « ناتاشا » ان « أولجا » قد حضرت تغادر « ايرينا » و « كوليجين » الحديقة الى البيت ، بينما يظهر أندريى ، وهو يدفع عربة ابنه ، ثم تقبل « ماشا » ، فتسأل عن زوجها فى استخفاف

اندريى (مخاطبا ماشا) : سيخوى بيتنا تماما ، وتحل به الوحشة . لسوف تذهبين ، كما ان ايرينا ستتزوج ، وقد شرع الضباط فى الرحيل .. وسأبقى هنا وحدى أعانى الوحدة ..

تشيبوتيكين : وزوجتك ؟ ! .. أليس لها حساب لديك ؟

أندريى : انها حقا مستقيمة وطيبة . وفيما عدا ذلك ، فهى ليست أكثر من حيوان أليف ! .. اننى أحب « ناتاشا » ،

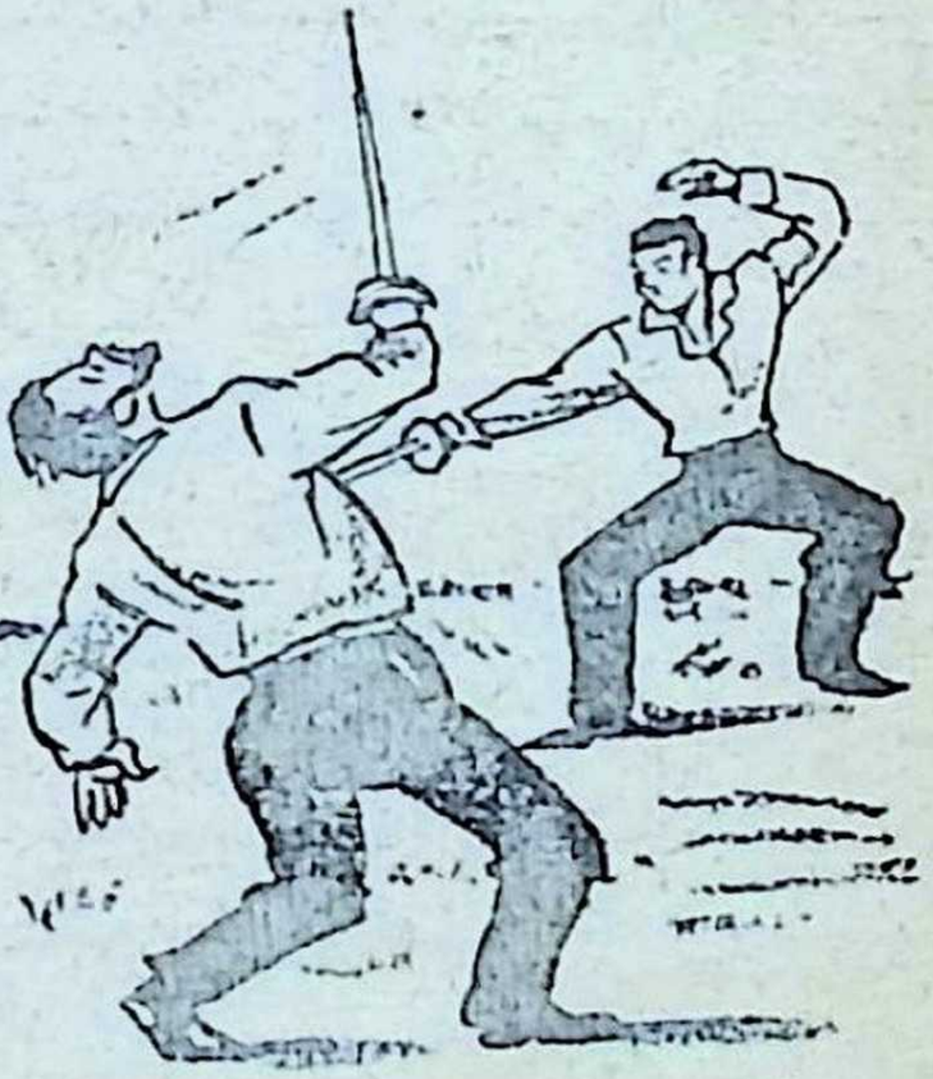

لكنها تبدو لى أحيانا تافهة فلا ادرى ما اذا كنت أحبها الآن ، أو اننى ... كنت احبها !

ويأتى سوليونى فيصطحب تشيبوتيكين الطبيب ليحضر مبارزته مع توسنباخ . ويدفع أندريى عربة الطفل منصرفا . ثم تدخل ايرينا وتوسنباخ . ويمر كوليجين بالمسرح مناديا زوجته ((ماشا))

توسنباخ : لا ريب فى أن كوليجين هو الرجل الوحيد بالمدينة ، الذى يشعر بالسرور لرحيل الضباط !

ايرينا : اننى اعرف انك ذاهب لمنازلة سوليونى .. فما الذى حدث بينكما بالأمس ؟

توسنباخ : دعينى وسأعود بعد ساعة (**يقبل يديها**) يا حبيبتى الجميلة ، انى لأحبك منذ سنوات خمس ، وكل يوم يمر يزيدك جمالا فى ناظرى . غدا سآخذك ، وسنعمل سويا ، ونحصل على ثروة .. ولسوف تتحقق كل أحلامى.. سأكون سعيدا ، ولن ينقصنى الا شىء واحد .. حبك !

ايرينا : هذا ما لست أملكه ! .. لسوف أكون زوجتك ، وسأكون مخلصة مطيعة ، ولكن .. بلا حب ، فليس هذا بوسعى (**تبكى**) اننى لم أحب فى حياتى قط .. لطالما حلمت بالحب ، ولكن روحى كانت تشبه ((بيانو)) جميلا ، ضاع مفتاحه .. انك لتبدو قلقا !

توسنباخ : انظرى الى هذه الشجرة .. انها شجرة ميتة ، ولكنها ـ رغم ذلك ـ تتحرك مع الرياح ، كما تتحرك بقية

الأشجار ! .. وان هذا ليعطينى أملا فى اننى سأظل حيا بطريقة ما .. ولو مت !

ويخرج مسرعا للمبارزة فتحاول ايرينا أن تصاحبه دون جدوى . وتبقى فى مكانها شاردة ، ثم تنسحب الى مقعد فى نهاية المنظر . ويدخل اندريى ومعه طفله فى العربة ، كما يأتى ((فيرابونت)) حاملا أوراقا يطلب الى ((أندريى)) أن يوقعها .

أندريى : أواه ، كيف تسير بنا الحياة ؟ ! .. أين ذهب ماضى ، وكيف سيكون مستقبلى ؟ .. لقد كنت مليئا بالأمل والنشاط ، محبا للعمل .. وها قد ضاع كل شىء ، واصبحت كسولا ، تعسا ، لا نفع لى .. لماذا تستمر الحياة ؟ ! ان كل جيل يولد ليأكل وينام ، ثم يموت ليحل محله جيل آخر .. والرجال يملأون حياتهم بالسخافات ، بالمقامرة ، والفودكا ، بينما النساء يخدعن أزواجهن .. والأزواج يطلقون الأكاذيب .. والعبء كله يقع على الاطفال !

فيرابونت : ليست الاوراق اوراقى ياسيدى .. انها أوراق الحكومة وعليك أن توقعها .. لقد انخفضت درجة الحرارة فى هذا الشتاء ، فمات ألفان من الناس من البرد فى (بطرسبورج) .. أو فى (موسكو) .. فلست أذكر تماما .

أندريى (وقد استخفه شعور غريب) : يا اخواتى العزيزات .. يا شقيقاتى اللطيفات **(من خلال الدموع)** ماشا .. يا أختى !

ناتاشا (من النافذة) : منذا الذى يصيح ؟ .. آأنت يا أندريى ؟ .. ستوقظ طفلتنا صوفى **(غاضبة)** كف عن الصياح أو فلتسلم العربة الى سواك !

أندريى (يأخذ الاوراق من فيرابونت) : حسن ، سأطلع عليها واوقع ما يحتاج منها الى توقيع !

يخرج ، ثم تقبل ((أولجا)) و ((فيرشينين)) الى الحديقة تصحبهما ((أنفيسا)) . وتلحق بهم ((ايرينا))

أنفيسا : أشعر بأننى أسعد الناس فى هذه الايام ، فأنا أعيش مع ناظرتنا « أولجا » ، ومع « ايرينا » فى مسكن واسع بالمدرسة ، على نفقة الحكومة .. ولى هناك غرفة خاصة !

فيرشينين (ناظرا فى ساعته) : لقد حلت ساعة الرحيل .. أين « ماشا » ؟

ايرينا : لا ريب فى انها فى مكان ما بالحديقة ! **(وتنصرف الى البحث عنها مع أنفيسا)**

فيرشينين : لقد اعتدت على البقاء بينكم ، ولست أدرى ما يكون عليه أمرى اذ أفارقكم .. لكم كنت أتمنى أن أظل بينكم بقية العمر ! **(صمت قصير)** لقد حان لى أن أرحل ، ولكن زوجتى وطفلى سيبقيان هنا شهرين ، فاذا ما احتاجا الى شىء ، فانى أرجو منك أن ...

أولجا : نعم ، نعم ... طبعا **(تلمح ماشا مقبلة)** .. ها هى ذى « ماشا » قد جاءت .. **(وتبتعد قليلا لتترك لهما فرصة للوداع)** .

فيرشينين : لقد جئت لأقول لك وداعا ...

ماشا : (متفرسة فى وجهه) : وداعا ! .. **يغيبان فى قبلة ، ثم تبكى بحرارة)**

فيرشينين : أكتبى لى .. لا تنسينى ! .. لقد حان الوقت .. خذيها يا « أولجا » ، فلابد لى من أن ... اذهب **(ويقبل يدى « أولجا » ، ثم يحتضن « ماشا » ثانية ، ويخرج مسرعا)**

أولجا : حسبك يا « ماشا » ، كفى بكاء يا حبيبتى !

(ويدخل كوليجين)

كوليجين (فى حيرة) : لا بأس . دعيها تبكى ، دعيها ... يا ماشا الطيبة ، يا عزيزتى ماشا ! ... اننى لسعيد بك ، ولن ألومك على شىء .. عسانا ان نعاود حياتنا الأولى !

ماشا (مجففة دموعها) : انى أكاد أجن ... دعونى ، فلقد اختلط على الامر ، ولست أريد شيئا الآن .. دعونى وحدى ،

أريد أن أبقى وحدى ! (**تدخل ايرينا**)

ايرينا : سرى عنك يا ماشا .. لن نتركك وحـدك ، بل سنبقى جميعا بعضنا الى جوار بعض ، ولو لم نتكلم ! .. انى راحلة غدا ، ألا تعلمان ؟

(تبكى مرة أخرى بينما تحاول ايرينا تهدئتها .. وتدخل ناتاشا)

ناتاشا : هل سترحلين غدا يا عزيزتى ايرينا ؟ ... لـكم سيوحشنا غيابك ، وسيكون البيت خاليا .. لسوف أحمل أندريى على الانتقال الى غرفتك ، لأنقل طفلتنا « صوفى » الى غرفته .. لقد تركتها فى عناية السيد « بروتوبوبوف » .. أما « أندريى » فانه يعنى بعربة « بوبيك » !

ينبعث من بعيد « المارش » الذى تعزفه الفرقة الراحـلة ، فينصتون . ويدخل تشيبوتيكين

ماشا : ان اصدقاءنا راحلون ... رحلة طيبة لهم **(لزوجها)** يجب أن نعود الى البيت .. أين معطفى وقبعتى ؟

أولجا : نعم ، لقد حان الوقت .. يجب أن ننصرف !

تشيبوتيكين : أولجا .. أواه ، لست أدرى كيف أخبرك..!

يهمس تشيبوتيكين فى اذن « أولجا » بضع كلمات ، فيظهر عليها انزعاج شديد ، ثم تقبل على ايرينا فتحتضنها فى حنان

أولجا : ياله من يوم تعس ! .. لست أعرف كيف أخبرك بالأمر ، يا عزيزتى ..

ايرينا : ماذا هناك ؟ .. أخبرينى بسرعة ، بحق الله .. **(تبكى)**

تشيبوتيكين : لقد قتل البارون فى المبارزة !

تلتف الشقيقات الثلاث بعضهن حول البعض فى اشفاق ..

ماشا : أواه ، اسمعوا هذه الموسيقى ! .. انهم راحـلون عنا . وسنبقى هنا وحدنا .. لنبدأ حياتنا من جديد .. يجب أن نعيش !

ايرينا : سيحل وقت يعرف كل انسان فيه سر هذه .. سر هذه التعاسة ! .. يجب علينا أن نعيش .. يجب علينا أن نعمل .. غدا سأذهب وحدى ، فألقى الدروس فى المدرسة، وسأبذل حياتى كلها لأولئك الذين يستحقونها !

أولجا (تحتضن شقيقتيها) : أواه ، يا الهى ! .. سيمر الزمن ، وسنذهب الى الأبد ، وسنطوى فى حنايا النسيان .. سينسى الناس أشكالنا .. وجوهنا ، وأصواتنا .. وستتبعنا أجيال وأجيال .. ولكن المتاعب ستنقضى ، فيحل مكاننا قوم آخرون ترفرف عليهم السعادة .. سيحل السلام والسعادة على الأرض ، أواه ، يا شقيقتى العزيزتين ، ان حياتنا لم تنته بعد ! . لسوف نعيش ! .. لعل وقتا يحل بنا فنعرف لماذا نعانى فى الحياة .. آه ، ليتنا نعرف .. ليتنا نعرف !

وتسدل الستار

719

سيكولوجية الضمير

الكتاب الذي يشرح أسرار النفس وقواها

هذا الكتاب ..

ماذا دهى الانسان ؟ أكلما زاد عقله نورا ، خطف بصره النور فترنح فى الحياة وتخبط واضطرب ؟ وكلما زاد النور لألاء عمى عن الطريق القويم ، وضل عن الصراط المستقيم ، وزلت قدماه ، واختل توازنه فى الحياة ؟؟

« لماذا يصير النور لهيبا مشتعلا ، ويصبح الضياء جحيما مندلعا ، يحرق جسمه ونفسه ، ويكوى قومه وبنى جنسه ؟

« ما هذه الحروب التى تسيل الدماء فيها بحورا زاخرة ؟

« ما هذه الوحشية الثائرة الكاسرة ؟

« ما هذه الاحقاد الفائرة الكافرة ؟

« ما هذه الحياة الحيوانية الكاشرة السافرة ؟

« حقا لقد اختل البشر فأصبحوا بحاجة الى هدى يرجع اليهم توازنهم ، ويحيل شرهم خيرا ، وعسرهم يسرا .

« لابد لهذه الفوضى الخلقية التى انغمس فيها الفرد والمجتمع من تشخيص وعلاج . عل ذلك يرجع الوحش انسانا يشع الرحمة فى الحياة ، وعل القلوب التى تحجرت على الشر والبغضاء تلين قناتها ، وتصبح ينابيع خير واخاء ، فتنشر السعادة أجنحتها على الكون »

بهذه العبارات الناصعة فى ديباجتها ، المشرقة فى مضمونها يفتتح الاستاذ محمد كامل النحاس — وكيل وزارة التربية والتعليم المساعد — كتابه هذا . وأشهد أن أسلوبه العاطفى قد هز نفسى ، وذكرنى بالبينات من « المكرميات » فى أيامها الخوالى .. ولم يزل المؤلف محتفظا بهذا الاسلوب البلاغى القوى ، وهذا المستوى الادبى العالى ، وهو يغوص فى أدق دقائق علم النفس ، فاذا البعيد منها قريب ، واذا العصى منها سهل ، فلا تنسى انك تقرأ الاديب وانت تقرأ العالم ، من غير جور على الدقة ، ولا حيدة عن الموضوعية النزيهة

ولا عجب أن يختار المؤلف مثل هذا الاسلوب الجزل الاخاذ ، وهو يعالج موضوعا يتصل بكل نفس حية ، ألا وهو « الضمير » . وهو موضوع طالما استأثر به علم الاخلاق ، فاذا علم النفس — على حداثة مولده — ينازع فيه علم الاخلاق العتيق ، ليضعه تحت مجهر البحث الموضوعى ، وليقومه بميزانه الواقعى ، وليقول لنا ماله وما عليه ، وما أثره فى آحاد الناس متفرقين ، وفى مجموعهم مجتمعين »

حقيقة الضمير

• **لعل** اكثر فروع علم النفس تعـرضا للضمير ، باب التحليل النفسى . فالتحليـل النفسى يؤدى بالمرء لأن يجـابه طبيعته ، ويحـاول التعبير عنها ، فمـا اشبهه بسر الاعتراف عند المسيحيين ، حيث ينبغى ان يشعر المذنب بما وقع فيه من خطيئة ، فيجهر بها للكاهن الذى يعينه على تقويم ما اعوج من سبله . وما ابعد التحليل النفسى عن اسلوب الضغط الخلقى المتزمت الذى يحـد الرغبـات ، ويخنق النزعـات ، ولا يدع لها الى التحقق او الافصاح سبيلا !

وقد كشف التحليل عن طبيعة السريرة ، ووجد ان معظم محتوياتها ليس مما يتسم بالاخلاق او يتفق مع العـرف الاخلاقى عامة . كما اكتشف ثمة قوة لا شعورية تعمل على مقاومة مكنونات السريرة ومنعها من الظهور فى شعور الانسان الواعى .

ويرى التحليل النفسى من واجبه سحق هذه المقاومة التى تكبت مكنونات النفس . وما دامت هذه المكنونات لا اخلاقية فى الغالب . فمن البديهى أن قوة المقاومة التى فى النفس تقوم بوظيفة اخلاقية على نحو ما . ولذا يسميها التحليل النفسى ((الرقيب)) .

وهنا يبرز اشكال غير هين يتعرض له التحليل النفسى . فكم اهتزت فى وجهه عصا المؤدب العتيق تتهمه بانه اداة انحلال للاخلاق ، بما يناصر من النزعات الفطرية الغفل ضد الضابط الاخلاقى الذى يكبتها ويحول بينها وبين الافتضاح . وماذا يبقى من خلق الانسان ان تحلل من الرقابة ؟ الا ينحل كيانه الفردى والاجتماعى ؟

لا عجب اذن ان يتهم سيجموند فرويد ، مبتدع التحليل

النفسى ، بأنه من اعداء الحضارة ، ومن خصوم الاخلاق واكبر دعاة الانحلال ! ولكنها تهمة بغير سند ، ورجم بغير بينة . فمـا بهذا قال فرويد ولا قال به احـد من اقطاب التحليـل النفسى .. وانما الذى يرمى اليه التحليل النفسى ان قوة الضبط ، أو الرقابة ، أو القمع ، التى فى النفس ، قد تـكون قوة غاشمة ، عمياء ، كالكوامن الفطرية نفسها . **فيكون قمعها للرغبات قمعا أعمى ، غير مستنير ، ربما أدى الى فســـاد الحياة النفسية والعقلية ، بل الى تداعيها بصورة يربو شرها على كل صور الانحلال التى تسوق الى رغبات لا رقيب عليها ولا عائق يقف فى سبيلها !**

وهكذا يتبين ان ذلك الرقيب النفسى ، أو « الضمير » الاخلاقى — بصفته قوة من قوى العقل أو النفس — ليس دائما قوة تؤدى الى خير كما يتبادر للاذهان ، بل انها قد تؤدى الى شر . ذلك لأن الرقيب او الضمير القـائم على الاخلاق ، والذى هو فى صراع مستمر مع الرغبات المكبوتة المنافية لها ، ليس دائما قوة فائزة ! وهذا الصراع بين المحكوم والحاكم — أى الضمير — فى عالم النفس هو سر المأساة كلها التى يعانيها الناس ، والتى يحاول التحليل النفسى أن يجد لها علاجا بالتشخيص والفحص .

وهذا الصراع ليس دائما فى حالة علنية سافرة ، بل ان هـاتين القوتين : قوة الفـرائز فى حالتها الهمجيـة الفطرية ، وقوة الكبت الخلقية (وهى الرقيب او الضمير) فى حالتهـا الجامدة الصارمة ، تصلان الى نوع من الاتفاق بينهما . ولكنه اتفاق غريب لا يساير الواقع فى شىء . انه لقريب الشـبه بالمهادنات أو المعاهدات المراوغة الفضـفاضة التى يوقعها غريمان متنافسان ، يبيتان الشر أحدهما للآخر ، ويقف كل منهما لصاحبه بالمرصاد ، عابسا متجهما متحفزا لأن يضرب ضربة مردية !

وعلى المحلل النفسى ان يجلو للمريض حقيقة هذا الصراع القائم فى نفسه بين هاتين القوتين . ويضع يده على ذلك الجزء المنقسم من عقله . ومتى نجح المحلل فى الوصول بمريضه الى هذه المرحلة ، يكون قد قطع الشوط العسير من العلاج . ففى وسع المريض بعد ذلك ان يستنفر عقله الواعى للتوفيق بين جانبى نفسه المتعاليين .. ثم بشىء من الارشاد والتوجيه ، أو ما يسمى باعادة التربية ، يستطيع المحلل أن يصل بالمريض الى حال من الاستقرار ، اذ تنساب فى شخصيته كلتا القوتين بعد أن تحققت بينهما الوحدة وتم انسجامهما فى شخصيته الواعية (الشعورية) .

((نتبين من هذا أن القوة الخلقية الكابنة فى نفس الانسان، أو الرقيب ، أو الضمير ، قد تكون مصدر متاعب له ، وانها تقف عقبة كأداء فى سبيل العلاج بالتحليل النفسى ، بل أثبت التحليل أن الضمير ليس دائما موجها كماليا أو مرشدا ملائكيا للانسان كما يظن الكثيرون ، بل انه قد يزخر بالفوضى والاضطراب. وقد ركز التحليل النفسى عليه بحوثا مستفيضة ألقت كثيرا من الضوء على كنهه وتركيبه، وتفاعلاته وآثاره .))

اذن فالضمير ليس صاحب حق فى تلك الهالة القدسية التى تعودنا أن نراها محيطة باسمه ، مقترنة بمفهومه كما تعلمناه . الضمير ليس ملاكا طاهرا فى جميع الاوقات ، بل قد يكون شيطانا ماكرا فى ثياب الملائكة فى كثير من الاحيان .. يضر باسم النفع ، ويقتل باسم الحياة ، ويفسد باسم الاصلاح ! ما اشبهه بالصديق الجاهل ، وبالدب الذى قتل صاحبه ليذب عن جبينه ذبابة حطت عليه !

طبقات النفس

• والتحليل النفسى يقسم النفس الى ثلاثة أقسام أو طبقات : ففى الطبقة السفلى حيث الاساس الغائر ، نجد

« الذات السفلى » وهى فطرته الحية ، التى تحوى غرائزه فى حالتها الهمجية ، وهى منبع نشاطه الحيوى ، ومصدر جميع طاقاته . وهى فردية بحتة. **اما من الناحية الاجتماعية فهى عمياء ، لاتعرف خيرا أو شرا ، ولا تميز بين صلاح وطلاح . كل همها ان تصل الى هدفها ، محكومة فى ذلك بمبدأ اللذة أى انها تأتى باللذة ان تحققت أهدافها . وبالألم ان وقف فى سبيلها عائق !**

بهذه الذات السفلى يولد الطفل ، فهى اساس حياته النفسية . ولا يرتفع فوق هذا الاساس بناء الا فيما بعد ، بمرور الايام ، وعلى حسب حصيلته من التجربة ومن التربية ..

« وسرعان ما يستشعر الطفل انه يعيش فى هذه الحياة جزءا من هذا العالم الذى يؤثر فى حواسه ، ويستقبل منه انطباعات مختلفة تأتى اليه من جسمه اولا ، ثم من محيطه وبيئته ، وتتحكم فى حركاته الارادية وتضبطها . وبذلك يشرع جانب من الذات السفلى فى الاتصال بهذا العالم الواقعى الذى يعيش فيه . ويتكون نتيجة لذلك ما يعرف باسم «الذات» . وهذه الذات اكثر تعقلا من الذات السفلى ، لانها تسير على مبدأ الواقع والحقيقة ، لا على مبدأ اللذة الذاتية المباشرة . » وبنشأة الذات تنشأ عند الطفل مرحلة تغليب العقل على الرغبة الوقتية اذ تبذل الذات جهدها كى توفق بين مبدأ الحقيقة او الواقع الذى تسير عليه ، وبين مبدأ اللذة الذى يتحكم فى الذات السفلى .

« وقد شبهت العلاقة بين الذات والذات السفلى بالعلاقة بين الحصان والفارس . فالحصان مصدر الحركة ومنبع النشاط ومدخر القوة والطاقة ، ثم يأتى الفارس فينتفع بذلك النشاط وتلك القوة . وهو وان ترك الحصان العنان ، الا انه يقوم بتوجيهه بالطريقة التى يراها متمشية مع الواقع ، فيبتعد

به عن العثرات والحفر ، والسبيل الوعر . »

فان سيطرت الذات السفلى على الذات ، فكما يجمح الحصان براكبه ويجعله العوبته ، فيورده موارد التهلكة او العطب . كذلك من ركبته شهواته وعجز عن قيادها ، دب فى الحياة دبيب الاعمى ، وانزلق الى الخطايا والفواحش من غير عاصم .

الذات العليا

• **ولكن** لا يخلو المجال النفسى للذات والذات السفلى مدة طويلة . اذ تجد الذات نفسها محكومة بقوى خارجية تتمثل اولا فى الوالدين ، يتحكمان فى سلوك الطفل بالاوامر والنواهى ، ويحملانه على ذلك بالترغيب والتهديد ، فاذا هو قد تشربت ذاته بسلطان الوالدين ، وتقمصت منهما شخصيتهما المتسلطة المهيمنة . وبذلك يتحول جزء من الذات الى ما يسمى بالذات العليا ، التى يمكن ان نعتبرها ممثلة لسلطان الوالدين .

واذا بهذه الذات العليا تتحكم فى الذات من الداخل ، بدلا من تحكم الوالدين فيها من الخارج ! واذا بالطفل يدرك من نفسه ، وبنفسه ، ما يجب ان يفعله ، وما يجب ان يتجنبه . واذا به ينفذ أوامر الذات العليا تنفيذا جامدا ، فيستشعر الرضا اذا ما عمل تبعا لأوامرها ، ويستشعر السخط عن طريقها او يقاسى عقابها اذا ما خالفها .

وتنمو الذات العليا بنمو الطفل وزيادة السلطات التى تتحكم فيه ، اذ يشرب التعاليم الخلقية ، والتقاليد السائدة ، والنظم الاجتماعية ، وأحكام الدين وغير ذلك . **وتصبح هذه الذات اقرب شبها بما نسميه الضمير ، الذى يصدر عنه ما يعرف بالشعور بالذنب أو الخطيئة اذا ما قام بما يخالفه . وقد يتطور هذا الشعور بالذنب الى حالات من القلق النفسى المروع ،**

بل قد يمرض الانسان تكفيرا للذات عما جنت وارتكبت ضد الضمير ..

وعلى هذا الاساس ، يختلف تكوين الضمير من شخص لآخر ، تبعا لظروف طفولته ، ونوع التربية التى تلقاها والمعاملة التى عاناها . وهو تكوين لا شعورى فى اغلبه . أى أن المرء لا يشعر به فى الغالب ، بالرغم مما له من كبير الأثر فى توجيه سلوكه وانهاكه لاعصابه واخلاله بصحته . ومن اجل هذا قيل انه قوة جامدة عاتية

ومن هذا نجد النفس بأقسامها الثلاثة ، أو طبقاتها الثلاث، معقدة التعقيد كله ، تحتاج فى تربيتها — منذ تولد بفطرتها الوحشية الى ان تكون لديها الذات العليا — تحتاج الى أيد صالحة ، وعقول متيقظة خبيرة الى حد غير قليل بالطبيعة البشرية ، ولا سيما فى السنوات الأولى من حياة الطفل . وهنا تبرز أهمية الأم ، وتعليمها التعليم العصرى الواعى ، ويثبت عنها ما قاله حافظ ابراهيم :

الأم مدرسة اذا اعددتها اعددت شعبا طيب الاعراق

وليس المراد هنا بيقظة الأم ودورها فى تربية طفلها ، ان تكون ((حكمدارا)) عسكريا — فذلك بعينه هو الاذى الاكبر الذى يكبل الطفل بضمير صارم ! — وانما المعول كله على المرونة الناضجة التى لا تتعنت فى المنع والكبت ، ولا تنساق فى التساهل والتفريط .

ولذا ينادى المربون بضرورة تعليم كل فتاة جانبا طيبا من المعرفة بالنفس ، وكيفية التأليف بين أقسامها الثلاثة فى اثناء توالدها من النفس الفطرية التى سميناها الذات السفلى .

حسن التأويل

• **وقد** تطرق المؤلف الفاضل من هذا الى تأويل آيات القرآن الكريم ، وابراز وجوه المطابقة بين ما ورد فيها عن النفس

البشرية ، وبين مفهوم النفس بطبقاتها الثلاث عند علماء التحليل المحدثين . ومن ذلك قوله :

١ ــ يشير القرآن الى النفس بمعنى الذات السفلى اذ يقول : ((**وما ابرىء نفسى ان النفس لأمارة بالسوء .**))

٢ ــ ويشير القرآن الى النفس بمعنى الذات العليا او الضمير اذ يقول : ((**يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية .**))

٣ ــ ويشير القرآن الى النفس بمعنى الذات الواقعية او الوسطى بقوله : ((**ان كل نفس لما عليها حافظ**)) ــ والحافظ هنا هو الرقيب او الضمير .

٤ ــ ويجمع القرآن بين النفس بمعنى الذات السفلى وبمعنى الذات العليا حين يقول : ((**ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها**))

ويلاحظ المؤلف الفاضل كيف رتب القرآن الكريم طبقات النفس ، فذكر فجورها ــ وهو ما يقابل الذات الفطرية او السفلى ــ ثم ذكر تقواها ، وهو ما يقابل الذات العليا (او الضمير) ، التى تتكون فى مرحلة تالية من مراحل النمو .

علم النفس الاجتماعى

• **ولا يفوت** الباحث الاديب ان يعرج على مدرسة عظيمة المكانة بين مدارس علم النفس المعتدلة، يبدو أن مكانتها ستزداد خطرا مع انحسار موجه التطرف فى التحليل وخمود طرافتها البراقة . وهى مدرسة ((مكدوجل)) واضع اسس علم النفس الاجتماعى ، الذى يجعل السلوك البشرى على اربع طبقات لا على ثلاث :

١ ــ طبقة السلوك الغريزى الذى يتحرى اللذة ويتجنب

الألم فى تحقيقه لغرائزه الحيوانية .

٢ ـ طبقة تعديل السلوك الغريزى بما يوقعه المجتمع من ثواب أو عقاب على سلوك الفرد الغريزى .

٣ ـ طبقة انضباط السلوك بما يتوقعه الفرد من مدح المجتمع أو مذمته

٤ ـ طبقة السلوك الراقى الذى يتحرى تحقيق مثل عليا تدفع المرء الى فعل الصواب كما يراه ، بصرف النظر عن مدح المتمع أو مذمته

وفى رأى المؤلف أن هذه الطبقات او المراحل تكاد تطابق مراحل السلوك كما تراها مدرسة التحليل الفرويدية . ولا ينسى ان يذكر أن مكدوجل نشر كتابه سنة ١٩٠٨ ، قبل ان ينشر فرويد آراءه بسنوات طويلة .

وأكاد أوقن أن الطبقة الرابعة ، طبقةالسلوك الراقى فى نظر مكدوجل ، طبقة متميزة بنفسها ، لا تختلط تمام الاختلاط ولا تطابق مطابقة حرفية طبقة الذات العليا عند فرويد . **فهذا السلوك الراقى عند مكدوجل سلوك فردى واع من الدرجة الأولى ، ليست مثله العليا دائما نسخا من مصنوعات المجتمع أو الوالدين ، وانما هى فى المقام الأول من ابتداع أصحابها ، وهى علامة فرديتهم المستقلة الباسلة** .وهى اشبه بسجايا خاصة العظماء من المفكرين والفلاسفة والمصلحين . ولعل شيئا من هذا القبيل ما عناه ابن الرومى بقوله :

وعسير بلوغ هاتيك جدا تلك عليا مراتب الانبياء

عناصر الضمير

. **اذن** فأهم عناصر الضمير الانسانى هىالذات المثلى التى تنشأ من انعكاس حب الحياة الفطرى على ذات الطفل . فكل فرد منا يحب نفسه ولا يحبغيره من الناس فحسب ،وهذا

هو ما يسميه علماء التحليل بالطاقة النرجسية فى الانسان . وهذه الطاقة النرجسية تنشطر شطرين : شطرا يتصل بذاته الحقيقية كما هى فىالواقع ، وشطرا يتصل بذاته كما يتمناها ان تكون . وهذه هى الصورة المثالية للنفس .

وهذه الذات المثالية هى أول عنصر من عناصر تكوين الذات العليا أو الضمير . وهى ايضا اهم تلك العناصر .

والعنصر الثانى فى تكوين الذات العليا هو عمليـة امتصاص أو تقمص ما عليه الآخرون من اخـلاق وصفات ، وخصوصا الوالدين .. حتى يصبح الوالدان أو من يقـوم مقامهما من طفولتنا جزءا من تركيبنا النفسى أو العقلى ، وكأنه طبيعـة ثانية لنـا . وبواسطة هـذه العملية نتوارث المعايير الخلقية والتقاليد الاجتماعية من جيل الى جيل !

ثم يستطرد المؤلف الى حديث بارع عن صلة الضمير بلذة العذاب ، وكيف أن قسوة الوالدين فى التـأديب تنتقل الى الضمير فيقسو ، ونجد فى قسـوته لذة . ثم تتضخم تلك اللذة فنجدها فى قسوة من نحب حين يقسو علينا . وقد تعتل القسوة فاذا بنا نجد اللذة فى قسوتنا على من نحب ،كما كنا نقسو على الأم ونحن صغار ، فنعض الثدى الذى أرضعنا لبان الحياة !

ثم يضمن المؤلف بحثه أمثلة من شعر القدامى والمحدثين . وهو شعر يتغنى بعذاب الحبيب وما فيه من لذة ونشوة ! ويربط ذلك « بالماسوشية » ، « وبالسادية » ربطا بارعا ، ليس هذا مجال الافاضة فيه

اعتبار الذات

• **واذا** كانت الذات المثلى هى محل الضمير عند علمـاء التحليل ، فان « مكدوجل » يرى محل الضـمير من الانسان عاطفة يسميها « اعتبار الذات » . وهذه العاطفة عنـده

مستقلة تماما عن ذوات الآخرين من المهيمنين عليه ، بل إنها تنشأ من ادراك الطفل لذاته الخاصة وتميزها عن الذوات الأخرى المحيطة به والمغايرة له ، **اذ يبدأ الطفل يهتم بأنواع السلوك الذى يقوم به الآخرون تجاهه ، والذى يعبر عن سخطهم عليه أو رضاهم عنه — اذ يتوقف على ذلك السلوك شقاؤه أو سعادته — وبذلك يتعلم اذ يأخذ بوجهة نظرهم الخلقية حتى يكسب رضاهم ويتجنب لومهم ، ويشيد لنفسه مستوى من السلوك يحاول أن يصل اليه ، مماثلا لمستوى سلوك الآخرين ..**

وعلى العموم ، فعاطفة « اعتبار الذات » اقرب شىء الى ما نسميه بالضمير ، بحيث اذا فقد الانسان هذه العاطفة ، أو ضعفت فيه ، فانه يفقد بذلك أهم ركن تستند اليه الاخلاق ، ويسير فى الحياة متخبطا وراء دوافعه الطبيعية ، وكأنه انسان بلا ارادة ..

بين الواقع والمرجو

• **ويعلق** علماء التحليل النفسى أهمية كبرى على نوع الذات المثلى التى تتكون لدى المرء ، ونسبة تلك الذات الى ذاته الواقعية . فاذا كان الفرق بينهما شاسعا ، شعر المرء بالنقص والسخط على نفسه ، لعجزه عن الارتفاع الى مستوى ذاته المثلى وتحقيقها تحقيقا واقعيا .. وفى ذلك يقول المؤلف : « ان كثيرا من الشقاء الذى ينهش فى نفوس بعض الأفراد ، ينشأ من أنهم رسموا لأنفسهم مستوى شاهقا رفيعا . وربما كان هذا امتدادا لنوع المعاملة التى عاملهم بها والدوهم عندما كانوا أطفالا صغارا . **فبعض الوالدين يتطلب من الطفل الصغير الكمال فى كل شىء : فى اعماله وسلوكه وكلامه .. فترى والديه يحاسبانه على كل هفوة تصدر عنه حسابا عسيرا ، وينظران اليه كما لو كان راشدا متفهما ،**

مكتمل العقل ، ناضج القوى . فينشأ مثل هذا الطفل ساخطا متبرما ، لا يقنع بأى شىء . مغمورا دائما بشعور الخزى والخجل والسخط . اذا ارتقى الى منصب ، فانه يظل يرى انه فى مركز أقل بكثير مما هو جدير به ! وكلما غمرته نعمه ، شعر أنه احق بما يفوقها درجات . انه لا يستطيع ان يتزوق للسعادة طعما . بل انه ليشع الشقاء على غيره ، وينشر البؤس والتعاسة بينهم ، بانتقاده المستمر لسلوكهم وتصرفاتهم ، مهما كانوا على خلق كريم ! وقد يصبح هذا الشخص عصبيا دائم السخط على المجتمع ، اذ لا يجد فيه الفضيلة التى يهواها ويتعشقها ويعبدها ، دون ان يمارسها فى الغالب ! .. ويصبح نافرا من الناس ، لأنه يشعر بأنهم اقل منه شأنا بكثير ، واحط من أن يمتزج بهم .. ويصبح انانيا يعمل على ان يحقق رغباته الخاصة ، اذ يراها ارفع الرغبات وأسماها ، واجدرها بالتحقيق دون سواها ! ويرى نفسه فى ذاته المثلى أعلم وأفضل وارقى من فى الوجود كافة ؛ بينما قد يكون فى ذاته الواقعية أجهل وارذل واحط من فى الوجود !

« وليست الحياة العامة بالمكان الذى يصلح لمثل هذا الشخص ، ولكنه بحاجة الى اصلاحية يعالج فيها مرضه النفسى : أو الى دير يناجى فيه السماء ، ويتغزل فى المثل الرفيعة التى أبدعها وأودعها فيها ، بينما يزحف على الارض الذات واقعية حقيرة سخيفة ! »

ولئن كان الهبوط بمستوى الذات العليا مما يضير الاخلاق فى قول بعض القائلين ، فان علم النفس همه الأول والأخير الصحة النفسية ، باعتبارها أساسا للسعادة وتكامل الشخصية وتوافقها مع الواقع .. وليس من همه التحليق فوق القمم ، والارتفاع بالقيم .

مرض الكآبة .. وجنون العظمة !

• **واتساع** الهوة بين الذات والذات المثلى حين ينعكس على المجتمع يؤدى الى مرض السوداء أو الاكتئاب او « الماليخوليا » . ويبلغ من سخط الشخص على نفسه أن يحتقرها ويتهمها بجرائم لا تغتفر : فهو نهب باستمرار لتأنيب ضميره ، يستمرىء تقريعه وعذابه ، ويخلق له الاسباب خلقا .. وهذا هو الافراط فى الإثقال على الذات بذات مثلى شاهقة الارتفاع !

أما التفريط فهو نقيض تلك الحالة : انه المبالغة فى الاعتقاد بسمو الذات الواقعية ، والتوحيد بينها وبين الذات المثلى ، واعتبارها اعلى بكثير من مستوى المجتمع المحيط بصاحبها . وهذا ما يسمى بجنون العظمة ، أو الـ « مانيا »

ويعتقد المؤلف أن المتصوفين من طراز « محيى الدين بن عربى » و « الحلاج » ، ومن يؤمنون بالاتحاد بالحق سبحانه فى شطحاتهم ووجدهم ، انما هم مرضى بجنون العظمة . ولا يرى مبررا لاعتبارهم من فريق غير فريق المجانين الذين يظن الواحد منهم انه هتلر ، أو نابليون ، أو المهدى المنتظر ! وهى ملاحظة جديرة بالاعتبار . وليت باحثا يخصص لها رسالة علمية مستقلة ، لما للصوفية من مكانة مرموقة فى آداب الشرق وتقاليده ..

ويقول المؤلف ان الذات العليا مهما حلت محل الوالدين **فان الانسان السوى لا يستطيع أن يحيا مستقلا عن حكم المجتمع الذى يحتك به باستمرار ، متجاهلا رضاه عنه أو سخطه عليه . اذ ليس اقسى على الانسان من ان يجد نفسه منبوذا من المجتمع ، وحيدا فى عالم خاص به من آراء ومعتقدات !**

على أن بعض ذوى الجراة ، أو المؤمنين بفكرة أو رسالة ،

قد يكونون من الشجاعة الادبية بحيث يواجهون نبذ المجتمع ويخسرون نعماءه ، ويكون ذلك أهون عليهم من احتقار أنفسهم أو التنكر لايمانهم برأى أو عقيدة أو مسلك . والى هذا يشير السيد المسيح بقوله « ماذا يربح الانسان لو كسب العالم كله وخسر نفسه ؟ » ولكن هذا النمط من العظمة ، أو السلوك الراقى ــ ان استعرنا تعبير مكدوجل ــ نادر جدا بين بنى الانسان بوجه عام ، لأنه شاق غاية المشقة . واليه اشار ــ كما اسلفت ــ شاعر النفس اللماحة ابن الرومى ببيته الفذ :

وعسير بلوغ هاتيك جدا تلك عليا مراتب الانبياء .

وفى اعتقادى ان البشرية تخسر الكثير ــ كيفا لا كما ــ ان هى عقمت فلم تنجب «هؤلاء المتمردين على أوضاع المجتمع» وكان كل نتاجها من أولئك المسالمين الذين لا يقومون معوجا ، ولا يقاومون تيارا عاما ، ضنا بالنفس ، و « لتجدنهم احرص الناس على حياة ! » .

الثورات الشعبية ، والاستعمار .. فى ضوء علم النفس !

• ثم يعلل المؤلف البحاثة الثورات الشعبية تعليلا نفسيا يربطها بتمرد الافراد على مجتمعهم ، حين يحدث هذا التمرد الانفصال النفسى بين السلطة والشعب ، فيقول :

« ان ترفع الحكام على الشعب ، واهمالهم لشئونه ، وضغطهم لحريته التى كفلها له التشريع السائد ، ونظرتهم له كأنه عبد مستعبد ، وغير ذلك مما يشعر الشعب بضآلة شأنه ، واضمحلال قيمته ، ليدفع الشعب لأن يجمح ويكسر النظم الاجتماعية ، ويحطم القوانين ، فينتشر بذلك الفساد ، وتعم الفوضى ، حتى يسترد الشعب اعتباره ، أو يشعر بأن له قيمة وشأنا . »

ولا يربط المؤلف بين الثورات الشعبية والتحليل النفسى

فحسب ، بل يعرج على الاستعمار ، ويعرضه آفة نفسية ، تدل على سوء التربية فى عالم يصف نفسه بالرقى والحضارة:

« ونستطيع أن نلمس الأثر الفظيع فى الأمن الدولى لاستعمار الشعوب بعضها بعضا . فالاستعمار بصوره المختلفة - من احتلال أو وصاية أو حماية أو انتداب - معناه اشعار الشعب المستعمر بضعفه وتفاهة قيمته بالنسبة للشعوب الحرة . وهنا أيضا يجمع الشعب المستعمر ، طال أمد الاستعمار أو قصر ، وتشتعل فيه الثورات جهرا ، أو سرا ثم جهرا ، حتى يرجع اليه الشعور بأنه شعب ذو قيمة ، وانه كفيل بأن يستمتع بحياة الحرية ، ويعيش فى كرامة وأمن وطمأنينة ... »

الشعور بالأهمية .. ينقذ من الانتحار

• ما لم يشعر الانسان بأن له وزنا ، أو خطرا ، أو قيمة ، أو منفعة فى حياته ، فلن يحتمل الحياة . وهذا حق نلمسه فى الناس كافة . فحتى العجوز الفانى الذى قد يتمنى الموت ، ربما عاد فتعلل بان وجوده « بركة » على آله وذويه . وان خدمتهم له تفتح لهم أبواب الجنة !

وما من منتحر يائس من الحياة يقدم على الانتحار لو شعر بان لوجوده فى الحياة قيمة . وهو ما يعبر عنه المؤلف « بالشعور بالاحتياج اليه » .

والمؤلف محق فى ابراز أهمية العلاقات العاطفية واثرها فى ربط الانسان بالحياة ونفى الاحساس بالتفاهة عنه . وقد وفق فى مضاهاة الشخص الذى انعدمت روابطه العاطفية بذلك العاطل الذى يجد نفسه هينا على المجتمع الذى استغنى عن خدماته وأهمل وجوده !

« وان تركزت حياة المرء على اساس مادى فحسب ، مثل

زواج من اجل المادة فقط ، أو جمع الثروة ، أو الارتقاء فى مناصب مادية ، فسرعان ما يتآكل هذا الاساس بمضى الزمن ، أو يرتج ، ويترنح ، لأن المادة سريعة التبدل والتغير ، وكذلك تكون روابط الانســان بها .. **واذا به يشعر بفراغ فظيع رهيب ، يجعل فؤاده خائرا ، وعقـله حائرا ، ونفســه قلقة مضطربة . واذا بالذات العليا تتفكك قواها،وينفرط عقدها.. واذا بالذات السفلى تجد الفرصة سانحة لأن تمسك بزمام الانسان وتوجه سلوكه . وبذلك يقع فريسة لانحلال نفسى وجسمى معا .**

« ويجب ان نذكر فى هذا المقام ان أهم هــذه الروابط العاطفية هى الروابط الزوجية ، اذا كان الزواج قائما على أساس من تفاهم وتعاون فى تحمل المسئوليات وجعل الحياة اسعد ما يمكن . اذ الروابط الزوجية اكثر الروابط دواما ، لاستنادها الى أسس قوية من عواطف وغرائز رئيسية ، ولأنها تثمر نسلا يزيد من شعور كل من الزوجين بقيمته واهميته عندما يرى النسل ينمو ويشتد ، فينمو تبعا لذلك شعور الزوج بأهمية حياته ، وقيمة وجوده ، وخطورة رسالته .

« ان الزواج أكبر مأمن من ان يحيا الانسان حياة باردة فاترة ، ومن ان يتضاءل اعتباره لذاته . فله رسالة سامية حملته الطبيعة اياها منذ بدء الخليقة ، واودعت دافعها فى تركيبه النفسى ، وشحنته باعظم قوة واكبر طاقة ... »

وليسمع شباب اليوم قول المؤلف :

« الزواج هو عاصم الانسان من أن يدب فى فيافى الحيــاة دبيب الضال الغارق فى لجج لا يتبين من صخبها شاطئا يرسو عليه ،ولا يرى خلالها نورا يهتدى به اليه ... ولكن أصبح المأمن ويا للاسف مثــارا للخوف ، وأضحى الملجأ عرضــة للعصف ... »

.. ولكن العالم البحاثة لا ينسى صفته العلمية وهو يتكلم باسلوب الاديب الذرب ، والخطيب المفوه . استمع اليه يقول:

« ليس هذا الاعراض عن الزواج الا مظهرا للعصف النفسى اللاشعورى . انه عرض للصراع العقلى الذى تزخر به نفوس بعض الشباب فى دور التطور الذى يمر به الشرق الآن . أو مايمكن أن نسميه بدور الانتقال من حياة الدكتاتورية الذكرية، التى يبدو فيها الرجل كل شىء ، والمرأة لا شىء أو بعض الشىء ، الى حياة جديدة تلمع فيها مبادىء فريدة ، تقوم على اساس ديمقراطى من تعاون الرجل والمرأة معا فى الحياة ، تعاونا روحيا واجتماعيا ، وربما ماديا ايضا ... **فالرجل يخشى أن تزيحه المرأة عن عرش استوى عليه قرونا عديدة ، واجيالا مديدة . وتخشى المرأة العصرية أن يعاشرها الرجل على هدى التقاليد القديمة ، ويريدها على ان تفنى شخصيتها فى شخصيته ، وعلى ان تجعل كرامتها شيئا ثانويا بالنسبة لكرامته .. ويحدث هذا الصراع اكثر ما يحدث بين المثقفين من الجنسين ، لأن الثقافة تشرب الذات العليا بمثل جديدة قد تتعارض مع ما اشربته من تقاليد عن طريق الاسرة والمجتمع . »**

وهذا ابلغ واصدق ما قرأته فى تعليل أزمة الزواج عندنا .

وجوب تنسيق تربية البيت ، مع تربية المدرسة !

• **وهذا** الاشكال الذى يقع فيه المثقفون ، الحائرون بين رواسب الماضى ومستحدثات الثقافة ، مثل لما يتكون منه الضمير من عناصر متباينة ، قد تتعارض ولا تتكامل ، وان تعايشت تعايشا سلميا ، هو الى الحرب اقرب منه الى السلم الصريح !

والحق ان تكوين الضمير المتكامل فى الانسان مهمة جد عسيرة . بل قد تكون مستحيلة :

((فكم من طفل يضطر لأن يعاشر زوجة أب أو زوج أم كارها له ، قاسيا عليه ، يعامله كما لو كان حملا ثقيلا بغيضا .. وكم من طفل يعاشر زوجين متباغضين .. وكم من طفل يمتص من أبويه الصلاح ، ثم تنفق له بيئة سوء تنخر فيه شيئا فشيئا ، الى أن تنقلب الكفة وتتحول الدفة))

والواقع ان انسجام الضمير الفردى لابد له من انسجام بين تربية البيت وبيئة المدرسة وصحبة اللعب . فلا تكون خطة البيت فى التربية على وتيرة غير وتيرة المدرسة . وهذا هو السر فى ارتفاع أصوات المربين بتوطيد الصلة بين البيت والمدرسة ، حتى لا يكون الطفل موزع النفس بينهما . بل ويجب أن يكون النظام الاجتماعى عموما منسقا مع الطريقة المتبعة فى التربية البيتية والمدرسية . وان يكون المهيمنون على المجتمع مثلا عليا فى العدل والايثار والامانة وغير ذلك .

- * -

في اول كل شهر

حياتك

ترسم لك الطريق الى حياة سعيدة ناجحة
بأقلام أقطاب الفكر ، والنفس ، والاجتماع

٣٠ موضوعا تخطو بك ٣٠ خطوة إلى السعادة
و ٤ أبواب شيقة :

معرض التجارب الإنسانية ★ نحو حياة أسعد
مشكلتك لها حل ★ كتاب الشهر

لا تدعها تفوتك

لتحتفظ بمكتبة كاملة فى فن السعادة والنجاح

١٦٠ صفحة بالألوان

٨ قروش

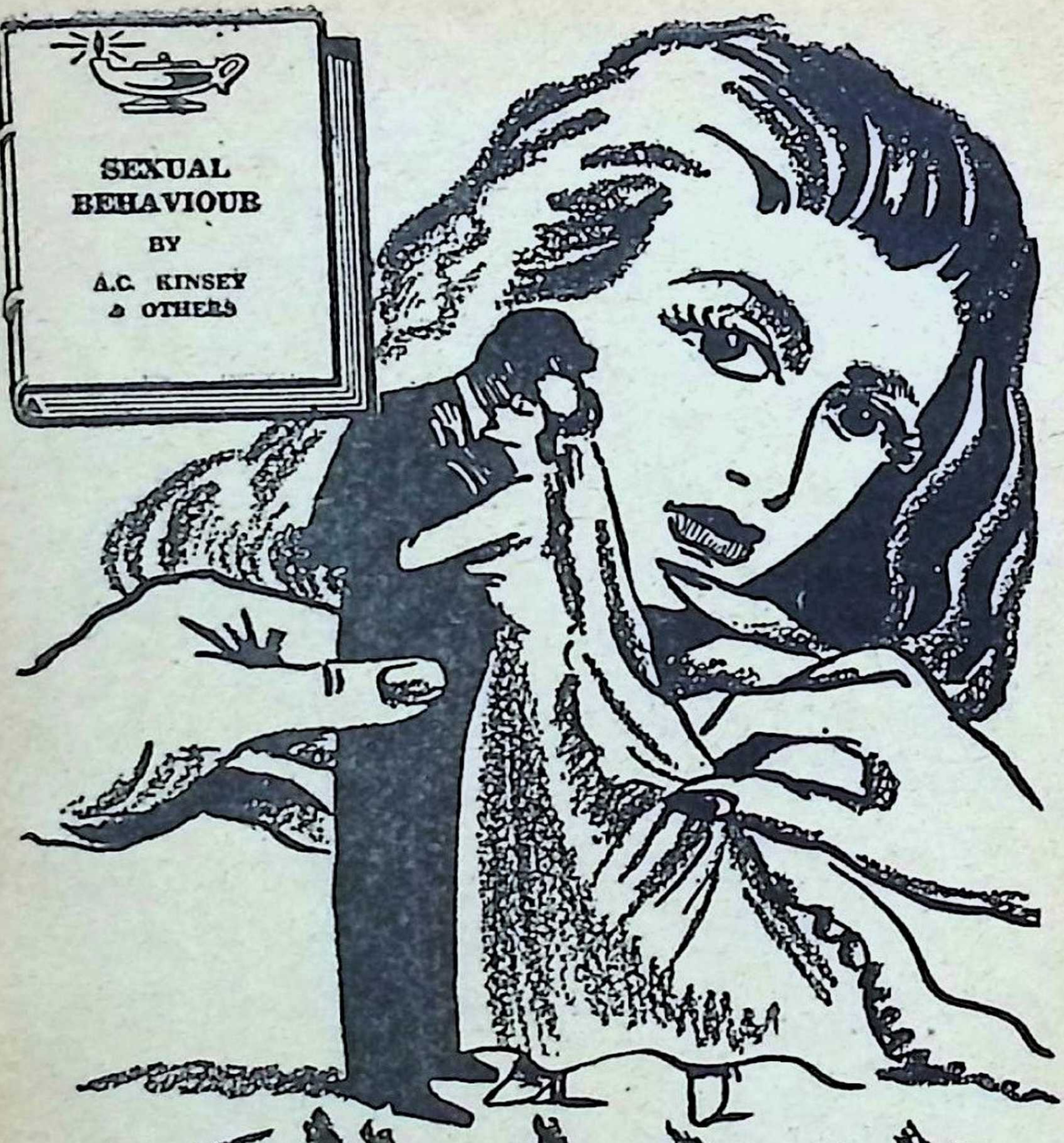

السلوك الجنسي

(لدى المرأة)

الكتاب الذي هز الولايات المتحدة من أقصاها إلى أقصاها

للباحث الأمريكي الكبير "الفريد كينزي" وآخرين

نحو مجتمع عربى جديد !

• بهذه الحلقة الأخيرة من كتاب ((السلوك الجنسى)) ، نختتم تلخيص أعظم بحث فى تاريخ البشرية ، تنـاول ناحية من أهم نواحى الحياة الانسانية ، اعتاد الجهل والتزمت والتقاليد الخاطئة ، ان تحيطها بغموض يصد عن الخوض الصريح فيها ، وان لم يكن يمنع من التخبط المستتر — عن جهل — مما أدى الى كثير من الاعتقادات الخاطئة عن الجنس ، ومما ساعد على ارتفاع نسبة فشل الزواج — بوصفه ركنا من أركان المجتمع البشرى الراهن — الى درجة أصبحت تهدد الكيان الاجتماعى .

ونكرر اليوم ما قلناه عندما قدمنا الحلقة الأولى من هذا البحث الخطير — فى العدد ٥٢ من ((كتابى)) — من اننا نرجو أن يجد المعنيون بالتربية والشئون الاجتماعية والجنسية ، فى المجتمع العربى ، فى البيانات والحقائق العلمية — التى اشتمل عليها هـذا البحث — ما يساعدهم على القيام بأبحاث مقارنة ، وعلى طرح التزمت والجمود الخاطىء ، ليعالجوا مسائل الجنس بصراحة ، وهم يعكفون اليوم على بناء المجتمع العربى من جديد :

التعاطف بين النساء لايدل على شذوذ جنسى !

• **هناك** أفراد يقتصر اتجاههم فى علاقاتهم الجنسية — طوال اعمارهم — نحو افراد من جنسهم فقط ، كما ان هناك افرادا توجههم ظروفهم النفسية والاجتماعية ، الى ان يقصروا علاقاتهم هذه ، طوال اعمارهم ، على افراد من الجنس الآخر وحده . **على ان ثمة عددا — ليس بالقليل — ممن يجمعون فى حيـاتهم الجنسية بين الجنسـين . فاما ان يقتصروا فى بعض مراحل العمر على أحد الجنسـين ثم يقتصروا فى مراحـل اخرى على الجنس الآخر ، واما ان يجمـعوا بينهما معا فى آن واحـد ..** على اننا فى عيناتنـا ، لم نجد سوى نسبة ضئيـلة ، قصرن نشـاطهن الجنسى طيـلة اعمـارهن ، على شركاء من نفس جنسهن . اما نسبة اللائى يجمعن بين اللونين من النشـاط ،

فكانت اقل من هذه النسبة ، ومن نسبة من قصرن نشاطهن على الجنس الآخر وحده

والشائع بين الناس ــ ولدى كثير من العلماء والاطباء ــ ان الاستجابة والاتصال الجنسيين بين الاناث بعضهن وبعض اكثر حدوثا منهما بين الاناث والذكور ، فى المجتمعات الامريكية.

وقد ترجع هذه الفكرة الى ان التعاطف العلنى الوثيق بين الاناث ، شائع فى امريكا ، فنجد ان الاناث يملن الى الظهور معا، والى تأبط بعضهن اذرعة بعض ، والى تبادل العناق والقبلات، على مرأى من الملأ .. دون ان يجدن لوما على ذلك ، اللهم الا اذا كان التعاطف بين الرجال بعضهم وبعض يستدعى اللوم .

بيد ان الرجال يميلون الى ان يفسروا هذا التعاطف بين الاناث بعضهن و بعض ــ على ضوء عواملهم النفسية ــ على انه دليل على وجود ميول عاطفية قد تتطور الى علاقات جنسية . ولكن البيانات التى جمعناها ، لا توحى بشىء يعضد هذا التفسير .

المجتمع والانحراف الجنسى

قد يكون للمجتمع كل الحق فى أن يعنى بمسلك أفراده، اذا كان فى هذا المسلك ما يمس أشخاص أو ثروات أفراد آخرين من أعضائه، أو ما يمس سلامة المجموع . ولهذه الأسباب نجد ان المجتمعات قاطبة تحاول ان تقضى على العلاقات الجنسية التى تتأتى عن طريق القوة أو العنف ، والعلاقات الجنسية التى تفضى الى حمل غير مرغوب فيه ، وألوان النشاط الجنسى التى تعرقل الزواج أو تحول دونه ، فتهدد بذلك كيان المجتمع . **على أن التدخل لا يقتصر على هذه الألوان من النشاط الجنسى ، بل انه يتجاوزها فى متباين المجتمعات ــ لا سيما تلك التى تسودها الحضارة اليهودية المسيحية ــ الى ألوان اخرى استهجنتها الشرائع الدينية ، والرأى العام ، والقانون الموضوع ، لأنها مناقضة لعرف الحضارات التى تأخذ بها هذه**

المجتمعات ـ أو لأنها تعتبر خطيئة أو اثما ـ ولأنها كذلك تضر باشخاص الغير وممتلكاتهم ، أو بأمن المجتمع وسلامته .

وكثيرا ما يكون سخط المجتمع على اى انحراف عن العرف ، وعقوبة القانون لهذا الانحراف ، اشد من السخط والعقوبات التى تفرض على من يلحق الأضرار المادية بالأشخاص أو بالنظام الاجتماعى . ففى الحضارة الأمريكية ، لا نجد لونا من النشاط الجنسى يحظى بسخط ـ لانحرافه عن العرف والعادات العامة ـ يفوق ما يحظى به الاتصال الجنسى عن طريق الفم ، ومواطأة الجنس .. اى الجماع بين شخصين من جنس واحد. وليس بين الشعوب الغربية شعب أقلقه هذا النشاط الأخير قدر الشعب الأمريكى . وهذا القلق **أشد** ازاء اللواطة ـ أى الجماع بين ذكرين ـ منه ازاء السحاق ، اى الجماع بين اثنيين

الشذوذ الجنسى لا يعترف بالطبقات !

• **ومن** البيانات التى جمعناها من عيناتنا ، نجد أن الذين مارسوا الشذوذ الجنسى ـ من الذكور والاناث ـ ويتوقعون ان يستمروا عليه ، يمثلون كافة الطبقات الاجتماعية والاقتصادية ، من أرقاها الى أدناها . وبين الاناث الكبيرات فى السن الممارسات للسحاق ، من يستمتعن بحياة مطمئنة ، وموفقة اجتماعيا واقتصاديا .. بل ومنهن ـ فى كثير من الحالات ـ من أوتين مكانات ومراكز ذات قيمة ، فى النظام الاجتماعى . ولقد كان عدد غير قليل منهن ، ممن شغلن بالدراسة او بغيرها ، فى الفترة التى كان من الممكن أن يعقدن فيها علاقات مع الذكور . وقد وجدن ـ فى السنوات التى أعقبت هذه الفترة من أعمارهن ـ أن الاتصال الجنسى بأفراد من نفس جنسهن ، أيسر منالا . **ولقد اشتملت عيناتنا من هذا الفريق على نساء يشغلن مناصب عليا فى الشركات ، ومدرسات ، وباحثات علميات فى هيئات هامة ، وطبيبات ،**

وطبيبات نفسيات ، ومؤلفات ، وفنانات .. الخ .

ولقد اقترنت كثير من هذه العلاقات، بميول عاطفية شديدة . على أن بعض الاناث ممن خبرن السحاق ، تعرضن لقلق شديد من جراء التجربة . فكثيرا ما يرافق الشعور بالاثم أى نشاط لا يلقى اقرارا من النواحى الاجتماعية والقانونية والدينية .

ولقد كانت بعض هؤلاء - من عيناتنا - صادقات فى اعتزامهن - من تلقاء أنفسهن - عدم مواصلة السحاق . على أن بينهن من لم يرضين عن هذا النشاط ، لمجرد وجود صراع بين الواحدة منهن وزميلة معينة فى العملية ؛ أو لأن هذا النشاط يزج بها فى متاعب اجتماعية .

الشذوذ انحراف عن رسالة الجنس

● وفى الحضارة الأمريكية بالذات ، نجد أن السخط على العلاقات الجنسية بين فردين من جنس واحد ، يرجع الى سلسلة من الظروف لا تكاد تتصل بحماية الفرد أو النظام الاجتماعى فى أوقات حدوث تلك الظروف . فلم يكن فى قوانين الحيثيين ، ولا الكلدانيين ، ولا اليهود الأوائل ، عقوبات شاملة لمثل هذه العلاقات الجنسية ، وانما كانت هناك عقوبات للواطة والسحاق بين الأشخاص الذين يتصلون برابطة الدم والقربى ، او بين الذين يشغلون مراكز اجتماعية معينة، أو اذا استخدمت القوة فى سبيل ممارستهما .

ولم يظهر الاستنكار العام للعلاقات الجنسية بين فردين من جنس واحد ، فى التاريخ اليهودى ، الا حوالى القرن السابع قبل ميلاد المسيح ، عندما قدر لليهود أن يعودوا من تشتتهم وأن يحاولوا تكوين أمة لهم . وفى موجة « القومية » التى غشيتهم اذ ذاك ، شاءوا أن يميزوا أنفسهم عن الشعوب الآسيوية الأخرى ، التى كانت تذهب فى عاداتها الجنسية الى درجة اعتبار استخدام الفم فى النشاط الجنسى من طقوسها

الدينية . ولقد بنى كثير من أوامر التحريم الواردة فى «التلمود» ، على أساس أن الأمور المحرمة كانت من عادات الكنعانيين أو الكلدانيين أو الوثنيين .. **فكان التحريم مبنيا على ان هذه الألوان من النشاط ، كانت من شيم الوثنية ، أكثر منه على انها جرائم شهوية . ولقد ظلت اللواطة والسحاق يقترنان بالزندقة طيلة القرون الوسطى .**

على ان هذه النظرة لم تلبث أن اتخذت طابعا خلقيا ، ثم انتهى أمرها الى أن أصبحت من الأفعال التى يعاقب عليها القانون الجنائى .

ولقد انتقل العرف الجنسى اليهودى الى المسيحية على ايدى رسل الكنيسة الأوائل — كالقديس بولس — ممن نشأوا على التقاليد اليهودية . ولا يزال العرف الجنسى الكاثوليكى معتبرا كاستطراد للعرف اليهودى .

ويرجع تحريم العلاقات الجنسية بين فردين من جنس واحد — فى أصله — الى انها لا تؤدى الى الغاية الرئيسية للجنس ، وهى التناسل . فهى بذلك «تنحرف» عن السلوك الجنسى العادى . ومن هنا تسمى « شذوذا » . ومن المسلم به ان انتشار هذا الشذوذ يهدد وجود النوع البشرى ، كما يهدد كيان الأسرة .. وبالتالى كيان المجتمع .

العقاب من نصيب الرجال وحدهم !

• **واذا** كان من المستحيل على القوانين أن تمنع الميول او النشاط الجنسى الشاذ — بين فردين من جنس واحد — منعا باتا ، الا أنها تنص على عقوبات لبعض أو كل الأنواع المستخدمة فى هذا اللون من النشاط . وهذه العقوبات قاسية ، فى جميع الولايات الأمريكية .. بل انها تفوق فى القسوة — فى بعض الولايات — ما يفرض على أشد جرائم العنف ، لا سيما اذا كانت الصلة الجنسية — التى من هذا النوع — مقرونة بالقوة ،

أو كانت بين شخص بالغ وآخر قاصر . وهناك ولاية واحدة فى امريكا ــ هى ولاية نيويورك ــ لا تفرض فرضا مباشرا ــ بسبب الصيغة التى كتبت بها نصوص قانونها ــ عقوبات على اللواطة والسحاق ، اذا تم اى نشاط منهما فى السر ، وباتفاق الطرفين ، وكان هذان الطرفان بالغين . وهذه الظاهرة تبدو ــ كذلك ــ فى القوانين السكندنافية ، وفى قوانين كثير من الدول الأوربية !

ومن الغريب ان قوانين الحيثيين القدامى ، كانت تقصر التحريم والعقاب على اللواطة دون السحاق ، وكانت تقصر العقاب على حدوث اللواطة فى ظروف معينة فحسب . كذلك نجد أن ما ورد فى التوراة ، والتلمود ، عن العلاقات الجنسية الشاذة ، انصب فى جوهره على اللواطة وحدها . وكانت العقوبة ترقى الى درجة اعدام الذكر المعتدى .. وحتى الحالات التى أشير فيها الى السحاق ، لم تقترن الاشارة بأى عقاب قط ! كذلك نجد ــ فى سجلات القرون الوسطى ــ ذكر قضايا حكم فيها بالاعدام على ذكور مارسوا اللواطة . ولكنا لا نجد أى ذكر لقضايا خاصة بالسحاق ! .. ولا تزال القوانين الحديثة ــ فى أوربا وانجلترا ــ تقتصر على ذكر اللواطة وحدها .
ولكن صياغة القانون الأمريكى ، تمكن من تطبيق العقوبات على اللواطة والسحاق على السواء ، اذ انها نصت على عقاب « من يمارس الصلات الجنسية مع شخص من نفس جنسه » ، دون تمييز بين الذكور والاناث .. وهذه الظاهرة تلاحظ فى قوانين جميع الولايات الأمريكية ، اللهم الا خمسا منها فقط !

سر تغاضى المجتمع عن شذوذ الاناث

● **وليس** ثمة سبب واضح لهذه الفوارق البارزة بين اتجاه القانون واتجاه العرف الاجتماعى ازاء الشذوذ الجنسى بين النساء ، والشذوذ الجنسى بين الذكور . على انها قد تكون

مترتبة على العوامل الآتية ، وربما على عوامل أخرى اكثر منها :

١ - **كانت** الاناث أقل أهمية عند الذكور فى الحضارات القديمة - ومنها الحثية واليهودية - كما ان العلاقات بين الاناث بعضهن وبعض ، كانت مستترة ومتوارية اكثر مما هى الآن

٢ - **العلاقات** الجنسية بين الاناث بعضهن وبعض ، اقل حدوثا وشيوعا وتكررا - بكثير - من مثيلاتها بين الذكور بعضهم وبعض

٣ - **أثر** اللواطة على زواج الذكور ومحافظتهم على الحياة الزوجية ، أقل من أثر السحاق على زواج الاناث واستمرارهن فى الحياة الزوجية .

٤ - **نصت** الشريعة الكاثوليكية على أن تبديد المادة المنوية للذكر ، فى جماع لا يثمر نسلا ، يعتبر خطيئة واثما . ولكنها لم تر فى العمل المشابه من الانثى نفس الشىء

٥ - **استنكار** الرأى العام للتخنث بين الذكور - الذين يتقبلون اللواطة - اشد من استنكاره للاناث اللائى يمارسن السحاق

٦ - **عطف** الرأى العام على الاناث اللائى لم يتزوجن - والمسنات منهن بوجه خاص - يجعله يتغاضى عن علاقاتهن الجنسية بأناث مثلهن

٧ - **النظام** الاجتماعى الأمريكى ، اشد عناية - فى الوقت الراهن - بالعلاقات الجنسية بين البالغين والذكور الأحداث أو القاصرين ، بحيث انه يتغاضى عن مثيلاتها بين الاناث لقلتها ولعدم ترتب اضرار مادية ظاهرة عليها .

علاقات الاناث بالحيوان ، من وحى الذكور !

• **والواقع** ان اهتمام المجتمع الأمريكى بالسحاق لا ينبعث

الا عن تأثير هذا النشاط على زواج الانثى او على محافظتها على الحياة الزوجية . على انه ـ من ناحية أخرى ـ لم يبين قط اى اتجاه ينم عن استعداده لأن يفرض عقوبات على الاشخاص الذين لا يتزوجون ، ذكورا كانوا أو اناثا .

ويبدى كثير من الاشخاص ـ سواء فى أوربا أو أمريكا ـ تسامحا ازاء السحاق ، ما لم ينطو على استعمال القوة أو الارهاب أو الاغتصاب .

والواقع ـ كذلك ـ ان الذكور هم الذين أبدوا ، عبر التاريخ ، اهتماما كبيرا بالاتصالات الجنسية غير المألوفة ، او الشاذة . ومن ذلك ، الاتصال الجنسى بالحيوان .

ولقد حفل تاريخ البشر ـ منذ أقدم عصوره ـ واساطيرهم وآدابهم الشعبية ، بالعلاقات الجنسية بين اناث من البشر وحيوانات . فنحن نجد فى الأساطير الاغريقية والرومانية القديمة ، ذكر لعلاقات بين نساء وحيوانات كالبغال والدببة والقرود والثيران والخيل . **على انها كلها ـ فى الواقع ـ مجرد خيالات ، لا تمثل سوى الأمانى التى تجول بمخيلة الذكور اذ يتوقون الى أن يمارسوا مختلف ألوان النشاط الجنسى . وذلك لأن الذكور اكثر تعرضا للتهييج الجنسى من الاناث . ومن ثم فان الذكور أنفسهم ـ لا الاناث ـ هم الذين كثيرا ما يقدمون على الاتصالات الجنسية مع الحيوانات .** وقد أوردنا ـ فى الجزء الخاص بالذكور من بحثنا ـ احصاءات ووقائع عن ممارسة فريق من أبناء الريف الامريكى لهذا اللون من النشاط الجنسى

« التلمود » يحرم انفراد الانثى بالحيوان !

• **ولقد** وجدت اشارات كثيرة ـ فى الشرائع والقوانين القديمة ـ الى اتصالات الذكور من البشر بالحيوان ، وقد نص على عقوبات لذلك . على أن أقدم هذه الشرائع أبدت جهلا احتمال قيام علاقات جنسية بين الاناث والحيوان . **وان كانت**

((التوراة)) لم تتجاهل ذلك ، بل حرمت مثل هذه العلاقات، وأمرت باعدام الانثى والحيوان معا . وجاء « التلمود » فكان اكثر ايرادا لهذه العلاقات من «التوراة» ، وردد أوامر تحريمها ووجوب معاقبة ممارساتها من الاناث . بل لقد ذهب ((التلمود)) الى درجة تحريم انفراد الانثى مع حيوان فى خلوة ، لتفادى شبه احتمال قيام علاقة بينهما !

أما الشريعة الكاثوليكية ، فتسير ـ بحكم المنطق ـ على القاعدة التى لا تبيح الوظيفة الجنسية الا لانجاب النسل ، عن طريق الزواج .. ومن ثم فان لاتصال الأنثى بالحيوان ، حكم أى نشاط آخر ينحرف أو «يشذ» عن الطبيعة ، وعن الوظيفة الرئيسية للجنس . ومن ثم فهو خطيئة .. سواء اذا اقتصر على مجرد الرغبة والاشتهاء ، أو تجاوزهما الى الفعل . وهى ترى أن مس العضو التناسلى للحيوان ـ بدافع من الفضول ـ خطيئة ، أما لمسه بدافع من الشبق فانه اثم كبير . ويتجه الرأى ـ فى الشريعة الكاثوليكية ـ الى ان ممارسة اية علاقة جنسية مع الحيوان ، ولو دون الجماع ، كافية للتفريق بين الزوجين !

علاقة الجنس بالتركيب العضوى للذكور والاناث

• ولقد كان الرأى الشائع من عهد بعيد ، هو ان الفوارق فى تركيب جهازى التناسل لدى الذكور والاناث ، واختلاف وظائفهما ، من شأنها ولا بد أن تؤدى الى فوارق كبيرة ـ مماثلة ـ فى النواحى العضوية والنفسية للجنسين . ونظرا لما لمثل هذا الرأى من اثر فى العلاقات الاجتماعية الانسانية ، فمن المهم أن نمحصه ، وأن نقدر قيمة نواحى الشبه ونواحى الاختلاف بين التأثيرات التى تطرأ على الاستجابة وبلوغ ذروة اللذة لدى الجنسين ، والتى تنشأ أصلا عن التركيب التشريحى

لكل منهما . وقد خرجنا من دراساتنا للبيانات التى جمعناها من عيناتنا بما يلى :

١ ــ **أعضاء** اللمس هى الأسس الرئيسية فى التجاوب الجنسى لدى الجنسين . وليس ثمة ما يدعو الى الاعتقاد بوجود اختلاف فى مواقع هذه الأعضاء ، أو فى عددها ، او فى طاقتها واستعدادها للتجاوب عند الاستثارة من أحد الجنسين الى الجنس الآخر

٢ ــ **لاوجه** لوجود فوارق فى الميزات المشتركة بين الجهازين التناسليين للذكر والانثى . فلم يعرف حتى الآن ان عضو التذكير قد أوتى اعصابا حسية تزيد عما أوتيه عضو التأنيث ، رغم ان الاول يكبر الثانى حجما

٣ ــ **تركيب** جهاز الانوثة ، يزوده بمناطق حساسة اكثر اتساعا مما أوتيه جهاز التذكير .

٤ ــ **كبر** حجم جهاز التذكير ، وطبيعة التركيب الداخلى لعضو الأنوثة ، من العوامل التى تحدد دورى الجنسين فى الجماع . فالأنثى قد تجد فى وظيفتها ــ اذ تكون الطرف الذى يستقبل ــ ارضاء نفسيا ، فى حين أن الذكر يلتمس هذا الارضاء فى الايلاج . ولكن هذا لا يقوم كمبرر واضح لما يتصف به الذكر العادى من أنه أكثر عنفا وهجوما من الأنثى العادية ، فى العملية الجنسية . ويبدو أن هذا التباين يرجع الى سبب آخر غير التركيب العضوى للجهازين التناسليين

٥ ــ **ثبت** ان المهبل لدى الانثى يساعد على الاثارة الحسية للرجل اكثر منه على الاثارة الحسية للمرأة

٦ ــ **وكذلك** ثبت ان ثديى الانثى قد يثيران اشتهاء الذكر اكثر مما يثيران المرأة . . فان الاثارة التى يحدثها مسهما لدى الانثى متوسطة .

٧ – تتساوى الاثارة الحسية الناشئة عن لمس الفم او الردفين أو داخل الفخذين لدى الذكر والأنثى

٨ – ليس ثمة ما يدل على أية فوارق بين استجابة الذكر واستجابة الانثى للاستثارة التى تقوم على حواس البصروالشم والذوق والسمع

ومن ثم نرى أن الفوارق التشريحية بين عضوى الذكورة والانوثة طفيفة . ومع انها ذات أثر فى وظائف الجنسين المتعلقة بالانسال ، الا أنها ليست عظيمة الاثر فى التطورات الاصيلة المؤدية الى التجاوب وبلوغ ذروة اللذة . واذا كانت ثمة فوارق جنسية أساسية بين الذكر والانثى ، فهذه الفوارق تنبعث فى الواقع من نواح أخرى غير التركيب العضوى أو التشريحى

التعلم والتكيف يحددان السلوك الجنسى

• من أهم الخواص المميزة للكائنات الحية ، قدرتها على التغير والتكيف وفقا لتجاربها ، وان كان العلماء والكيمياويون لم يوفقوا – حتى الآن – الى ايضاح كاف لمبعث هذه الصفة . فبطريقة ما – لم يقدر للعلم بعد أن يلقى عليها اضواء كافية – تتعدل الخلايا الحية فى النبات والحيوان ،ومجموعات الخلايا، والانسجة ، والاجهزة ، فى الحيوانات الراقية ، بفضل تجاربها فى حياتها .

والتعلم والتكيف من الأدوار المألوفة فى الحياة اليومية للانسان ، فان التجارب التى يصادفها تؤثر ابلغ التأثير على سلوكه بعدها . ولقد اصاب « فرويد» وعلماء النفس والاطباء النفسيون فى ابراز اهمية تجارب المرء فى حداثته ، ولكن هذا لايجب أن ينسينا ان المرء قد يظل مستمرا فى التعلم والتكيف، بفضل المواقف الجديدة التى قد تصادفه فى اى وقت من عمره .

والعقل يساعد الانسان على أن يكون اكثر استعدادا من الحيوان للتعلم والتكيف ، لا سيما فى السلوك الجنسى . فالتباين فى السلوك الجنسى بين البالغين ، يقوم على التكيف أكثر مما يقوم على الفوارق الكبرى فى التركيب التشريحى أو العضوى للأجهزة التناسلية

ذلك لان الطاقة الجنسية التى يكتسبها الفرد بمولده . لا تتجاوز الطاقة التشريحية والعضوية على الاستجابة لاثارة بدنية أو نفسية . وليست بأحد حاجة الى ان يتعلم كيف يؤلف التوترات العصبية والعضلية التى تؤدى الى حركات الحوض التى تصحب الجماع ، أو الى ان يخلق أية استجابات تفضى الى ذروة اللذة . **على ان معظم نواحى السلوك الجنسى البشرى — فيما عدا هذه — تأتى نتيجة التعلم والتكيف . فمنذ الوقت الذى يولد فيه الطفل — بل وقبل المولد — يتهيأ له الاتصال ببعض العناصر التى تدخل فى نطاق الجنس فيما بعد .. ويتعلم الطفل منذ أول احتكاك له بالاشياء — لا سيما الاجسام البدنية الاخرى — ان ثمة الوانا من الارضاء أو المتعة ، يمكن نيلها عن طريق الاستثارة الحسية .**

ثم لا يلبث الطفل ان يتعلم من اولى تجاربه الجنسية مع الافراد الآخرين ، ما للعلاقات الجنسية من جزاء او عقاب .. وعن طريق ابويه ، وغيرهما من الكبار ، وغيره من الأطفال ، ومن الوسط والمجتمع ، يبدأ فى اكتساب اتجاهاته نحو بعض الأمور كالعرى ، والفوارق العضوية بين الذكر والانثى ، والتناسل .. ولكل هذه الاتجاهات قيمة ليست بالقليلة فى تحديد قبول الفرد او تحاشيه ألوانا معينة من النشاط الجنسى !

التجارب تؤدى الى تباين الميول الجنسية للافراد

• **وكنتيجة** للتجارب ، نجد أن الحيوان يكتسب الوانا معينة

من السلوك ، تنم عن تأثر ايجابى بأنواع معينة من الاثارة ، وتأثر سلبى بأنواع أخرى .. وعن درجة هذا التأثر

ومن هنا نرى أن الفرد قد يفضل اصنافا معينة من الأفراد، ليمارس معهم الوان النشاط الجنسى . فهناك من يفضل قصار القامة دون الطوال ، ومن يفضل السمر دون البيض ، ومن يفضل من يصغرونه فى السن ، أو من يكبرونه ، او من يعادلونه فى العمر .. وهناك من قد يفضل ان يكون شريكه فى النشاط الجنسى من نفس جنسه — وهو مايؤدى الى اللواطة أو السحاق — ومن يؤثر أن يكون شريكه من الجنس الآخر .. وكثيرون يفضلون الاستمناء على أى لون من النشاط الجنسى يتطلب شريكا !

كل هذه الميول او الاختيارات ازاء عامل معين من عوامل الاثارة او التهيج قد تبدو معقولة بالنسبة للشخص المعنى بها ، ولكنها قد تبدو غير واضحة ، أو غير طبيعية، أو شاذة ، لمن لم يتكيف وفقا لنفس هذا اللون من التجربة . **وبالتالى ، فان كثيرا من الوان السلوك التى تلوح لبعض الناس غير معقولة، او منطوية على انحراف او شذوذ ، قد تجد تقديرا من افراد آخرين ، نظرا للطريقة التى تكيفوا بها فى هذه الناحية !**

ومن ثم فان اللذة الجنسية التى تأتى عن ايلام الغير ، اوعن ايلام الذات — وما الى ذلك من الوان الانحراف الجنسى — تبدو نتيجة للتكيف الذى يقترن أحيانا ببعض معالم شخصية الفرد ومقدراته الجسدية والتشريحية الموروثة او المكتسبة . فالشخص الذى يتهيج لمرأى جورب حريمى ، يفسر تهيجه بأن الجورب الحريمى يمثل له جسد الانثى .. والذى يتهيج لدى رؤية سيارة فى الطريق ، انما يعكس تجربة سابقة اقترنت فيها سيارة فى الطريق بشريك مرغوب جنسيا . ومن ثم فان تهيجه لا يختلف عن تهيج الشخص الذى يرى امامه انثى !

٣٢ مصدرا للانفعالات الجنسية

• **ويتوقف** قدر كبير من التكيف الذى يطرأ على السلوك الجنسى البشرى ، على الحقيقة المتمثلة فى ان الحيوان البشرى – بما أوتى من امكانيات خارقة للاتصال بأفراد نوعه ، عن طريق الكلام ، او الكلمات المطبوعة ، او الصور .. الخ . – قد يستطيع أن يتقاسم مع عدد كبير من الناس ، تجاربهم الجنسية . وهذا من شأنه ان يؤثر على ممارسته للون من الوان النشاط الجنسى ، أو عزوفه عن هذا اللون . **وكثير من الناس يجدون ما يثيرهم فى الانصات الى قصص النشاط الجنسى التى يرويها سواهم ، أو فى قراءة المغامرات الجنسية. وكثير من الافراد يتهيأون – أو يتكيفون – لنوع معين من النشاط الجنسى ، حتى قبل أن تكون لهم تجربة به ! .. كما أن الفرد قد يتهيأ للتهييج بسبب شىء أو ظاهرة تتصل بالتجربة الاولى** . ويلاحظ هذا فى الحيوانات الثديية – بوجه عام – فنرى ان الذكر من الكلاب أو القطط ، قد يتهيج جنسيا اذا ما اقترب من الاماكن التى مارس فيها من قبل تجربة جنسية!

ونجد – بوجه عام – ان الذكور اكثر تهيؤا وتكيفا بتجاربهم الجنسية والعوامل المقترنة بها ، من الاناث . وفى الوقت الذى لا نعثر فيه على فوارق جوهرية فى التركيب البدنى الذى يتعلق بالاستجابة الجنسية لدى الاناث او الذكور .. ولكنا نجد تفسيرا للتباين فى السلوك الجنسى ، فى الانفعالات النفسية . وهذه الانفعالات تتولد عن ٣٢ مصدرا ، أهمها :

مشاهدة الجنس الآخر ، ومشاهدة أشخاص من جنس المرء ذاته – وهذه ظاهرة تتصل باللواطة أو السحاق – **والفنون الجميلة التى تصاغ للاثارة – كرسم الجسم الانسانى او بعض أجزاء منه فى أوضاع خاصة** – ومشاهدة الاعضاء التناسلية

للغير ، ومشاهدة المرء عضوه التناسلى ، وعرض العضو التناسلى على الغير ، والعبث به ، **ومشاهدة الافلام السينمائية التى تهدف الى الكسب من وراء الاثارة ، ومشاهدة «النمر» الماجنة فى المسارح والصالات** ، ومشاهدة الغير أثناء ممارستهم العملية الجنسية ، ورؤية الصور والرسوم التى تبين هذا ، ومشاهدة الحيوانات أثناء الجماع ، واستراق النظر الى الجنس الآخر خلال ثقب مفتاح الباب — او ما الى ذلك — والتخيلات المثيرة التى تدور حول الجنس الآخر ، والتخيلات المثيرة التى تدور حول افراد من الجنس ذاته ، والتخيلات التى يتصورها المرء أثناء ممارسة الاستمناء ، والاحلام الجنسية أثناء النوم ، والتهيج من جراء الحركات أثناء ممارسة العملية الجنسية ، والتهيج بالمواد الادبية ، كالروايات ، والشعر ، الخ .

الأنثى أكثر وفاء لقرين واحد

• **وهناك** مصادر عجيبة للتهيج ، كالكتابة او الرسوم الفاضحة على الجدران .. وكبعض التصرفات السادية او الماسوتشية — مثل العض والقرص — وكبعض الأشياء التى لا علاقة لها بالأعضاء التناسلية — مثل الثياب — او ارتداء المرء لثياب الجنس الآخر !

ولقد ذكرنا — فى حلقة سابقة — ان فترات النشاط الجنسى لدى الأناث ، كثيرا ماتكون غير متصلة .. اى انها تكون متباعدة وغير منتظمة . فقد تتخلل فترات النشاط أسابيع أو شهور — بل سنوات أحيانا — بدون أى نشاط جنسى على الاطلاق . وتلاحظ هذه الظاهرة احيانا لدى أناث ممن يكن — فى بعض الفترات — كثيرات الاقبال على التفريج الجنسى .

ومن المعروف لدى كل الاقوام — فى كل مكان فى الدنيا — أن الرجال أكثر من النساء اشتهاء للعلاقات الجنسية — مع

عدد متباين من الشركاء ــ وان الانثى اكثر مقدرة على ان تبقى وافية لشخص واحد من الجنس الآخر ، او بمعنى أدق ، لزميل واحد فى النشاط الجنسى ، سواء كان هذا الزميل من جنسها أو من الجنس الآخر ! .. وقد يعزى هذا الى أن الأنثى أقل تهيجا من الذكر فى المتوسط !

ولعل السبب فى ازدياد رغبة الذكر ــ عن الانثى ــ فى تعدد وتنوع الشركاء فى النشاط الجنسى ، يرجــع الى أنه أوتى مقدرات وامكانيات نفسية ، كثيرا ما لا تتوفر لدى الأنثى . فالذكر أكثر تهيجـا من الانثى اذا ما رأى شريـكة يجوز أن يشتهيها .. وهو أكثر من الانثى انفعالا لانه أكثر منها تكيفا بتجاربه السابقة ، واكثر تدبيرا لأنواع جديدة من النشاط ، ومن الشركاء ، ومن الفرص .

قيمة العامل الجنسى فى الزواج

• **وتدل** البيانات التى حصلنا عليها فى دراساتنا ، على ان الأنثى ــ فى المتوسط ــ تتزوج لتنشىء بيتا واسرة وعلاقة عاطفية طويلة العمر مع زوج واحد ، تنجب منه ابناء تكون رفاهيتهم هى شاغلها الرئيسى فى حياتها . ومعظم الذكور يقرون بان كل هذه نواح مرغوبة فى الزواج ، ولكن من المحتمل أن قليلا من الذكور كانوا يقبلون على الزواج لولا انهم يصبون من ورائه الى أن يضمنوا فرصا منتظمة ومستمرة للجماع .

ومن ناحية أخرى ، فان الذكر أكثر استعدادا لان يسخط على الزواج ، اذا لم يجد فيه ارضاء لحاجته الجنسية ، وبالتالى فانه اكثر من الأنثى استعدادا لان يفصم عراه .

ومن اليسير أن نفسر هذه الفوارق بين مسلك الذكر ومسلك الأنثى ازاء الزواج ، بأنها نتاج فوارق خلقيــة متغلغلة لدى الجنسين . كما يمكن تفسيرها بأنها نتاج ازدياد أهمية الأنثى عن الذكر فى حمل وانجاب النسل ، وحفظ النوع . ولكن كلا

من هذين التفسيرين غير كاف .. والظاهر ان هذه الفوارق فى اتجاه كل من الذكر والأنثى نحو الزواج ، يتوقف أصلا على أن الذكر العادى مكيف بطبعه – أو بالأحرى مهيأ – لأن يكون أشد من الانثى حاجة الى التفريج الجنسى المنتظم ، المتقارب الفترات

ولقد وجدنا – فى القسم الخاص بالذكور من هذا البحث – أن العوامل الاجتماعية ذات اثر كبير فى تحديد انواع السلوك الجنسى لدى الذكور . بينما خرجنا من دراساتنا للأناث ، بأن العوامل الاجتماعية قليلة الأثرفى تحديد أنواع السلوك الجنسى لديهن !

من ذلك اننا وجدنا أن مستوى التعلم الذى انتهى اليه الذكر ، يتمشى تمشيا ملحوظا مع أنواع سلوكه الجنسى . فالذكور الذين انتهوا فى تعلمهم الى مرحلة التعليم الثانوى ، يعتمدون اعتمادا رئيسيا على الاستمناء،وهم أقل من سواهم ممارسة للجماع كوسيلة للتفريج الجنسى قبل الزواج . فى حين أن نسبة الاعتماد على الاستمناء – قبل الزواج – لدى الذين اكتفوا بمرحلة التعليم الاعدادى ، تعادل نصف نسبتها بين الذين أصابوا تعليما ثانويا . اما نسبة اعتمادهم على الجماع ، فتبلغ خمسة امثال النسبة لدى هؤلاء .

وعلى النقيض من ذلك ، نجد ان العلاقة بين مستوى التعلم وأنواع النشاط الجنسى غير ملحوظة لدى الأناث . اما درجة التقوى الدينية فانها ترتبط بالنشاط الجنسى لدى الأناث والذكور ، على السواء . وقد تبينا من فحص بيانات عيناتنا ، ان النشأة الدينية منعت بعض الاناث والذكور من ممارسة بعض الوان من النشاط الجنسى . كما أن معدل ممارسة ألوان النشاط – فيما عدا الجماع فى ظلال الزوجية – منخفض لدي ذوي التقوي الدينية عنه لدي سواهم .

استعدادنا لتقبل الحقائق ، هو العلاج الأول ..

• **ولقد** كان الرأى السائد ـ منذ كثير من القرون ـ هو ان الفوارق بين الاستجابات الجنسية لدى الأناث ولدى الذكور، انما تنشأ عن التباين فى كمية الاعصاب الحسية وتوزيعها لدى كل من الجنسين . كذلك كان ثمة ظن فى أنها ترجع الى تباين دورى الذكر والانثى فى الجماع وانجاب النسل .

ولكنا لم نجد فى دراساتنا ما يؤيد ذلك ، كما اننا لم نجد فى التركيب التشريحى أو العضوى ما يبرر الاختلاف بين الجنسين . على أن ثمة اختلافا حقا فى استجابة كل من الذكر العادى والانثى العادية ، لعوامل الاثارة النفسية .

ويتوقف امكان التوفيق بين الميول والامكانيات الجنسية المختلفة للأناث والذكور ، وامكان تحقيق التوافق الجنسى فى الزواج ، وامكان تعديل النظريات الاجتماعية للتقريب بين أوجه الاختلاف ، بين الذكور والاناث .. يتوقف كل هذا على مدى استعدادنا لتقبل الحقائق الواقعة ، التى اسفرت عنها البيانات ، التى جمعناها فى بحثنا هذا

تم اعظم بحث فى تاريخ البشرية ، فى السلوك الجنسى للبشر

– * –

« الكشاف »

مجلة النشء العربى

يصدر قريبا عن مجلة « الكشاف » عدد خاص بالمؤتمر الكشفى الدولى السادس عشر ، الذى عقد فى كمبريدج (انكلترا) خلال الصيف الفائت. وهو يتضمن جميع الأبحاث والمقررات التى صدرت عن هذا المؤتمر ، والنص الكامل لمشروع « عملية اليوبيل » التى اقرها المؤتمر ، والتى تهدف الى رفع المستوى الكشفى العالمى خلال السنوات الخمس القادمة .

سجل ضخم للأحداث الكشفية الدولية التى رافقت المؤتمر ، ومجموعة من الرسوم المختارة لوفد لبنان وسائر الوفود العربية والدولية ، يحتويها كلها العدد الخاص الممتاز الذى سيصدر قريبا عن مجلة «الكشاف»

ويلى هذا العدد عدد خاص آخر عن المؤتمر القومى الثانى للكشافة التونسية ، وعن التجمع الكشفى والمؤتمر الثانى للشبيبة الاستقلالية فى المغرب . وسيكون هذا العدد ايضا مرجعا قيما لكل ما يتصل بحركتى الكشف والشباب فى القطرين العربيين الشقيقين : تونس والمغرب

كتاب البحث الطبى

فى الامراض البولية والتناسلية المستعصية ، وتضخم البروستاتا التى هى سبب العلل فى جسم الانسان .. وطريقة علاجها بجهاز ((فهجر)) الذى لا يستعمله الا مخترعه مؤلف هذا الكتاب ، الدكتور فهمى جرس — ٧٨ شارع الجمهورية (ابراهيم باشا سابقا) ت ٥٦٢٠٤ ويطلب من المؤلف ((٥٠ مليما))

MEMOIRES
DE
CASANOVA
مغامرات في الحب والسياسة !
مذكرات
كازانوفا
الكتاب الكلاسيكي الخالد
في أدب العشق
والمغامرة

جرس -
ت ٥٦٢٠٤

الآن .. نودع ((كازانوفا)) !

.. ان الجزء الاخير من مذكرات أمير العشق والمغامرة ، منقطع الاواصر ، مفكك الحلقات ، تتخلله كثير من الصفحات الضائعة .. وبهذه الحلقة نكون قد بلغنا نهاية هذه المذكرات التى كتب لها الخلود فى دنيا الادب ، كتحفة من أروع تحف الادب الكلاسيكى

وسواء كانت جميع المغامرات التى أوردها ((كازانوفا)) فى هذه المذكرات ، حقائق وقعت فعلا ، أو كانت حقائق داخلها شىء من الخيال ، أو كان بعضها من نسج الخيال المحض .. سواء كان هذا أو ذاك ، فان المراجع التاريخية أجمعت على أن ((كازانوفا)) كان عاشقا مغامرا ، ابتدع فى العشق فنونا . وكان ((بوهيميا)) نادر الطراز .. وكان مبارزا لايبارى ، وأديبا لسنا بحاجة الى اثبات تفوقه الادبى ، وبين أيدينا مذكراته تشهد على ذلك !

فتعال نودع ((كازانوفا)) فى مغامراته الاخيرة !

((كازانوفا)) ... فى روما !

• انتهى بى المطاف ـ بعد أن زرت فرنسا وانجلترا واسبانيا ـ الى الاقامة فى مسكن مفروش ، يواجه قصر السفير الأسبانى فى (روما) . وأصبحت أقضى الشطر الأغلب من صباحى فى صحبة الكاردينال دى برنيس ، والأمير دى سانتا كروشى ، وسفير البندقية .. ولقد كانت هذه الفترة من اسعد فترات حياتى ، اذ كنت أقضى أمسياتى فى صحبة دوقة فيانو . والأصيل فى رفقة الأميرة دى سانتا كروشى . اما ما يبقى بعد اوقاتى ، فكنت أفرغ فيه الى ((مارجريت)) ـ ابنة مسكنى ومديرته ـ وشاب كان يقيم فى البيت ذاته . ((منيكوتشيو)) ، شعرت نحوه بميل شديد .. وكان يحدثنى عن فتاة تدله فى هواها ، وراح يسهب فى وصفه حتى أثار شوقى الى رؤيتها .. **ولكنها كانت حبيسة داخلية ـ تابعة لأحد الاديرة ـ اودعت فيها منذ كانت**

فى العاشرة من عمرها ، ولم يكن لها أن تبارحهـا الا لتتزوج ، واذ ذاك كانت المؤسسة تمنحها مائتى « كروان » رومانى بمثابة « دوطة » لها . وكان « منيكوتشيو » قد رأى هذه الفتاة أثناء تردده على المدرسـة لزيارة شقيقـة له من نزيلاتها . وكانت المؤسسة فى أيدى نسـاء لم يكن راهبات بالمعنى الصحيح ، ولكنهن كن متشبثات بالبقاء فى هذا السجن ، اذ لا مورد لهن للعيش فى الخارج !

وبفضل الكاردينال ، استطعت ان ارافق الشاب فى زيارة المدرسة . وجلسنا فى غرفة معتمة الى جانب الباب الخارجى ، وما لبث أن أقبل على الغرفة شبحا فتاتين فى رفقة المشرفة . وكان من العسير ان اتبين شيئا من ملامحهما فى العتمة ، وان عرفت ان شقيقة منيكوتشيو كانت صاحبة الصوت العذب .

يعمل على اصلاح « سجن العذارى » !

• **ولم** تكن المشرفة تتجاوز الثلاثين من عمرها ، فرحت اجاذبها أطراف الحديث . وعلمت منها ان التلميذة اذا تجاوزت الخامسة والعشرين ، عينت مشرفة على التلميذات الصغيرات .. فاذا بلغت الخامسة والثلاثين ، جاز لها ان تبرح المدرسة ، وان كان معظمهن يؤثرن البقاء فيها !

وقلت لها : « اذن فلا بد ان بينكن عـددا كبيرا من المكتهلات ؟ »

ـ ان عددنا يربو على المائة ، ولا يهبط به سوى الموت او الزواج .. على اننى لم أشهد ـ خلال العشرين عاما التى قضيتها هنا ـ سوى أربع تزوجن ، ولم يتح لهن ان يرين أزواجهن الا أمام المذبح .. **فان الكاردينال لا يقبل طلبا من أحد يريد الزواج من فتيات المؤسسة ، الا اذا استوثق من انه يستطيع ان يعولها ! .. وهو لا يسمح الخاطب بأن يشهد الفتيات ويختار من تحلو له منهن ، بل ان كل ما يباح له هو أن يذكر السن والاوصاف التى يريدها فى الزوجة المنشودة ، فيعهد الكاردينال الى مديرة المؤسسة باختيار فتاة تتوفر فيها تلك الأوصاف**

ولم أدر كيف كانت الانسانية تسمح بقيام مؤسسة كهذه .. ولقد تحدثت الى الكاردينال بهذا الصدد ، بحضور الاميرة دى سانتاكروشي ، واتفقنا على أن نرفع الى « البابا » التماسا ، ليباح لنزيلات المؤسسة ان يستقبلن الزائرين تحت اللوائح والقيود التى تطبق فى الاديرة ! .. وفعل الالتماس ـ الذى جمعت الاميرة له توقيعات من علية القوم ـ فعله فى نفس البابا « جانجانيللي » ، الذى لم يكتف بما طلبنا ، بل أمر بالعمل على أن لا يزيد عدد الباقيات فى المؤسسة ـ فى اية فترة ـ على خمسين فتاة ، وبمضاعفة قيمة « الدوطة » .. وبأن تفصل الفتاة التى تتجاوز الخامسة والعشرين دون ان تتزوج ، على أن تتسلم دوطتها كمنحة تستعين بها على العيش !

يعشق فتاة صغيرة رغم شيخوخته

• وفى أول يوم أبيحت فيه الزيارات ـ بعد هذه التعديلات ـ رافقت منيكوتشيو .. وشاهدته فتاته ، فاذا بها مفرطة الجمال .. على أن اخته كانت فاتنة حقا ، وكانت فى حوالى السادسة عشرة .. أبدا لم أر في حياتي مثل بشرتها بياضا ،

ومثل شعرها وعينيها سوادا . على أنها كانت مفرطة الشحوب ، مما كان ينم عن ان فى أعماقها نيرانا تستعر ! .. والحق أننى شعرت بقلبى يتعلق بأرميلينا ـ كما كانت تدعى ـ ولكنى استنكرت من نفسى ان اعشق صبية فى سنها ، فزعمت لاخيها اننى متزوج ، لأقى نفسى نزوات فؤادى ، ولاصد أرميلينا عن ان ترعى آمالا لا تلبث أن تمنى بخيبتها !

ومع ذلك فاننى لم أقوعلى أن اكبح نفسى عن زيارة ((أرميلينا)) فى الساعة التاسعة من كل صباح ، واعتدت ان اتناول قهوة الصباح معها ومع ايميليا ـ حبيبة «نيكوتشيو ـ ثم أبارحهما فى الساعة الحادية عشرة . وفى احدى المرات ـ وكان ذلك فى سنة ١٧٧١ ـ رحت اتوسل الى ((أرميلينا)) ان تقبلنى ، فتضرج وجهها ، وغضت بصرها . ولكنها لم تجب سؤالى رغم الحاحى . واشفقت الاميرة على من هذا الهوى الفاشل ، بيد انها لم تكن تملك لى عونا ! .

واخيرا يئست ، فقررت أن ابتعد عن المغامرة . وقضيت ثمانية ايام لم أر فيها الفاتنة المسرفة فى تمسكها بالفضيلة . على أننى تلقيت رسالة من مديرة المؤسسة ، جعلتنى ابادر بزيارتها . وكانت المديرة صريحة ، فما أن علمت اننى كففت عن زيارة المؤسسة ليأسى من «ارميلينا» وهواى ، حتى نبهتنى الى ان هذا الانقطاع المباغت من شأنه ان يثير الاقاويل حول الفتاة المسكينة ، وان يوحى بأننى اشبعت نزواتى نحوها ، ثم نبذتها !

ووافقت على ان أعاود زياراتى ، وفى الصباح التالى ، ذهبت كعادتى السابقة ، فهبطت لى « اميليا » ، وراحت توسعنى لوما على قسوتى . فقلت : « انما اردت ان لا احملها على ان تشعر باننى اغويها .. افتظنين ان مسلكى كان سهلا بالنسبة لى ؟ »

واقبلت ارميلينا ، فخيل الى ان شكلها قد تغير .. وقلت

لها اذ عاتبتني : ((**انما ارجوك ان تساعديني على ان ابرىء نفسي بالوسيلة التي أراها ناجعة ! .. انني ارجو – اذ أقلل من رؤيتك – ان أغالب فؤادي !))**

– يبدو ان من العسير عليك ان تحبني كما احبك .. فأنا أحسن السيطرة على نفسي حين أشعر أن هواي يوشك ان ينأى بي عن مبادىء !

– هذه سياسة لا أمل لدى فى أن أحذقها ، فى سنى هذه ! .

– لكم أتمنى ان تصبح ((بابا)) ، او تغدو والدا لى ، او أن تتحول الى فتاة ، لنبقى طيلة ساعات أيامنا معا !

أخيرا .. يحظى بقبلات حبيبته !

• **تزوجت** ((ايميليا)) حبيبها فى عيد الفصح .. و فى تلك الاثناء ، كنت قد صحبت الفتاتين مرات الى سهرات ، حاولت خلالها ان ابث فى نفسيهما المرح الذى اخمده تزمت تقاليد المؤسسة !

وفى ذات يوم اعربت ((ارميلينا)) والمشرفة عليها – وكانت تدعى سكولاستيكا – عن رغبتهما فى أن تشاهدا حفلة راقصة .. وكانت المهمة صعبة ، فعرضت عليهما أن تتنكرا فى زى الرجال . واعددت العدة ، فاستأجرت حجرة فى أحد الفنادق، وحصلت لهما على طاقمين من ثياب الرجال . ولما صحبتهما الى الحجرة التى كانت النار تتراقص فى مدفأتهما – قلت لهما ان بوسعى ان اترك لهما الغرفة ، اذا آثرتا أن تكونا على انفراد. فقالت سكولاستيكا : ((انني لاشعر بأنني اثقل عليكما ، فمن السهل أن أرى أنكما متحابان !))

قلت : ((هو ذلك .. انني احب ارميلينا ، ولكنها لاتحبنى، وانما تعمل على تعذيبى))

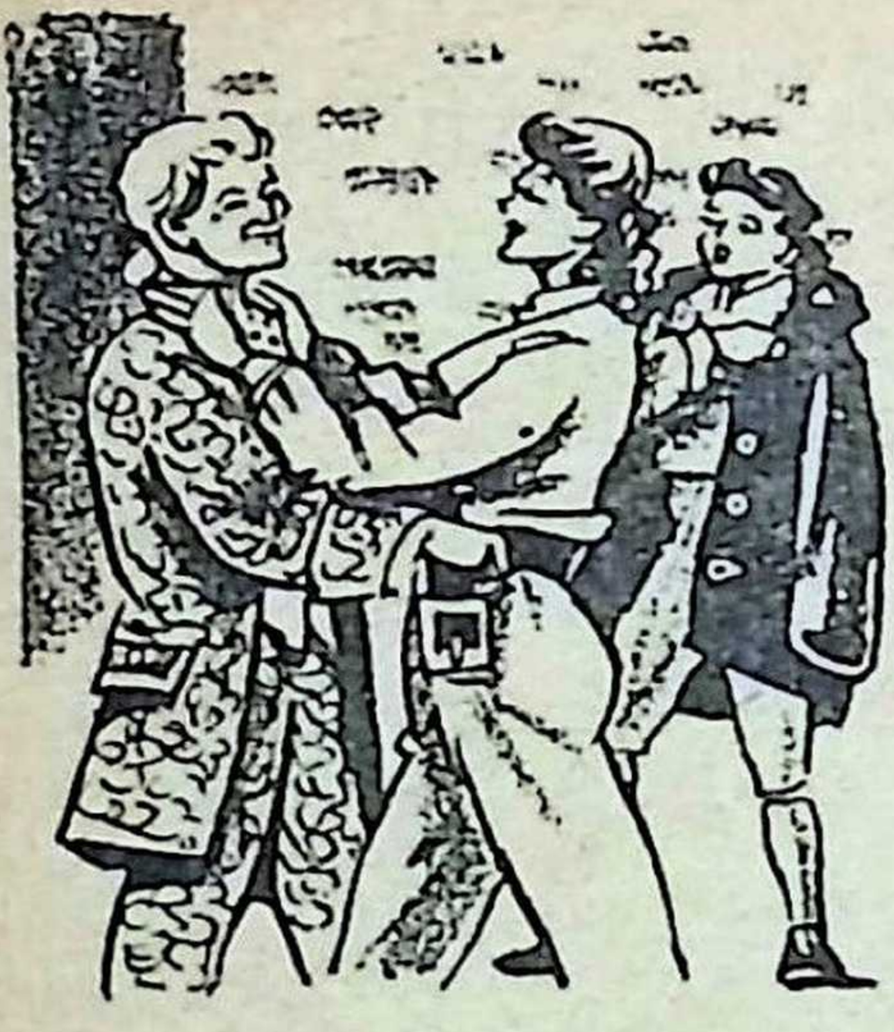

وغادرت الحجرة ، ولكن ارميلينا استدعتنى بعد ربع ساعة ، معلنة عجزهما عن ارتداء ثياب الرجال دون معونتى .. وفيما كنت اساعدها ، ألقت ذراعيها حول عنقى ، وراحت تمطرنى بالقبلات .. بينما كانت سكولاستيكا تضحك!

.. ..

(وهنا تنقطع القصة لغياب بضع صفحات من ((مذكرات كازانوفا)) ، ولكن القارىء ولا ريب يستطيع ان يدرك بفطنته بقية القصة . وفى اول صفحة بعد الصفحات الغائبة ، نجد ((كازانوفا)) فى فلورنسا ! .. أما لماذا ترك (روما) ؟ ومالذى صار اليه أمر ارميلينا؟.. فالارجح ان ((كازانوفا))نفسه انتزع هذه الصفحات بنفسه ، بأمل ان يعيد كتابتها ، ولكن المرض والموت حالا دون ذلك !

(ومما يؤسف له ان الجزء الضائع من المذكرات ، اشتمل على أسباب نزوح ((كازانوفا)) الى (فلورنسا) .. ويبدو انه لم يفعل ذلك باختياره .. اذ نجد فى أول صفحة بعد ذلك الجزء ، ما يلى :)

((كازانوفا)) ينشد حياة هادئة فى فلورنسا

.. ولم أسهب فى الايضاح ، وانما اقتصرت على ان اسأل ((الارشيدوق)) الشاب ، ان يمنحنى مأوى فى دولته ، ولكى اقطع عليه السبيل للاغراق فى الاسئلة ، ذكرت له الاسباب التى حملتنى على أن ألجأ الى دولته دون سواها واستطردت قائلا: ((اما عن مورد رزقى ، فألتمس من سموكم الملكى ان تطمئنوا

الى أننى لست بحاجة الى معونة ما ، فان لدى كفايتى من المال ، وسأكرس وقتى كله للدراسة ! .. ولقد كنت اعرف كل علية القوم هنا ، منذ عشر سنوات . على اننى لن اجدد تعارفى بهم ، لاننى اعتزم ان أعيش فى هدوء وسكينة ! »

واطمأننت الى أن الحاكم الشاب سيقينى كل عدوان ، فاستأجرت غرفتين فى منزل رجل طيب ، كانت زوجته قبيحة الشكل ، ولم يكن فى ابنته او ابنة اخيه ـ التى كانت تقيم فى رعايته ـ ما يجتذبنى اليهما .. وفى تلك الاثناء ، تعرفت الى صديق جديد ، يدعى « زانوفيتش » . وكان شابا مليحا ، ذا طباع كريمة ، ونفس سهلة ، ومرح فياض .. ولقد تبينت فيه صورة من شبابى ، فتوقعت ان يقع فى الاخطاء التى ترديت فيها . وقد التقيت فى داره بألويس زن . وهو ابن « الكابتن » الذى كان قائدا لقلعة « سانت اندريه » ، عندما سجنت فيها يوما ، وانا فى باكورة شبابى ، على ما رويت من قبل .

على اننى لم اوثق صلتى بأى من هذين الشابين ، ولم اكن التقى بهما الا فى الاماكن العامة .. ومع ذلك ، فقد ترتبت الاحداث ـ التى أوشك ان أرويها ـ عليهما !

يطرد من فلورنسا .. هى الاخرى !

• **فلقد** زار (فلونسا) ـ فى تلك الاثناء ـ اللورد لينكولن ، الابن الاوحد لدوق نيوكاسل ، على مااعتقد ، وكان شابا دون العشرين من العمر ، وقد تدله فى هوى راقصة من بنات البندقية ، تدعى « لامبرتى » ، وراح يحوم حولها . فما ان فطن « زانوفيتش » الى ذلك ، حتى اتصل بالفتاة ، ودبر معها خطة ما ، استطاع بفضلها ان يقود اللورد الفتى الى دارها . وهناك ، احاط «زانوفيتش» و «ألويس زن» باللورد الصغير ، واستدرجاه الى لعب الميسر ، واستطاعا أن يغشاه بمعونة « لامبيرتى » ، فراح اللئام الثلاثة يتقاسمونها معا ، حتى بلغ

دين اللورد الفتى لالويس زن وحده ، مبلغ اثنى عشر الفا من الجنيهات . وقد دفع لينكولن ثلاثة آلاف منها ، ووقع بالباقى ثلاث وثائق « كمبيالات » على مصرفه فى لندن

ولقد كان اللورد هو الذى انبأنى بكل هذا ، عندما التقيت به فى (بولونيا) بعد ذلك بزمن . على اننى فى تلك الفترة لم اعرف من الامر اكثر مما شاع فى (فلورنسا) عن ان المصرفى « تاسو تاسى » قد دفع ستة آلاف جنيه الى زانوفيتش ، بأمر من اللورد . **لذلك ففى وسع القارىء ان يتصور دهشتى عندما فوجئت - بعد انتشار هذا النبأ بثلاثة ايام - بشخص يقتحم غرفتى ، ويسألنى عن اسمى ، ثم يأمرنى بأن ابرح أراضى فلورنسا فى ثلاثة ايام ، وبأن أتجنب أراضى (توسكانى) بعد اسبوع من هذا الانذار .**

وكان ذلك فى ٢٨ ديسمبر .. واسرعت الى النائب العام ، لاتعرف السبب الذى دعا الى طردى ، فاذا به نفس الرجل الذى انذرنى بمبارحة (فلورنسا) قبل ذلك بأحد عشر عاما ، فأوجست شرا .. وعندما وجهت اليه سؤالى ، كان جوابه ان هذه كانت رغبة صاحب السمو الملكى « الارشيدوق » !

« كازانوفا » يكتب تاريخ (بولندا)

• ولقد ابرأنى رحيلى من فلورنسا ، من مغامرة غرامية كانت خليقة بان تنتهى الى نكبة . فقد احببت ارملة لعوبا ، استطاعت بعبثها وغوايتها ان تجردنى من كل عزيمة ، وان تجرنى فى ركابها ، وان تزدرينى وتحاول النيل من كرامتى . **ولست ادرى ما الذى كان ينتهى اليه امرى معها ، اذ اننى لم أكن قد ألفت شيخوختى بعد ، ولم أكن قد رضت نفسى على أننى تجاوزت السن التى كنت فيها مشتهى لدى الغوانى والحسان !**

وبلغت (بولونيا) فى آخر أيام سنة ١٧٧٢ .. وفى أول يوم فى العام الجديد ، زرت الكاردينال برانكافورت ، المندوب

البابوى .. وكنت قد التقيت به فى (باريس) قبل عشرين عاما ، وكثيرا ما ضمتنا معا موائد الخاطئات الجميلات ..

وفى تلك الاثناء ، كان السنيور دى زاجورى - وهو من نبلاء البندقية المبرزين - يعمل مع بعض الاصدقاء المخلصين على استصدار عفو عنى ، كى أعود الى وطنى .. البندقية . وما لبثوا ان سألونى ان أقيم على مقربة من اراضيها . وانتهى الرأى بيننا على ان أقيم فى (تريستا) ، حيث سبقتنى توصيات الى علية قومها ..

وقضيت الايام العشرة الاولى - لاقامتى هناك - فى مراجعة المذكرات التى كنت قد جمعتها فى (بولندا) ، ثم شرعت فى كتابة تاريخ القلاقل والاضطرابات التى أدت الى ما كان يجرى - فى تلك الآونة - من تقسيم تلك الدولة التعسة !

وكنت قد توقعت هذا المصير ، منذ اعترف امير بولندا بالقيصرة اليزابيث بتروفنا امبراطورة على كل الاراضى الروسية ، وحاكم براندنبورج المنتخب ملكا على بروسيا .. ولم يقدر لى ان أصدر سوى ثلاثة مجلدات من هذا المؤلف ، ثم حال جشع الناشرين دون طبع المجلدات الاربعة الباقية ، التى ستوجد بين أوراقى عند مماتى .

.. ويقوم بتجديد المعاهدات التجارية لبلاده !

وفى أول ديسمبر سنة ١٧٧٣ ، استدعانى البارون « بيتونى » الى داره ، لاقابل شخصا وصل لفوره من البندقية . فهرعت الى داره ، وهناك التقيت برجل مليح ، انيق ، يتراوح عمره بين الخامسة والثلاثين والاربعين ، أدركت لفورى انه السنيور دى زاجورى ، الذى تبنى قضيتى دون أن يكون على معرفة سابقة بى .. وعن طريقه تعرفت الى قنصل البندقية فى (تريستا) ، وكان شيخا جليلا ، سعدت بصداقته طيلة العامين اللذين قضيتهما فى تريستا .. واعتقد أنه ساهم بنصيب وافر من الجهود ، لاعادتى الى وطنى .. وهى الأمنية

التى كنت أعيش من أجلها . فلقد اشتد بى الحنين الى وطنى فى السنوات الاخيرة

ومارست فى تريستا حياة هادئة ، لاسيما وان مواردى كانت من التناقص بحيث اضطرتنى الى أن التزم الاقتصاد الشديد. ولقد اديت خلال العامين خدمات لوطنى ، بالتعاون مع القنصل. اذ عملت على مراجعة بعض المعاهدات التجارية القديمة ، وعلى تجديدها ، مما عاد على دولة البندقية بفوائد جمة ، تلقيت عنها منحة مالية ، ومعاشا شهريا قدره عشرة جنيهات . فساعدنى هذا على أن أتخفف من بعض التقتير فى عيشى .

على ان المعنى الادبى لهذا التقدير من السلطات التى حرمتنى من قبل من حريتى ، واضطرتنى ــ بعد اذ أبيت البقاء فى السجن ظلما ــ الى ان ابقى مبعدا عن وطنى .. كان المعنى الادبى لهذا التقدير يفوق كل قيمة مادية . وقد حدث ــ حوالى ذلك الوقت ــ ان جاء القائد البندقى « بالمانوفا » الى تريستا ، فى زيارة حاكمها ، مستصحبا النائب العام « اريتزو » . وقد التقيت بهما فى دار القنصل الفرنسى

يحترم احكام ظالمه !

• **وكان** الزائران يعتزمان ان يقوما ــ بعد ذلك مباشرة ــ بزيارة سفينة حربية تابعة للبندقية ، مصطحبين القنصل واسرته ، وبعض كبار ابناء البندقية فى تريستا . فدعتنى ابنة القنصل لمرافقتهم ، ولكننى اجبت ــ ضاحكا ــ بان من المحرم على ، منذ سنوات طوال ــ ان اطأ ارضا تابعة للبندقية . فصاح كل الموجودين اذ ذاك ، مستنكرين هذا الحرمان ، واصروا على ان اصحبهم . ولكننى قلت : « اذا وعدنى السيدان ــ اقصد القائد والمدعى العام ــ بأن لا يصل النبأ الى ديوان التفتيش فيعتبر خرقا منى لحكم سابق ، فلا بأس لدى ! »

ووجم الحضور ازاء قولى هذا ، واضطروا الى الذهاب بدونى .. على ان المدعى العام هنأنى ــ فى اليوم التالى ــ على حكمتى ،

واكد لى انه سيرفع الى محكمة التفتيش هذا النبأ عن احترامى لأحكامها !

. . . .

(وهنا تنتهى فجأة مذكرات ((جياكومو كازانوفا)) ، شيفالييه دى سيينجال ، وفارس الحربة الذهبية ، والمغامر العالمى .. وليس ثمة ما يجزم بما اذا كان قد مات قبل ان يتم مذكراته ، او انه أعدم بنفسه القسم الاخير منها ، او أن الموكلين بمراجعة مؤلفاته استبعدوا هذا الجزء ، او أن مخطوطاته وقعت فى أيد لم تكن أمينة عليها او معتنية بها ..

(على ان ما يمكن الجزم به ، هو ان كازانوفا ظفر بالعفو أخيرا ، فعاد الى البندقية ، حيث استخدم كعضو سرى فى ديوان التفتيش ، أو – بتعبير اكثر صراحة – كجاسوس ! .. على انه اخفق فى هذه المهمة سواء عن اشمئزاز منه ، او بسبب كبر سنه ، وتداعى قواه العقلية . ومن ثم فقد بارح البندقية – مرة اخرى – فزار (فيينا) ثم (باريس) ، حيث التقى بالكونت الامير فالنشتاين ، الذى أعجب به ، فعينه أمينا لمكتبته فى حصن دوكس ، بالقرب من (تبليتز) . وفى هذه المكتبة قضى كازانوفا الاربعة عشر عاما التى بقيت له فى الحياة !

(ولقد قضى السنوات الاخيرة من عمره ، فى آلام من جراء الكهولة ، ومن انهيار اعصابه ، واتساع الهوة بين عقليته وعقلية الجيل الجديد ، لاسيما وان الآراء المتحررة بدأت تسود أوربا بأسرها ، بعد الثورة الفرنسية . ولقد جاءه الموت كمنقذ خلصه من المتاعب البدنية والعقلية التى كان يعانيها . وكان آخر ما قاله : ((لقد عشت يا الهى العظيم ، ويا من تشهدون موتى ، فى احضان الفلسفة .. وانى لاموت على دين المسيح)) !

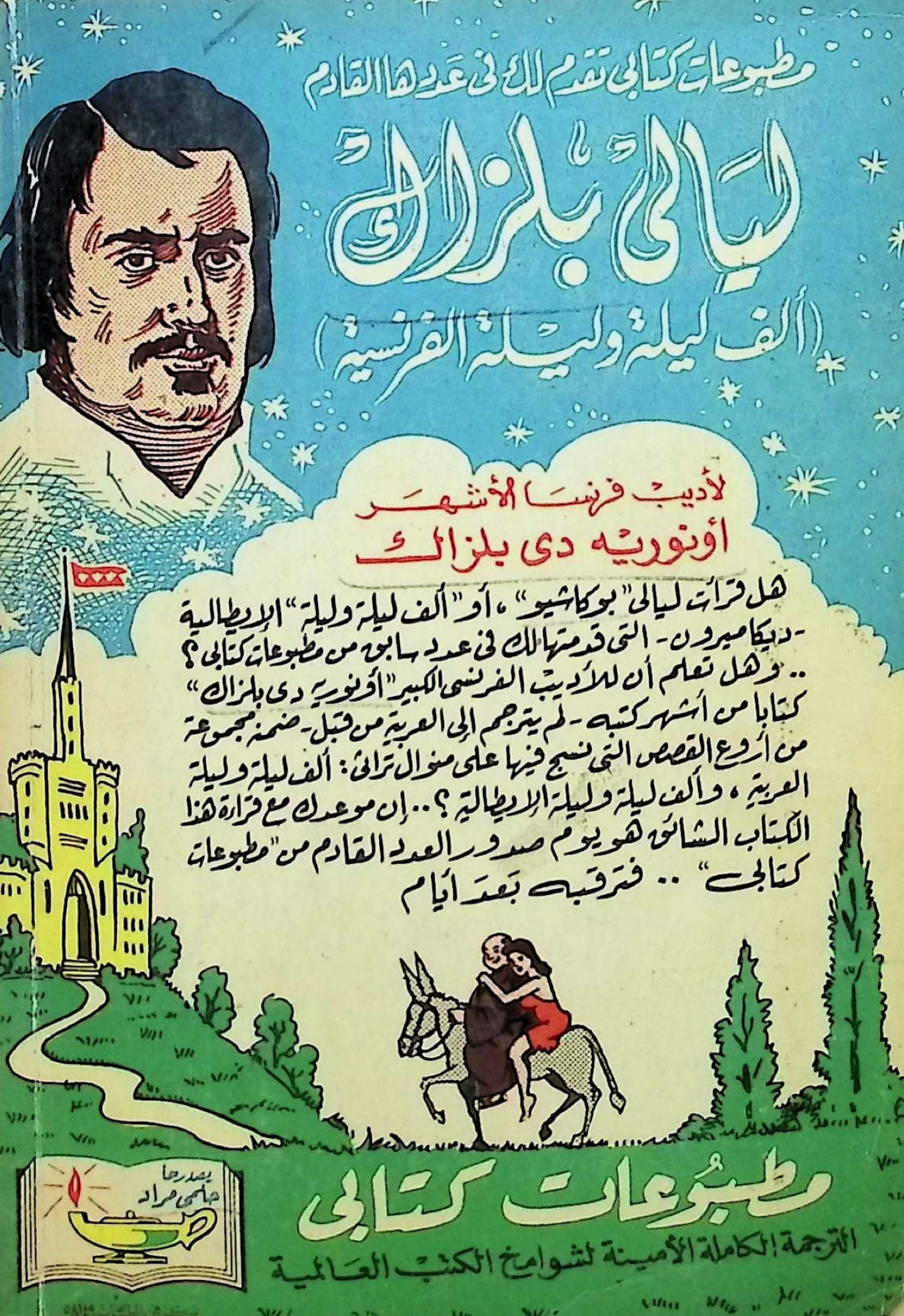

مطبوعات كتابى تقدم لك فى عددها القادم
ليالى بلزاك
(ألف ليلة وليلة الفرنسية)
لأديب فرنسا الأشهر
أونوريه دى بلزاك
هل قرأت ليالى "بوكاشيو"، أو "ألف ليلة وليلة" الإيطالية - ديكاميرون - التى قدمتها لك فى عدد سابق من مطبوعات كتابى؟.. وهل تعلم أن للأديب الفرنسى الكبير "أونوريه دى بلزاك" كتابا من أشهر كتبه - لم يترجم الى العربية من قبل - ضمنه مجموعة من أروع القصص التى نسج فيها على منوال تراثى: ألف ليلة وليلة العربية، وألف ليلة وليلة الإيطالية؟.. إن موعدك مع قراءة هذا الكتاب الشائق هو يوم صدور العدد القادم من "مطبوعات كتابى".. فترقبه بعد أيام
يصدرها حلمى مراد
مطبوعات كتابى
الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية